أثر التربية الإسلامية
في
أمن المجتمع الإسلامي

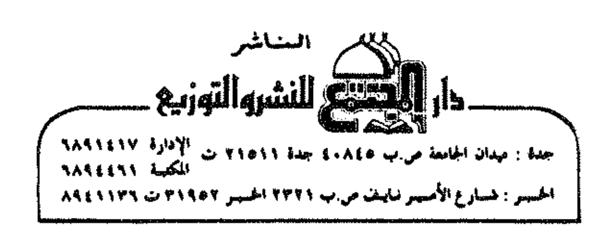
تأليف

الدكتور عبد الله بن أحمد قادري



الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م





بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

من يهده الله فلا فضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلّا وأنتم مسلمون﴾[1].

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيبا﴾[2].

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما﴾[3].

أما بعد،

فإن الإسلام هو دين الهدى والنور الذي لا سعادة للبشرية ولا أمن لها في الدنيا والآخرة إلّا عندما تهتدي بهداه وتستضيء بنوره مخلصة عبوديتها لله الخالق، تأتمر بأمره وتنتهي بنهيه وتتبع منهجه نابذة كل منهج من المناهج الأرضية المخالفة له. فإن أي أمة من الأمم في أي بقعة من الأرض، وفي أي زمان من الأزمان إذا دانت بهذا الدين واعتصمت بحبل الله واتبعت رسوله الأمين بصدق ويقين وعلم بما أنزله الله في كتابه المبين وسنة رسوله ﷺ - ان أي أمة من الأمم تتمسك بذلك لا بد أن تكون أسعد الناس وأكثرهم أمناً واستقراراً، تعيش عيشة رغدٍ وتحيا حياة عزٍ وسؤددٍ، تقود ولا تُقاد، وتأمر ولا تُؤمر وتنهي ولا تنهى، تحب الخير للناس كلهم وتهديه إليهم بجد ونشاط،

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٢. (٢) سورة النساء: ١. (٣) سورة الأحزاب: ٧٠ - ٧١.

ولـو اقتضى ذلك منهـا أن تقدم أمـوالها وأولادهـا ودماءهـا لإيصال الخيـر إلى الناس كافة، لأنها بذلك تـرضي ربها الـذي لا هدف لهـا في هذه الحيـاة غير رضاه.

وإن أي أمة من الأمم، في أي بقعة من الأرض، وفي أي زمن من الأزمان رفضت هذا الدين وابتعـدت عن هديـه وحاربتـه، وحاربت الـدعاة إليـه متبعة هواها عاصية ربها هاجرة كتابه خارجة على سنن هدي رسوله ﷺ ـ إن أي أمة تفعل ذلك لجديرة بأن تكون أكثر الأمم شقاءً وخوفاً واضطراباً في كـل شئـون حياتها، حتى لو بدت في ظاهر أمرها غنيـة بالأمـوال، كثيرة بـالرجـال، قويـة بـالصناعـات والمرافق والـرجال، فـإن السعادة لا تحصـل بمنصب ولا مـال، والأمن لا يحصل بسلاح ولا رجال، والطمأنينة لا تحصل بأي سبيل من السبل المادية المبنية على غير الإيمان وطاعة الله ورسوله ﷺ.

وقد دلّ على ذلك ـ أي سعادة المهتدين بهدي الله، وشقاوة المبتعدين عن منهج الله ـ الكتاب والسنّة والواقع الذي سجله التاريخ في كل الأحقاب.

قـال تعالى عن نبيـه نوح عليـه السلام: **﴿فقلت استغفـروا ربكم إنه كـان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا﴾**[1].

فقد رتب سبحانه وتعالى على استغفارهم ربهم الذي أمـرهم به إمـداد الله لهم بـالأموال والبنين وجعـل الجنات والأنهـار، وهذا من الجـزاء العاجـل في الدنيا، وإن لـم يكن الجزاء كله، ويشبه ذلك قوله تعالى: **﴿ألّا تعبـدوا إلّا الله إنني لكم منـه نذيـر وبشير وأن استغفـروا ربكم ثم توبـوا إليه يمتعكم متـاعاً حسنـاً إلى أجل مسمّى ويؤت كـل ذي فضل فضله...﴾**[2] آيـات نوح كـانت في قوم أول رسول بعثه الله إلى الأرض، وآيات هود كانت في قوم آخر رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، وكلها دالة على أن المتـاع الحسن والرزق الـرغيد يكونان لمن اتبع نهج الله واستجاب لهداه، وقد يمتع الله عدوه الكافر بالـرزق والجنات والأنهار والقوة المادية، ولكنه متاع غير هنيء، بـل مصحوب بـالقلق

---

(١) سورة نوح: ١٠ ـ ١٢. (٢) سورة هود: ٣.

والشقاء، ثم إن الذي يستقيم على منهج الله يتمتع برزق الله وهو يستحقه، بخلاف أعداء الله فإنه يمتّعهم به ابتلاءً لهم وزيادة في عذابهم بذلك المتاع في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: **﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون﴾**[1].

فتخصيص الله تعالى المؤمنين بأن هذه الطيبات لهم في الحياة الدنيا، مع أن غيرهم من المشركين يشتركون معهم فيها، يدل على أن المشركين ـ الذين أهمل ذكرهم ـ ليسوا أهلاً لتلك الطيبات في الحياة الدنيا، وإنما الذين هم أهلٌ لها هم المؤمنون، ولذلك روى ابن جرير، رحمه الله بسنده عن سعيد بن جبير أنه قال: «ينتفعون بها في الدنيا ـ أي المؤمنون ـ ولا يتبعهم إثمها»[2]. وقال القرطبي، رحمه الله: «قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا»: يعني بحقها من توحيد الله تعالى والتصديق له، فإن الله ينعم ويرزق فإن وحده المنعم عليه وصدقه فقد قام بحق النعمة، وإن كفر فقد أمكن الشيطان من نفسه، وفي صحيح الحديث: «لا أحد أصبر على أذى من الله يعافيهم ويرزقهم يدعون له الصاحبة والولد»[3].

ونقل أبو حيان عن التبريزي قوله: «معنى الآية أنها للمؤمنين خالصة في الآخرة لا يشركهم الكفار فيها، هذا وإن كان مفهومه الشركة بين الذين آمنوا والذين أشركوا، وهو كذلك، لأن الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البرّ والفاجر إلّا أنه أضاف إلى المؤمنين ولم يذكر الشركة بينهم وبين الذين أشركوا في الدنيا، تنبيها على أنه إنما خلقها للذين آمنوا بطريق الأصالة، والكفار تبع لهم في الدنيا، ولذلك خاطب الله المؤمنين بقوله تعالى: **﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾**[4].

وممّا يدل على أن رزق الله تعالى لخلقه فتنة منه واختبارٌ لهم أيشكرونه أم يكفرونه، قوله تعالى: **﴿واعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم﴾**[5].

---

(١) سورة الأعراف: ٣٢.
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦٥/٨).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩٩/٧).
(٤) البحر المحيط (٢٩١/٤).
(٥) سورة الأنفال: ٢٨.

ودلّت آية أخرى على أن رزق الكفار يكون حسرة عليهم، كما قال تعالى: **﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾**(١).

ومن الآيات الدالة على أن الأمة المهتدية بهدي الله يكرّمها الله تعالى بالسعادة والخير والبركات في الدنيا فتحيا حياة الأمن والعيش الرغيد قول الله تعالى: **﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كان يكسبون﴾**(٢). وإذا رأيت أمة من أمم الأرض محادة لله ورسوله وقد أغدق الله عليها بالرزق من السماء والأرض وظهرت بقوة المسيطر المتعالي فاعلم أن ذلك ليس بركة عليها وإنما هو محنة واستدراج لتنال عقابها الأليم في نهاية المطاف، ولذلك قال تعالى حاكياً حال الأمم الكافرة قبل مجيء أمة محمد ﷺ فقال: **﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضرّاء لعلهم يتضرّعون فَلَوْلا إذا جاءهم بأسنا تضرّعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون، فلما نسوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾**(٣).

ومن أصرح الآيات وأجمعها لسعادة المهتدين بهدي الله وطيب حياتهم في الدنيا والآخرة قوله تعالى: **﴿من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾**(٤).

والحياة الطيبة ليست هي الحياة التي توافرت فيها أنواع المتع المادية من مأكل ومشرب ومركب وملبس ومنكح، وصناعة وزراعة واختراع وغيرها فقط، وإنما هي الحياة الآمنة التي تطمئن فيها القلوب ويأمن الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ينتشر فيهم العدل ويختفي الظلم ويقود الأكفاء الصالحون البشرية فيها إلى ما يرضي الله، ومتع الحياة الدنيا المباحة جزء من الحياة الطيبة.

---

(١) سورة الأنفال: ٣٦. (٢) سورة الأعراف: ٩٦. (٣) سورة الأنعام: ٤٣ ـ ٤٥.

(٤) سورة النحل: ٩٧.

ومن الآيات التي جمعت بين إثبات الهدى والسعادة لمن اتبع هدى الله في الدنيا والآخرة، وإثبات الشقاء والضلال لمن ابتعد عن هديه قول الله تعالى: **﴿قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾**[1].

تأمل كيف نفى الله الضلال والشقاء عمن اتبع هداه، وأثبت المعيشة النكدة الضيقة والضلال المبين الذي عبّر عنه بالعمى لمن أعرض عن ذلك الهدى وهو ذكر الله. ثم أكّد تعالى شقاء من لم يهتد بهدي الله في الدنيا بالحياة الضنك وفي الآخرة بالعذاب الأليم فقال تعالى: **﴿وكذاك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾**[2]. تنبيهاً على استمرار هذه السنة الربانية، وهي شقاء من ابتعد عن طاعة الله وضلاله، وسعادة من اتبع منهجه واهتداؤه.

وأما السنة فقد دلّت على أن ألوان الشقاء تنزل بالأمة عندما تبتعد عن منهج الله وتجهله، شقاء انتهاك الأعراض وشقاء ارتكاب ما يفسد العقول، وإذا فسدت العقول وانتهكت الأعراض وفشا الجهل فأي حياة تلك التي يحيا بها الناس عندئذٍ؟ إنها حياة الضنك والضيق كما عبّر عنها القرآن الكريم تسفك فيها الدماء والأرواح وتغتصب كل الحقوق، وفي ذلك خراب العمران.

روى أنس، رضي الله عنه، قال: لأحدثنكم حديثاً لا يحدثكم أحد بعدي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل، ويظهر الزنا، وتكثر النساء ويقل الرجال، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد»[3].

وفي حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «يتقارب الزمان وينقص

---

(١) سورة طه: ١٢٣ ـ ١٢٦.

(٢) سورة طه: ١٢٧، وراجع أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لشيخنا العلامة: محمد الأمين الشنقيطي (٣/ ٩).

(٣) البخاري (١/ ٢٨).

العمل ويلقى الشح، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج» قالوا: يارسول الله أيُّمَ هو؟ قال: «القتل القتل»[1].

وفي حديث أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «إن بين يدي الساعة لأياماً ينزل فيها الجهل ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج، والهرج القتل»[1].

أي إن آخر الزمان يخالف أوله، بمعنى أن العصور الأولى كانت عصو نور وهدى انتشر فيها العلم والعمل الصالح وأمن الناس على أموالهم وأعراضهم ودمائهم، لأنهم كانوا ملتزمين بهدي الله، يتعلمون الكتاب والسنة ويطبقون ما جاء فيهما اعتقاداً وقولاً وعملاً، ولذلك أثنى رسول الله ﷺ على تلك القرون بحسب سبقها الزمني، لسبقها العملي كما في حديث عمران بن حصين، رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» قال عمران: لا أدري أذكر النبي ﷺ بعدُ قرنين أو ثلاثة، قال النبي ﷺ: «إن بعدكم قوماً يخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»[2].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: سئل النبي ﷺ: أي الناس خير؟ قال: «قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته...»[3].

وسبب هذا التفضيل تلك التزكية التي زكى بها رسول الله ﷺ أصحابه بالوحي الذي كان ينزل عليه علماً وعملاً وكذا تزكية أصحابه بعده للتابعين ثم تزكية التابعين لاتباعهم كما قال تعالى: ﴿**كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾[4].

وقال تعالى: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾[5].

---

(١) البخاري (٨/٨٩). (٢) البخاري (٣/١٥١)، (٤/١٨٩).

(٣) المرجع نفسه (٧/٢٢٤). (٤) سورة البقرة: ١٥١. (٥) سورة الجمعة: ٢.

أما الواقع التاريخي فإن الذي يتتبعه يجده شاهد صدق على أن الأمة المهتدية بهدي الله هي التي تحوز قصب السبق في العزة والتمكين والسعادة والأمن والاطمئنان في هذه الحياة، وإن الأمة المبتعدة عن الله وعن اتباع منهجه تمنى بحياة الذلّ والشقاء والاضطراب والخوف والقلق مهما أوتيت من المتع المادية ومهما شيدت من القصور ومدت من الجسور وشقت من الطرقات، وبنت من الاهرامات تجد فيها السادة المتجبرين والعبيد الأذلاء المستضعفين والظلمة الباطشين والمظلومين المحرومين. وتجد فيها الفواحش المنتشرة والجهل والتقاتل والتناحر لا ينصر القوي فيهم الضعيف ولا يجد الخائف من يؤمنه، وهذا ما يشاهد في هذا القرن المسمّى بالقرن العشرين الذي بنيت فيه ناطحات السحاب وعبدت فيه الطرق البرية، حتى أصبح الساكن في أقصى المعمورة في الشرق يمكنه السفر بسيارته إلى أقصاها في الغرب، وصنعت فيه الطائرات التي تقطع في ساعات المسافة بين أقصى الشرق والغرب وامتلأت البحار والمحيطات بالسفن الضخمة المدنية والعسكرية وكذلك الغواصات، وأصبحت كواكب السماء كأنها محطات للمسافرين من الأرض إليها وبخاصة القمر الذي أصبح شبيهاً بمتنزه تابع للأرض.

وهكذا ما من شيء في هذا الكون إلّا كان هدفاً لتفكير المفكرين وبحث الباحثين ليكتشفوا فوائده ويغوصوا في أعماق أسراره، ويخضعوه للاستفادة منه مدنياً أو عسكرياً، ولكن الحياة مع ذلك كله هي حياة شقاء وبلاء وضنك، تنتشر فيها الفوضى ويعمّ الخوف فلا تجد شعباً ولا دولة كبرت أم صغرت آمنة من أخرى تعدّ لها العدة وتتربص بها الدوائر، ولا تجد دولة أو شعباً خالياً من الظلم والاعتداء والإجرام، بل إنك لتجد الجرائم في تصاعد مستمر، يدل على ذلك ارتفاع نسبة المجرمين في المحاكم والسجون والمعتقلات ـ عدا من لم تضبطه أجهزة الأمن وهم لا يحصون ـ لا بل إنك لتجد الصالح المصلح الأمين العالم المحب لأمته الخيّر الساعي إلى ما فيه سعادتها، هو المجرم المكبل بالقيود المودع في المعتقلات، المصلت على رقبته سيف الموت من قبل من أوتي القوة من المتكبرين الطغاة الذين هم أولى بأن يوصفوا بأنهم مجرمون وأحق بالمعتقلات والسجون والنفي والقتل.

كما تجد من يموتون جوعاً في أكثر المعمورة وبجانبهم من يموتون من الشبع والتخمة، وتجد العرايا مما يستر عوراتهم وبجانبهم من تملأ ملابسهم الخزائن، وتجد من لا مأوى له يقيه من الحر والبرد والمطر وبجانبهم من يبني المتنزهات المؤقتة بأجود أنواع الأثاث الفارغة من السكان وتجد من يدّعي مناصرة حقوق الإنسان والديموقراطية وهو يفتك بالإنسان قتلاً وتشريداً، ويربي الكلاب والقرود ويقدم لها كل ما تشتهيه من مأكول ومشروب وملبوس ومسكن ورخاء، ويكبت أي صوت يرتفع مطالباً بالعدل والمساواة إذا كان ضد مصلحة مدّعي حقوق الإنسان والديموقراطية.

إن هذا العصر الذي فيه هذه الكوارث وغيرها لَمِن أعظم شواهد الحق على أن الأمة التي تبتعد عن هدى الله خليقة بالشقاء والخوف والقلق وكل أنواع الخسارة والدمار، مهما أوتيت من المتاع المادي الزائل، وان التربية الإسلامية بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ هي التي تنقذ البشرية من ويلاتها ومحنها وخوفها وتبدل ذلك كله بالحياة الطيبة الآمنة المستقرة.

ومما يدل على ذلك أن حياة الشعوب الإسلامية التي حافظت على القليل من أتباع نهج الله هي أسعد الشعوب بحياة الاستقرار والأمن والعكس بالعكس.

إن التربية الإسلامية بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ والعمل بهما تسعد الفرد والأسرة والمجتمع معاً بدون طغيان أحدها على الآخر، كل يأخذ حقه ويؤدي واجبه، بلا صراع ولا تطاحن بل برضا واطمئنان، فلا يفرض أمن الفرد بقوة السلطة فحسب ولا أمن المجتمع كذلك، لأن الفرد يؤمن بالواجبات التي يجب أن يؤديها لأسرته ومجتمعه، والمجتمع يؤمن بحقوق الفرد عليه، وكلهم مؤمنون بوجوب التعاون على البر والتقوى فلا طغيان لأحد على الآخر، وإذا أراد أحد الاعتداء على الآخر وجد الرادع له من الأحكام الشرعية التي كلّف الله المجتمع تنفيذها.

لذلك كله دفعني التأمل في أحوال الناس عامة وأحوال المسلمين خاصة أن أجمع في هذا الكتاب جملة من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، وأقوال علماء الإسلام ما عسى أن يقنع المسلمين أولاً، وغيرهم ممن ينشدون

الأمن. ثانياً، بضرورة السعي الجاد لتطبيق التربية الإسلامية لينبني عليها أثرها، وهو أمن الفرد والأسرة والمجتمع، وأنه بدون ذلك فلا أمن ولا حياة طيبة سعيدة وسميته: «أثر التربية الاسلامية في أمن المجتمع الاسلامي».

وقد جعلته تمهيداً وثلاثة أبواب وخاتمة، وفي كل باب فصول ومباحث ومطالب، وقد يشتمل بعض المطالب على فروع، أكتفي هنا بذكر الأبواب والخاتمة، أما الفصول ومباحثها ومطالبها فسيأتي تفصيلها في أثناء الكتاب وفي الفهرس إن شاء الله:

الباب الأول: في تربية الفرد المسلم

الباب الثاني: في تربية الأسرة المسلمة.

الباب الثالث: في تربية المجتمع المسلم.

الخاتمة: وتشتمل على الثمرات المترتبة على التربية الاسلامية.

التمهيد: وفيه بيان معنى الأمن، وأقسامه، وأصول الحياة الطيبة التي لا أمن للبشرية بفقدها ولا يتحقق وجودها إلاّ إذا وجدت التربية الاسلامية للفرد والأسرة والمجتمع.

في هذا التمهيد ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى الأمن.

المطلب الثاني: أقسام الأمن.

المطلب الثالث: أصول الحياة الطيبة.



التمهيد

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول : معنى الأمن

المطلب الثاني : أقسام الأمن

المطلب الثالث : أصول الحياة الطيبة



المطلب الأول:
معنى الأمن

أصل الأمن طمأنينة النفس وعدم الخوف، يقال: أمن، كسلم وزنا ومعنى، وأمن البلد اطمأن به أهله[1] والمراد بالأمن هنا اطمئنان الفرد والأسرة والمجتمع على أن يحيوا حياة طيبة في الدنيا لا يخافون على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ودينهم وعقولهم ونسلهم من أن يعتدى عليها أو على ما يصونها ويكملها أحد بدون حق، وفي ذلك اطمئنانهم بالسعي في كل ما يرضي الله سبحانه حتى يتم لهم الأمن في الآخرة بنيل رضا الله وثوابه والنجاة من عقابه.

هذا هو الأمن المطلوب إجمالاً: الأمن على الحياة الطيبة في الدنيا، والأمن على الحصول على رضا الله والنجاة من غضبه يوم القيامة.

المطلب الثاني:
أقسام الأمن

يتضح ممّا تقدم أن الأمن ينقسم قسمين:

القسم الأول: الأمن في الدنيا، وهو الاطمئنان على ضرورات الحياة وما يكملها، بحيث لا يعتدي أحد على تلك الضرورات والمكملات، فإذا همّ أحد بالاعتداء على شيء منها وجد ما يزجره من الزواجر التي وضعها الخالق سبحانه من العقاب الأخروي، أو العقاب الشرعي العاجل.

وهذا القسم من الأمن حرص عليه جميع الأحياء، لأنه محسوس، عاجل، والنفس مولعة بحب العاجل، فلا يقدم أحد على ما يكون سبباً في فقد أمنه ـ في الغالب ـ إلّا لأحد أمرين:

---

(١) راجع مادة أمن «في كتب اللغة، كاللسان والقاموس وكذا المفردات، والمصباح المنير.

الأمر الأول: عدم علمه بأن ما يقدم عليه قد يكون سبباً في فقد أمنه، كمن يقدم على الاعتداء على قتل نفسٍ محرمة، فيزهقها ـ خفية في ظنه ـ ثم يكشف أمره فينال جزاءه، وهو القصاص.

الأمر الثاني: أن يترجّح عنده الإقدام على ما يكون سبباً في فقد أمنه على عدم الإقدام؛ كمن اعتدى على دينه أو عرضه أو ماله، فدافع عن ذلك حتى قتل سواء كان قتله في الميدان مع المعتدي، أم تحت تجبّر طاغية استغل قوته، لأنه يرى أن محافظته على شرفه وعزته خير من محافظته على حياة لا يتوافر له فيها الأمن الحق والحياة الحرة الطيبة.

والأمن الدنيوي الذي يمنّ الله به على الأمم لا يدوم مع الكفران بل يبدلها الله به الخوف والجوع وسوء الحياة، كما قال تعالى: ﴿**وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنْعُم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**﴾[1].

ومن الأمم التي امتنّ الله عليها بالأمن ثم بدلها به خوفاً لكفرانها مشركو قريش الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿**فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**﴾[2].

وعندما أصروا على الكفر ومحاربة الله ورسوله ﷺ أبدلهم الله بأمنهم خوفاً، وبغناهم فقراً، وبشبعهم جوعاً. وسلط عليهم رسوله ﷺ والمؤمنين فأذلوهم في بدر وغيرها وفتح الله على المؤمنين مكة فدخلوها آمنين وانتصروا على عدوهم الذين أيقنوا ألاّ أمن ولا طمأنينة إلاّ بهدي الله فاستجابوا له فعاد الأمن والعزة اليهم وأصبحوا سادة الدنيا بذلك.

القسم الثاني: الأمن الأخروي، وهذا هو الأمن الحق الذي إذا وفق الله له أمة من الأمم فهيّأ لها أسبابه وحجب عنها موانعه فسعت لتحقيقه تحقق لها معه أمن الدنيا، وأهم أسبابه الالتزام بمنهج الله وعبادته وحده لا شريك له وعدم طاعة غيره في معصيته، كما قال تعالى: ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم**

---

(١) سورة النحل: ١١٢. (٢) سورة قريش: ٣، ٤.

وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾[1].

فالأمة التي تؤمن بالله وتعمل صالحاً فتعبد الله ولا تشرك به شيئاً هي الأمة الجديرة بالاستخلاف والتمكين والأمن في الأرض، كما هي جديرة كذلك بالأمن التام يوم يخاف الناس: يقوم القيامة يوم الفزع الأكبر، وهذا كما سبق هو الأمن الحق، كما قال تعالى: **﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة، اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾**[2]. فالنجاة من النار يوم القيامة هي الأمن الحق. والذي ينجو من النار يكمل أمنه بدخول الجنة ونعيمها وغرفاتها كما قال تعالى: **﴿إن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين﴾**[3].

وقال تعالى: **﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون﴾**[4].

هذا هو الأمن التام الذي لا يتحقق إلّا بالخوف التام: الخوف من الله وحده والتوكل عليه وعدم الخوف ممن سواه، وهو الذي جادل به أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام قومه عندما خوفوه بآلهتهم، كما قال تعالى: **﴿وحاجَّه قومه قال: أتحاجُّونّي في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلّا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فأي الفريقين أحقّ بالأمن إن كنتم تعلمون. الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾**[5].

وبهذا يعلم أن الأمة التي تحوز الأمن التام في الدنيا والآخرة هي أمة التوحيد والطاعة لله ولرسوله ﷺ، وأن السعي للحصول على الأمن في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً بغير ذلك ضرب من اللعب واللهو. **﴿فأي الفريقين**

---

(١) سورة النور: ٥٥. (٢) سورة فصلت: ٤٠. (٣) سورة الحجر: ٤٥، ٤٦
(٤) سورة سبأ: ٣٧. (٥) سورة الأنعام: ٨٠ ـ ٨٢.

أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾.

ومن أجل هذا الأمن أنزل الله كتبه وبعث رسله وخلق خلقه وأعد جنته وناره: **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾**[1]، **﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقّت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾**[2].

ومع ذلك فإن أغلب الأمم التي تدعي أنها تنشد الأمن والرخاء والاستقرار لا تسلك سبيل هذا القسم بل إنها لتضع السدود أمام سالكيه وتحاربهم وتصدّ من أراد أن يستجيب لهم يدل على ذلك قصص الأنبياء والرسل مع قومهم، وتاريخ الدعاة إلى الله مع الأجيال المتلاحقة اقرأ قصة نوح مع قومه، وقصة إبراهيم مع قومه، وقصة هود مع قومه وقصة صالح مع قومه، وقصة شعيب مع قومه، وقصة لوط مع قومه، وقصة موسى مع قومه، وقصة عيسى مع قومه، وقصة محمد ﷺ وعلى إخوانه من الأنبياء أجمعين، مع قومه، وتأمل تاريخ الأمم إلى يومنا هذا لترى أن أغلب تلك الأمم تسعى جاهدة لتعاطي كل سبيل يوصلها إلى خوفها وهلاكها ودمارها وتسد كل باب يوصلها إلى أمنها واطمئنانها واستقرارها، على الرغم من دعوى السعي الجاد إلى الأمن والاستقرار، ثم تتبع ما ذكر الله في كتابه من أن أكثر الناس ضالون مضلون فاسقون كافرون غير مؤمنين، كما قال تعالى: **﴿إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾**[3].

وقال تعالى: **﴿وإن تطع أكثر مَنْ في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾**[4]. وقال تعالى: **﴿إنّه الحقّ من ربك لكنّ أكثر الناس لا يؤمنون﴾**[5] وقال تعالى: **﴿ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلاّ كفوراً﴾**[6]، وقال تعالى: **﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾**[7].

---

(١) سورة الذاريات: ١٥٦ (٢) سورة النحل: ٣٦. (٣) سورة البقرة: ٢٤٣.
(٤) سورة الأنعام: ١١٦. (٥) سورة هود: ١٧. (٦) سورة الفرقان: ٥٠.
(٧) سورة يس: ٦، ٧.

وتأمل كيف يستهزىء الناس الذين يفقدون الأمن بدعاة الخير والأمن من الرسل فينالون بذلك غاية التحسّر والتندّم، كما قال تعالى: ﴿**يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزءون**﴾[1].

وتأمل كذلك قوله تعالى: ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبّئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير**﴾[2].

بل إن أعداء الأمن يقتلون دعاة الأمن، كما قال تعالى: ﴿**لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون**﴾[3].

ومن هنا يتضح لنا ضرورة التربية الإسلامية التي لا يتحقق الأمن الحق في أي أمة إلاّ إذا تربى أفرادها وأسرها ومجتمعها بتلك التربية الربانية.

﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾[4].

المطلب الثالث:
أصول الحياة الطيبة

وهذه الأصول التي لا تكون الحياة طيبة بدونها هي التي يسميها العلماء بالضرورات الخمس، وهي: الدين، والنفس، والنسل، والعقل، والمال، وبعضهم يضيف إليهما ضرورة سادسة وهي العرض.

هذه الضرورات إذا لم تحفظ لأي أمة فإن بقاء تلك الأمة مستحيل، وانقراضها محقق.

ولذا قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «فأما الضروريات فمعناها أنها لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا

---

(١) سورة يس: ٣٠. (٢) سورة الحج: ٧٢ (٣) سورة المائدة: ٧٠.

على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين»[1].

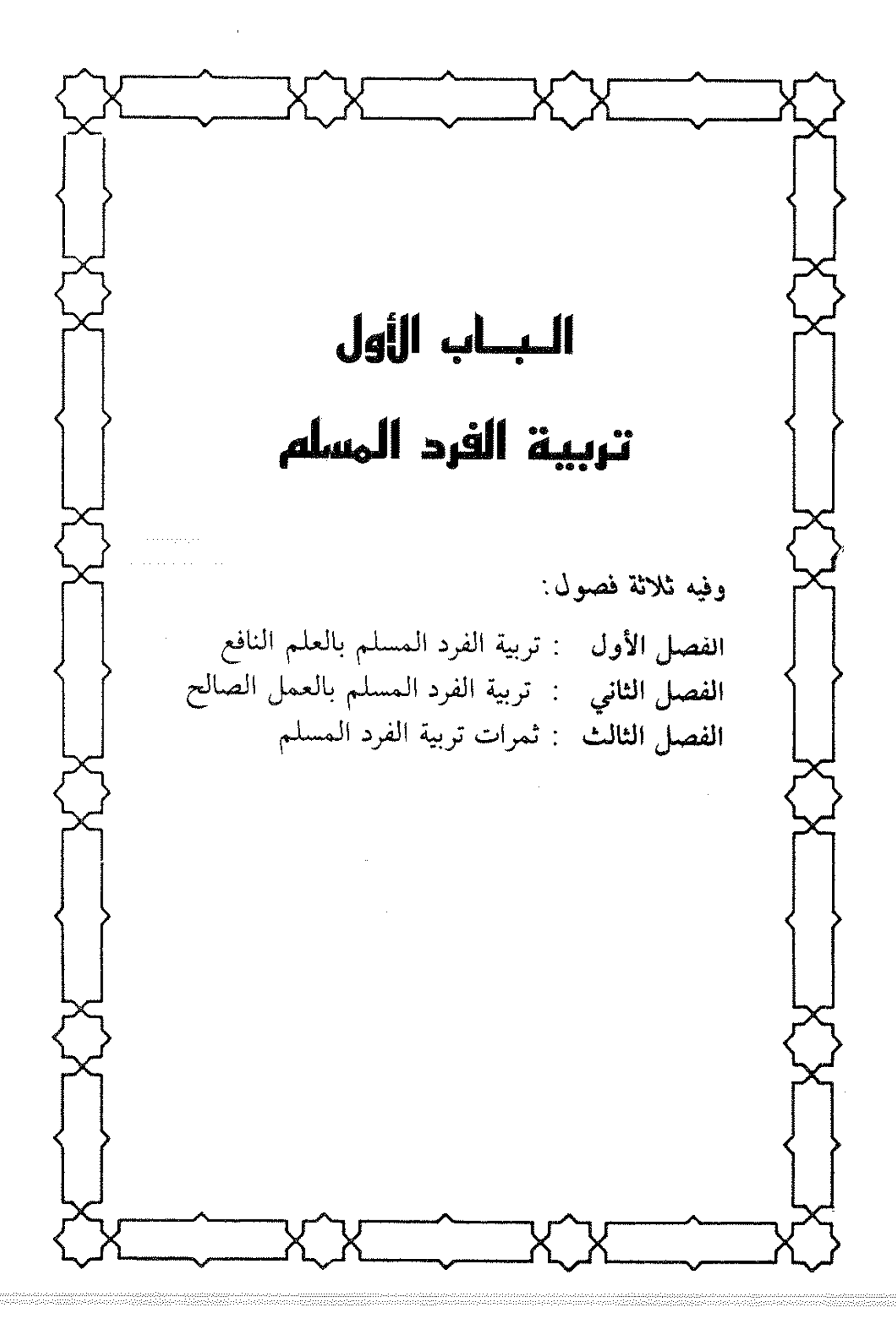
وإذا رجعنا إلى نصوص القرآن والسنّة وكتب الشريعة الإسلامية وجدنا أن هذه الأصول التي لا حياة بدونها هي الهدف الذي يجب أن يكون نشاط الإنسان كله متجهاً لحفظه وحفظ ما يكمله أو درء ما يضعفه.

وقد فصلت القول فيها في كتاب مستقل فليعد إليه من شاء فإنه يغني عن التطويل هنا[2].

---

(١) الموافقات (٢/٨) بتحقيق الشيخ عبدالله دراز.

(٢) راجع: الاسلام وضرورات الحياة، صدر عام ١٤٠٦.



الباب الأول

تربية الفرد المسلم

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول : تربية الفرد المسلم بالعلم النافع

الفصل الثاني : تربية الفرد المسلم بالعمل الصالح

الفصل الثالث : ثمرات تربية الفرد المسلم

الفصل الأول:
تربية الفرد المسلم بالعلم النافع

وفيه مباحث:

المبحث الأول : في المقصود بالعلم

المبحث الثاني : العلم بالله تعالى

وفيه مطالب:

المطلب الأول : العلم بألوهية الله

المطلب الثاني : العلم بإحاطة علم الله بكل شيء

المطلب الثالث : العلم بقدرة الله التامة على كل شيء

المطلب الخامس : العلم بأسماء الله وصفاته

المبحث الثالث : العلم بكتاب الله وسنة رسوله

المبحث الرابع : العلم برسول الله ﷺ

المبحث الخامس : العلم باليوم الآخر

المبحث السادس : العلم بالملائكة ووظائفهم

المبحث السابع : العلم بوجوب محبة الله ورسوله

المبحث الثامن : العلم بأن الله واهب الحياة والرزق



المبحث الأول:
في المقصود بالعلم

العلم المقصود هنا هو هدى الله تعالى الذي أوحاه إلى رسله عليهم السلام لهداية الناس، وقد أخبر الله تعالى نبيه آدم أبا البشر عليه السلام وزوجه حواء، وإبليس لعنه الله، عندما أهبطهم إلى الأرض أنه باعث إليهم ذلك العلم، فمن اتبعه نجا في الدنيا والآخرة، ومن عصاه هلك فيهما، كما قال سبحانه وتعالى:

﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[1].

وهو ـ أي العلم المقصود هنا ـ الذي أخبر الله سبحانه وتعالى أن من اتبعه نال السعادة ونجا من الضلال والشقاء ومن أعرض عنه نزل به الضيق والشدة في الدنيا ونال العقاب الشديد في الآخرة، كما قال سبحانه وتعالى:

﴿قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى، فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾[2].

قال ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآيات: «يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة، والمراد الذرية، أنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل، كما قال أبو العالية الهدى الأنبياء والرسل والبينات والبيان. وقال مقاتل بن حيان: الهدى محمد ﷺ، وقال الحسن: الهدى القرآن، وهذان القولان صحيحان، وقول أبي العالية أعمّ.

﴿فمن تبع هداي﴾ أي أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل

(١) سورة البقرة: ٣٨، ٣٩ (٢) سورة طه: ١٢٣ ـ ١٢٦.

﴿**فلا خوف**﴾ أي فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿**ولا هم يحزنون**﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا، كما قال في سورة طه: ﴿**قال اهبطا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى**﴾ قال ابن عباس: «فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة». ﴿**ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى**﴾، كما قال ههنا: ﴿**والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾[1].

وهذا العلم هو الذي ألهم الله خليله ابراهيم وابنه إسماعيل أن يدعواه جلّ وعلا بأن يمنّ به على ذريته الذين يخلفونه في عمارة بيت الله الحرام مع رسول يكرمهم الله به ليتلوه عليهم ويعلمهم إياهْ ويطهرهم به بحيث يعبدونه ولا يشركون به شيئاً، كما قال سبحانه وتعالى:

﴿**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك انت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم. ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين**﴾[2].

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم أي من ذرية إبراهيم، وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن...»[3]

قلت: وقد بيّن سبحانه وتعالى في كتابه أنه بعث فيهم رسوله محمداً ﷺ بكتابه لتعليمهم وتطهيرهم بالعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿**لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾[4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٨٢)، وانظر الكتاب نفسه (٣/١٨٦).

(٢) سورة البقرة: ١٢٧ - ١٣٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/١٨٤)

(٤) سورة آل عمران: ١٦٤.

وقال تعالى: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾[1].

وبيّن النبي ﷺ العلم النافع الذي هو كتاب الله وسنّة رسوله، وضرب له مثلاً بالغيث الذي يسقي الله به الأرض، كما ضرب أمثلة لأقسام الناس في انتفاعهم بهذا العلم وعدمه، فقسّمهم ثلاثة أقسام:

قسم يعلم هدى الله ويهتدي به ويهدي به غيره وهم الذين يسعون في تحصيل هذا العلم ويعملون به ويدعون إليه، وضرب لهم مثلاً بالأرض الطيبة التي تقبل الماء وتنبت الكلأ والعشب الكثير.

وقسم يسعون في تحصيل العلم ولكن فقههم فيه أقل من القسم الأول؛ وكذلك عملهم، فهؤلاء ضرب لهم مثلاً بالأجادب من الأرض التي تمسك الماء فيستقي الناس منها ويشربون.

وقسم ثالث لا يسعى في تحصيل العلم ولا العمل به وضرب لهؤلاء مثلاً بالأرض السبخة التي لا تقبل الماء ولا تنبت الكلأ.

كما روى ذلك أبو موسى الأشعري، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله عزّ وجل ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[2].

هذا هو العلم النافع الذي جاء من عند الله فأثمر في صاحبه العمل الصالح الذي يرضي الله تعالى، وكل علم سواه فليس بنافع ما لم يكن خادماً له مؤدياً إلى ما يؤدي إليه.

---

(١) سورة الجمعة: ٢.

(٢) البخاري في العلم (١/٢٨) ومسلم (٤/٢٢٨٢).

قال الشاطبي رحمه الله: «العلم الذي هو العلم المعتبر شرعاً ـ أعني الذي مدح الله ورسوله أهله على الاطلاق ـ هو الباعث على العمل الذي لا يخلّي صاحبه جارياً مع هواه كيفما كان، بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه الحامل له على قوانينه طوعاً وكرهاً»[1].

وقال: وقال سفيان الثوري: إنما يتعلم العلم ليتقى به الله وانما فضل العلم على غيره لأنه يتقي الله به، وعن النبيّ ﷺ أنه قال: «لا تزول قدمَا عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمس خصال «وذكر فيها» وعن علمه ماذا عمل فيه»[2].

وعن أبي الدرداء: إنما أخاف أن يقال لي يوم القيامة: أعلمت أم جهلت؟ فأقول: علمت، فلا تبقى آية من كتاب الله آمرة او زاجرة إلا جاءتني تسألني فريضتها، فتسألني الآمرة: هل ائتمرت؟ والزاجرة: هل ازدجرت؟ فأعوذ بالله من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع...[3].

وأوضح ابن القيم رحمه الله أن العلم النافع هو العلم الذي تطيب به الحياة وينشرح به الصدر، وهو الموروث عن رسول الله ﷺ، فقال: «ومنها ـ أي من أسباب شرح الصدر ـ العلم، فانه يشرح الصدر ويوسعه، حتى يكون أوسع من الدنيا والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس، فكلما اتسع علم العبد انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل علم، بل للعلم الموروث عن رسول الله ﷺ، وهو العلم النافع، فأهله أشرح الناس صدراً وأوسعهم قلوباً وأحسنهم أخلاقاً وأطيبهم عيشاً...»[4].

قلت: من أهم أسباب انشراح صدر العالم بالعلم النافع صحة تصوره لما ينفعه. وما يضره، لأنه بذلك يصبح سيره في الدنيا مبنياً على علم بالطريق الآمن الذي يحقق له السعادة، فهو يسلكه راضياً مطمئناً، ولو حصل له

---

(١) الموافقات: (١/٣٤) تحقيق محمد محي الدين.

(٢) الترمذي (٤/٦١٢) من حديث ابن برزة رضي الله عنه، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) الموافقات (١/٢٩ ـ ٣٠).

(٤) زاد المعاد (٢/٢٤).

بسلوكه ضرر مؤقت، فإنه يعلم حسن العاقبة، كما أنه على علم بالطريق المخوف الذي فيه شقاؤه، فلا يسلكه وإن كان فيه نفع مادي ولذة مؤقتة. والجاهل بخلافه ولذلك يضيق صدره، وإن بدا سعيداً، لأنه محجوب الرؤيه عن سبيل سعادته وسبيل شقائه، فيسلك سبيل الشر ظاناً انه ينتفع به، فينكشف له عكس ذلك مرة بعد مرة، وهو لا يتعظ ولا يفيق، وكلما وقع في شرّ ضاق صدره، وهكذا.

المبحث الثاني:
العلم بالله تعالى

العلم بالله سبحانه وتعالى هو أساس العلم النافع، وكل علم لم يُبْنَ على هذا الأساس فليس بنافع في الحقيقة، وإن اغترّ به أهله لأنه*لا يحقق لصاحبه سعادة في الدنيا ولا هداية، ولا ينجيه من شقاء الآخرة وعذابها، بله أن يوصله الى رضا الله ودار نعيمه. والعلم به سبحانه يعني التعرف على أسمائه وصفاته وأفعاله عن طريق كتابه وسنّة رسوله ﷺ، مع العلم أنه يستحيل على المخلوق مهما بلغ من الاجتهاد في معرفة الله أن يحيط به، كما قال تعالى ﴿**ولا يحيطون به علماً**﴾[1]

وفي هذا المبحث أربعة مطالب:

المطلب الأول:
العلم بألوهية الله

العلم بألوهيته تعالى التي لا يشاركه فيها أحد وهي الأساس الأول من أسس الإسلام، وإليها دعا جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام من لدن نوح إلى خاتمهم محمد رسول الله ﷺ وعليهم أجمعين.

قال ابن تيمية رحمه الله: وهذا حقيقة قول: لا إله إلا الله، وبذلك بعث جميع الرسل، قال الله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فأعبدون**﴾[2] وقال: ﴿**واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون**﴾[3]. وقال تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾[4].

---

(١) سورة طه: ١١٠ (٢) سورة الأنبياء: ٢٥ (٣) سورة الزخرف: ٤٥.

(٤) النحل: ٣٦.

«وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الأصل»[1].

والإله معناه المعبود بحق، وألوهيته سبحانه مطلقة كربوبتيه، فكما أنه تعالى الربّ الخالق الذي لا ربّ ولا خالق سواه، فهو سبحانه الإله المعبود الذي لا إله سواه، وهي تتضمن أن يكون المخلوق عبداً له لا لسواه، والعبودية هي كمال الحب وكمال الخضوع للإله سبحانه، وذلك يقتضي طاعته المطلقة والبعد عن معاصيه، فإن العبادة شاملة لكل حياة الإنسان، كما قال ابن تيمية رحمه الله: «العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، واداء الأمانة، وبرّ الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان الى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، واخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة. . .»[2].

وقال ابن القيم، رحمه الله في هذا المطلب: «فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاء، وهو مشهد جامع للأسماء والصفات وحظ العباد منه حسب حظهم من معرفة الأسماء والصفات، لذلك كان الاسم الدال على هذا المعنى هو اسم الله جلّ جلاله، فإن هذا الاسم هو الجامع، ولهذا تضاف الأسماء الحسنى كلها إليه، فيقال: الرحمن الرحيم العزيز الغفّار القهار من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن، قال الله تعالى: **﴿ولله الأسماء الحسنى﴾**[3]. فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهد كلها، وكل مشهد سواه، فإنما هو مشهد لصفة من صفاته. فمن اتسع قلبه لمشهد الإلهية، وقام بحقه من التعبّد الذي هو كمال الحب بكمال الذل والتعظيم والقيام بوظائف العبودية فقد تم له غناه بالإله الحق، وصار من أغنى العباد، ولسان حال مثل هذا يقول:

---

(١) الفتاوي (٥١/١٠). (٢) الفتاوي (١٠/١٤٩ - ١٥٠). (٣) سورة الأعراف: ١٧٩.

غنيت بـلا مـال عن النـاس كلهم وإن الغنى العالي عن الشيء لا به»[1]

قلت وإنما يكون الغنى بـالله بالتـربية الإسـلاميـة التي تحمـل الفـرد على إيصـال الخيـر إلى النـاس وكف الأذى عنهم، والاستغنـاء بـالله تعـالى عن المخلوقين.

وقال سيد قطب، رحمه الله: «يقوم التصور الإسلامي على أساس أن هناك ألوهية وعبودية، ألوهية يتفـرد بها الله سبحـانه، وعبـودية يشتـرك فيها كـل من عداه، وكما يتفرد الله سبحانه بالألوهية، كذلك يتفرد تبعاً لهذا بكل خصـائص الألوهية، وكمـا يشترك كـل حي، وكل شيء بعـد ذلك في العبـودية، كـذلك بتجرد كل حي وكل شيء من خصائص الألوهية، فهناك إذاً وجودان متميزان: وجـود الله ووجود مـا عداه من عبيـد الله، والعلاقـة بين الوجـودين هي علاقـة الخالق بالمخلوق والإله بالعبيد»[2].

وقال في موضع آخر: «إن تـوحد الألـوهية وتفـردها بخصـائص الألوهيـة، واشتراك ما عدا الله ومن عداه في العبودية، وتجردهم من خصائص الألوهية، إن هـذا معناه ومقتضـاه أن لا يتلقى الناس الشـرائع في أمـور حيـاتهم إلّا من الله، كما أنهم لا يتوجهون بالشعائر إلّا لله، توحيداً للسلطان الـذي هو أخص خصـائص الألـوهيـة، والـذي لا ينـازع الله فيـه مؤمن ولا يجتـرىء عليـه إلا كافر..»[2]

فالعبد مأمور أن يحقق العبودية لله فيـطيعه في أمـره ويجتنب معصيته، وإذا قام هذا المعنى في نفسه على الحقيقة لم يعمل في الدنيا إلّا خيراً ولا يرتكب شراً يضره أو يضر غير وبذلك يتحقق أمنه وأمن غيره معه.

المطلب الثاني:
العلم بشمول علم الله وإحاطته بكل شيء

لقد كثر في القرآن الكريم ذكر علم الله المحيط بكل شيء بأساليب شتى.

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص ٧٨ ـ ٧٩ طبع قطر.

(٢) خصائص التصور الاسلامي (ص ٢٦٣، ٢٢٩ ـ ٢٣٠) الطبعة الثانية.

وكلها ترمي إلى هدف واحد، وهي إشعار الإنسان بأن أعماله لا تخفى على الخالق، وأنها محفوظة مكتوبة، وسيحاسب عليها.

قال تعالى في شأن أهل الكتاب الذين حذّر بعضهم بعضاً من الاعتراف بما في كتبهم مما يوافق القرآن ويؤيد رسالة محمد ﷺ، لئلا يكون اعترافهم ذلك حجة للمسلمين عند الله، وكان الله لا يعلم ذلك لو كتموه، قال تعالى: **﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون. أو لا يعلمون الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون﴾**[1].

وقال تعالى: **﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾**[2].

وقال تعالى: **﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾**[3].

تأمّل هاتين الآيتين، هل تجد شيئاً يمكن إخفاؤه على الله الذي أحاط علمه بما في السموات وما في الأرض، وما يخطر للمرء في صدره، وهل يقدر الإنسان أن ينكر شيئاً مما عمل في الدنيا عندما يلاقي الله فيجد عنده كل ما عمل من خير أو سوء؟.

ولقد أعذر الله إلى عباده وحذرهم نفسه رأفة بهم، ومن لم يحذر بعد ذلك فلا يلومنّ إلّا نفسه.

وإن الإنسان مهما احتال على الناس وأظهر غير ما يبطن فصدقوه وظنوا به الخير، وهو فاسد القلب سيء العمل فإن ذلك غير خافٍ على الله. وإنه قد يفعل السوء على غفلة من الناس وينسبه إلى غيرد من ذوي البراءة، ولكنه لا يفوت على الله الذي لا يخفى عليه شيء، وإن الإنسان قد يدافع عن المذنب ويحامي عنه، ويثبت أمام الناس براءته، ولكنه لا يقدر على ذلك عند الله، كما قال تعالى:

---

(١) سورة البقرة: ٧٦، ٧٧ (٢) سورة آل عمران: ٥. (٣) سورة آل عمران ٢٩ ـ ٣٠.

﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً. واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يقوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا، ومن يعمل سوءًأو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما، ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً، ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه لِيُقضى أجل مسمّى ثم إليه مرجعكم ثم ينبّئكم بما كنتم تعملون وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرّطون، ثم ردّوا إلى الله مولاهم الحق ألاّ له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾[4].

إن الذي يضمر عداوته لأي شخص، ولا يظهر ما يدل عليها لا يقدر أحد من البشر أن يكشف تلك العداوة التي أضمرها، ولكن الله الذي خلق الصدور، عليم بذات الصدور وقد ذكر في سبب نزول الآية أن بعض المنافقين كانوا يقولون إذا أثنينا صدورنا واستخفينا في بيوتنا واستغشينا ثيابنا

(١) سورة النساء: ١٠٥ - ١١٢، وراجع في تفسير الآيات وسبب نزولها الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥/٣٧٥ - ٣٨٠).
(٢) سورة الأنعام: ٣. (٣) سورة الأنعام: ٥٩ - ٦٢ (٤) سورة هود: ٥.

على عداوة محمد فمن يعلم بنا، فأنزل الله آية هود السابقة(1).

ترى أي قانون أو أي سلطة في الأرض قادرة على هذه الرقابة الملازمة المحيطة التي لا يشذّ عنها شيء؟

وقال سبحانه: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾(2).

وقال تعالى: ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلّا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلّا في كتاب مبين﴾(3).

وقال تعالى: ﴿إن الذين يحادّون الله ورسوله كُبتوا كما كُبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين، يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد، ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾(4).

وقال تعالى: ﴿رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لِمن الملك اليوم لله الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إنّ الله سريع الحساب، وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير﴾(5).

---

(1) راجع كتاب الجامع لأحكام القرآن (في تفسير الآية المذكورة).
(2) سورة الرعد: ٨ ـ ١٠
(3) سورة يونس: ٦١
(4) سورة المجادلة: ٥ ـ ٧.
(5) سورة غافر: ١٥ ـ ٢٠

ولو أراد الباحث تتبع الآيات المماثلة الدالة على كمال علم الله وإحاطه بكل شيء، وان كل ما يعمله الإنسان أو يقوله معلوم لله مكتوب على صاحبه وسيجزيه الله عليه يوم القيامة، لو أراد الباحث تتبع ذلك لما وجد صفحة من صفحات القرآن تخلو من ذلك.

ولو أن البشر يربون على هذه الصفة وما تقتضيه لما كان في الأرض إلّا الصلاح الذين اقتضاه منهج الله، وهو الإحسان الذي سأل جبريل رسول الله ﷺ عنه ليعلم الناس، فقال: «أخبرني عن الاحسان، قال: الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

وإذا تقيّد الإنسان بمنهج الله بسبب اطلاعه على أن الله تعالى يعلم كل شيء لا يخفى عليه شيء كان مأموناً في كل تصرفاته التي يعلم أن عليه فيها رقيباً في كل لحظة من لحظات عمره.

وقال أبو الأعلى المودودي رحمه الله: «وأهم شيء وأجدره في هذا الصدد أنّ الإيمان بلا إله إلا الله يجعل الإنسان مقيداً بقانون الله ومحافظاً عليه، فإن المؤمن يكون على يقين بسبب اعتقاده بهذه الكلمة أن الله خبير بكل شيء، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وإنه إن أتى بعمل في ظلمة الليل أو حالة الوحدة فان الله يعلمه، وإنه إن خطر بباله شيء غير جميل فإن علم الله محيط به، وإنه إن كان من الممكن له أن يخفي أعماله على كل واحد في الدنيا، فإنه لا يستطيع إخفاءها على الله عزّ وجل، وإنه إن كان يستطيع أن يفلت من بطش أي كان، فإنه لا يستطيع أن يفلت من الله عزّ وجلّ، فعلى قدر ما يكون هذا الإيمان راسخاً في ذهن الإنسان يكون متبعاً لأحكام الله قائماً عند حدوده لا يجرؤ على اقتراف ما حرّم الله، ويسارع الى الخيرات والعمل بما أمر الله ولو في ظلمة الليل أو حال الوحدة والخلوة، فإن معه شرطة لا تفارقه حيناً من أحيانه، وهو يتمثل دائماً أمام عينه تلك المحكمة العليا التي لا يكاد الإنسان ينفذ من دائرة حسابها»[2].

---

(١) مسلم: (١/٣٧).

(٢) مبادىء الإسلام، ص ٩٨، طبع الاتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية.

المطلب الثالث:
العلم بقدرة الله التامة على كل شيء

إن العلم بهذه الصفة العظيمة، وهي قدرته على كل شيء يجعل الإنسان يخاف من أن يقدم على شيء من الشر، أو يترك شيئاً مما أمر به من الخير، لعلمه بأن الله لا يغيب عنه شيء، ولا يعجزه شيء وسيجازيه على عمله بما اقتضاه علمه.

وقد جمع الله تعالى بين علمه المحيط وقدرته التامة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السمٰوات وما في الأرض والله على كل شيء قدير**﴾[1].

والجاهل بصفة قدرة الله تعالى لا يبالي ما عمل من خير أو شر لأنه يظن أن لا حياة بعد الموت، لعدم وجود قادرٍ على إعادته بعد موته، ولذلك كثر في القرآن الكريم إقامة الحجج على المشركين الذين أنكروا المعاد، والنصوص في ذلك كثيرة جداً، قال تعالى: ﴿﴿**أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه، بلى قادرين على أن نسوّي بنانه**﴾[2] وقال تعالى: ﴿**فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصُلب والترائب إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر فماله من قوة ولا ناصر**﴾[3] وقال تعالى: ﴿**أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيمٌ مبينٌ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم**﴾[4].

فقد جمع هنا بين كمال قدرته وإحاطة علمه.

وقال سبحانه: ﴿**أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السمٰوت ولا في الأرض، إنه كان عليماً قديراً**﴾[5].

---

(١) سورة آل عمران: ٢٩ (٢) سورة القيامة: ٣، ٤ (٣) سورة الطارق: ٥ ـ ١٠.

(٤) سورة يس: ٧٧ ـ ٨٠. (٥) سورة فاطر: ٤٤.

فالتربية على علم قدرة الله وعلمه المحيط بكل شيء تكسب الفرد تقوى الله وخشيته، فلا يقدم على ما لا يرضاه، وتكسبه كذلك الثقة في إثابته على فعل الخير فيسعى للعمل بما يرضيه وترك ما يسخطه.

المطلب الرابع
العلم بعدل الله الكامل

إن الله سبحانه وتعالى أرسل رسله وأنزل كتبه، وهي تتضمن أخباراً وأحكاماً، فأخباره كلها صدق، لا يتطرق إليها كذب، وأحكامه كلها عدل، لا يتطرق إليها ظلم، سواء منها ما تعلق بالدنيا من إخبار عما يقع فيها من المغيبات أم ما كلفه الله الناس من التشريعات، أو ما يتعلق بالآخرة من أخبار عما أعد الله فيها جملة أو تفصيلاً، وما يجازي به تعالى خلقه من أنواع الجزاء، فإن أخباره صدق عن الدنيا والآخرة، وأحكامه عدل في الدنيا والآخرة، ولذلك قال سبحانه وتعالى عن نفسه: ﴿**وتمّت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم**﴾[1].

قال الفخر الرازي في تفسير الآية: «إن كل ما حصل في القرآن نوعان: الخبر والتكليف، أما الخبر فالمراد به كل ما أخبر الله عن وجوده أو عدمه، وأما التلكيف فيدخل فيه كل أمر ونهي توجه منه سبحانه على عبده، وإذ عرفت انحصار مباحث القرآن في هذين القسمين، فنقول: قال تعالى: ﴿**وتمت كلمة ربك صدقاً**﴾ إن كان من باب الخبر، وعدلاً إن كان من باب التكليف، وهو ضبط في غاية الحسن»[2].

وعدله سبحانه يقتضي أن يوفى كل عامل جزاء عمله، ويقضي لكل مظلوم من ظالمه، مهما قل العمل أو كثر، وجل الظلم أو دق، فإنه تعالى قد أمر بالعدل ونهى عن الظلم، وأقام الحجة في الأرض ببيان ما هو عدل وما هو ظلم، ووعد أهل العدل بثوابه وتوعد أهل الظلم بعقابه، قال تعالى: ﴿**إن الله يأمر بالعدل**﴾[3]، وقال تعالى: ﴿**قل أمر ربّي بالقسط**﴾[4]، وقال: ﴿**وإن**

---

(1) سورة الأنعام: ١١٥.
(2) التفسير الكبير (١٣/١٦١).
(3) سورة النحل: ٩٠.
(4) سورة الأعراف: ٢٩.

للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[1].

ولهذا أنذر سبحانه عباده بحسابه العادل الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، قال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به وأسرّوا الندامة لمّا رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾[4]، وقال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾[5] وقال سبحانه: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين ممّا فيه ويقولون يا ويلتنا مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾[6]، قال تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾[7].

إن تربية الفرد على هذه الصفة للإله العالم القادر هي أعظم تربية تجعله يسعى إلى طاعة الله وترك معصيته ومعاملة عباد الله بما شرّع الله دون تعدٍ لحدوده وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[8] أجمع ما وعد الله فيه عباده المؤمنين أو توعد به الكفرة المجرمين وقد قال النبي ﷺ عندما ذكر أنواع الخيل، وأنها لرجل أجر، ولرجل ستر، ولرجل وزر، فسئل عن الحُمُر؟ قال: «ما أنزل الله عليّ فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة» وذكر آخر الزلزلة[9].

المطلب الخامس:
العلم بصفات الله وأسمائه

العلم بصفاته وأسمائه تعالى التي وردت في كتابه وسنّة رسوله ﷺ، والتعبد له من أعظم ما يؤثر في سلوك العبد بها فإن أسماءه وصفاته إنما

---

(١) سورة الطور: ٤٧. (٢) سورة النساء: ٤٠. (٣) سورة يونس: ٥٤. (٤) سورة يونس:
(٥) سورة يونس: ٤٤. (٦) سورة الكهف: ٤٩. (٧) سورة الأنبياء: ٤٧.
(٨) سورة الزلزلة: آخر السورة. (٩) البخاري (٣/٢١٧) ومسلم (٢/٦٨١ - ٦٨٢).

ذكرت ليتعرف الله بها إلى عباده ليعبدوه بها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً مّا تدعوافله الأسماء الحُسنى﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾[2].

فالتربية بأسماء الله وصفاته والتعبد بها هي أعظم ما يؤثر في العبد التأثير الحسن، لأن كل اسم من أسماء الله يحمل من المعاني ما لو فقهها المؤمن وغرست في نفسه لازداد تقرباً إلى الله بطاعته وترك معصيته، ومن ذلك السعي في إيصال الخير والإحسان إلى الناس والبعد عن الإساءة إليهم، كما قال ابن القيم رحمه الله: «ولا يتصور نشر هذا المقام حق تصوره فضلاً عن أن يوفاه حقه، فأعرف خلقه به وأحبهم له ﷺ يقول: «لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[3] ولو شهدت بقلبه صفة واحدة من أوصاف كماله لاستدعت منه المحبة التامة عليها، وهل مع المحبين محبة إلاّ من آثار صفات كماله، فإنهم لم يروه في هذه الدار، وإنما وصل إليهم العلم بآثار صفاته وآثار صنعه فاستدلوا بما علموه على ما غاب عنهم»[4].

ولهذا كان المكثر من حفظ أسماء الله المتعبد بها لربه جديراً بالجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كما قال ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة»[5].

وما ذلك إلا لتأثير تلك الأسماء في محصيها المتعبّد بها لربه، لأنها ربّته بمعانيها على طاعة الله وشكره، والبعد عن معاصي ربه، ومن ذلك أن يحسن إلى خلق الله ويحب لهم من الخير ما يحب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه.

ومعنى هذا أن يحفظها ويفهم معانيها التي أثرت فيه وألفاظها وحدها لا يكفي حفظها ليتأثر بها المتأثر الذي يريده الله.

---

(١) سورة الإسراء: ١١٠ (٢) سورة الأعراف: ١٧٩. (٣) مسلم (١/٣٥٢).

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص ٥٦١ - ٥٦٢).

(٥) البخاري (٣/١٨٥) ومسلم (٤/٢٠٦٢) وفيه رواية: «من حفظها».

ولكن ينبغي أن يعلم أن العلم بأسماء الله وصفاته لا ينـاله من الحـد فيهما بتعطيل أو تشبيه أو تأويل اتباعاً للهوى وتحكيم العقل، كما هـو شأن من حـاد عن طـريقة السلف الصـالح من الإيمـان بهما من غيـر تعطيـل ولا تأويـل ولا تمثيـل على ضوء قـوله تعـالى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميـع البصير**﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿**ولا يحيطون به علماً**﴾[2].

---

(١) سورة الشورى: ١١ (٢) سورة طه: ١١٠.

المبحث الثالث:
العلم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم

إن القرآن الكريم لم ينزل إلا لهداية البشر وإقامة الحجة عليهم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾[1] وقال سبحانه: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾[2].

وقال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسولهۥ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[3].

قال شيخنا العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «وهذه الآية (يعني آية الإسراء المذكورة) الكريمة أجمل الله جلّ وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة. . . .»[4] ثمّ ساق أمثلة لهدى القرآن الكريم للتي هي أقوم.

والعلم بكتاب الله لا يأتي إلا عن طريق تلاوته وتدبره وتطبيق أحكامه، وتزكية النفس بما اشتمل عليه من إيمان وأدلة يقينية عليه، وعمل صالح ومكارم أخلاق، والذي لا يقرأ يستطيع أن يأخذ حظه من تعلم ذلك وتطبيقه.

فقد بين الله تعالى في هذا القرآن ما يجب على العبد القيام به لربه ولنفسه ولغيره من المخلوقين، وما يجب اجتنابه كذلك. فإذا علم الإنسان القرآن الكريم وائتمر بأوامره وانزجر عن نواهيه، فإنه لا بد آتٍ بما ينفع نفسه وينفع الناس ويبتعد عما يضر نفسه ويضر الناس، وذلك هو الأمن في الحقيقة.

ولقد كان لهذا القرآن أثره في نفوس الذين أخذوه علماً وعملاً من أصحاب رسول الله ﷺ، وهناك كانت السعادة وكانت العزة وكان الأمن والاستقرار

---

(١) سورة البقرة: ١، ٢. (٢) سورة الإسراء: ٩. (٣) سورة الصف: ٩.

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (٣/٤٠٩).

والإيثار والمودة والإخاء، وهذه المعاني التي ينشدها العالم الآن لفقدها أو ضعفها الذي يكاد كالفقد لا يمكن أن تعود إلى البشرية إلا إذا سلك المسلمون مسلك سلفهم الصالح في تعلم كتاب الله وسنة رسوله لتطبيقهما في حياتهم، كما طبقها أولئك السلف. قال ابن كثير رحمه الله: «وقال الأعمش.. عن أبي وائل، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن، وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون النبي ﷺ وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً»[1].

وسنّة الرسول ﷺ في التكليف كالقرآن، وقد فصلت ما أجمل فيه أو شرع الله فيها أحكاماً ليست في القرآن وهي وحي مثله، إلاّ أنها وحي غير مَتْلو والله تعالى قد أمر بطاعته وطاعة رسوله وأمر بأخذ ما جاء به من السنّة كالقرآن. قال تعالى: ﴿**قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم، وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾[4].

لذلك لا بدّ من تعلم سنّة رسول الله ﷺ وسيرته، لأنها التطبيق العملي للإسلام الذي جاء به من عند ربه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٣)، وانظر الفتاوي لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (١٣/٣٣١).

(٢) سورة النور: ٥٤. (٣) سورة النجم: ٣، ٤ (٤) سورة الحشر: ٧.

المبحث الرابع:
العلم برسول الله صلى الله عليه وسلم

والمقصود أن يتيقن المسلم أن محمداً ﷺ رسول الله ـ كما تيقن أن الرب الخالق هو الله المعبود ـ أنزل عليه وحيه ليبلّغ دعوته إلى الناس كافة، وأنه لا رسول بعده ولا كتاب بعد القرآن الذي جاء به، وأنه هو الذي يجب التلقي عنه واتّباعه والاقتداء به، ولا يجوز اتباع من خالف ما جاء به كائناً من كان، وأن سنته الصحيحة واجبة الاتباع كالقرآن في التكليف، وقد كان ﷺ كما وصفته عائشة «حلقة القرآن»[1].

وقد فصّلت سنة رسول الله ﷺ ما أجمله القرآن وزادت عليه أحكاماً لم ترد فيه، وهي كأحكام القرآن في وجوب الأخذ بها.

وهداية البشر وسعادتهم في تحقيق ما جاء في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، والذي يعلم حق هذا النبي الكريم ويعمل بما جاء به من عند ربه جدير بأن يأمنه الناس على نفوسهم وأموالهم وأعراضهم، لأنه ﷺ أمر بكل ما فيه خير للبشر جميعاً، ونهى عن كل ما فيه ضرر كذلك، رأفة بأمته ورحمة، وخوفاً عليهم من الإثم والعنت، كما قال سبحانه وتعالى عنه في كتابه: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنِتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم، ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون**﴾[3].

وقد بيّن ﷺ كمال رأفته وشفقته على هذه الأمة، وأن العصاة الذين يقعون في السيئات ـ مع شدة حرصه أن لا يقعوا فيها ـ يذودهم عنها وهم يقعون فيها، والوقوع فيها وقوع في النار التي أرسل للإنذار منها والتبشير بالجنة لمن

---

(١) مسلم (٥١٣/١). (٢) سورة التوبة: ١٢٨. (٣) سورة الحجرات: ٧.

أطاع الله، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنما مثلي ومثل الناس، كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار، يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبنه، فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وهم يقتحمون فيها»[1].

(١) البخاري (٧/١٨٦) ومسلم (٤/١٧٨٩).

المبحث الخامس:
العلم باليوم الآخر

إن علم الإنسان بأنه سيموت فقط غير كافٍ في تربيته على فعل الخير واجتناب الشر، لأنه ما من أحد إلّا يعلم أن الموت أمر حتم ولا يخلد أحد في هذه الأرض، يستوي في ذلك المؤمن المطيع الكامل الإيمان، والكافر والفاسق، بل إن الكافر الذي لا يؤمن بالبعث واليوم الآخر وما فيه من جزاء، كلما ذكر الموت ازداد ضراوة وشراهة في التمتع بالشهوات، وازداد اعتداؤه على حقوق غيره ما لم يردعه رادع مادي من العقاب، لأنه لا يرجو متعة بعد موته فيستعجل كل متعة ممكنة قبل الموت.

ولهذا تجد الإيمان بالله تعالى يقترن به الإيمان باليوم الآخر وتجد الذين لا يؤمنون باليوم الآخر هم أكثر الناس عصياناً وتمرداً على الله ورسوله، وأكثر بعداً عن الاستجابة لداعي الخير.

والتذكير بالموت إنما ينفع المؤمن باليوم الآخر، ليزداد المطيع من الطاعة، ويتوب العاصي عن المعصية وينزجر خشية مما هو مقدم عليه من الحساب والجزاء.

فالمؤمن باليوم الآخر حق الإيمان ينافس فيما يرضي ربه على عكس من لا يؤمن به.

وقد أجمل الله سبحانه وتعالى رحلة الإنسان وأطوارها خاتماً لها بالبعث بعد الموت، فقال: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين. ثم إنكم بعد ذلك لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون**﴾[1].

---

(١) سورة المؤمنون: ١٢ ـ ١٦.

وقد آمن الناس، بل صدقوا بهذه الأطوار كلها، لأن ما أحرزوه من علم مادي مما علمّهم الله إياه في هذه الحياة قد كشف لهم عن صدقها، ما عدا البعث فإنه لم يؤمن به حق الإيمان إلا من هداه الله لدينه فآمن بما أخبر الله به من الغيب الذي هو أول صفات المتقين في القرآن: **﴿آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب..﴾**[1].

وقد زودهم الله تعالى ـ مع إيمانهم المطلق بكل ما أخبر به من الغيب ومنه البعث ـ بالحجج والبراهين الساطعة على أن البعث حق لامرية فيه، فاجتمع لهم الأمران: الأمر الأول التسليم المطلق والتصديق الكامل بما أخبر الله معتبرين خبره هو الدليل الكافي، لأن أخباره كلها صدق، والأمر الثاني: العلم بالحجج العقلية المقنعة على صدق ما أخبر الله تعالى به.

أما غير المؤمنين بالله حقاً فما زال أكثرهم لا يؤمنون باليوم الآخر الذي هو نهاية أطوار حياة الإنسان كلها، بسبب أنهم لا يصدقون إلاّ بما أدخلوه تحت التجارب المادية فظهرت لهم نتائجه حسيّة، وما عدا ذلك من الغيب فلا شأن لهم به..

وقد ذكّر الله تعالى بأهوال يوم القيامة وما يصاب فيه الناس من ذهول لشدته، فقال جلّ وعلا: **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾**[2].

أمر سبحانه بتقواه وأتبع ذلك بهذا الانذار والتخويف من بأس يوم القيامة الذي هذا شأنه.

كما نبّه سبحانه الناس من الغفلة التي هم فيها والإعراض عن طاعته، باقتراب الحساب على ما يعملون من أعمال فقال تعالى: **﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون، ما يأتيهم من ذكرٍ من ربهم محدثٍ إلا استمعوه وهم يلعبون، لاهية قلوبهم وأسرّوا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشرٌ مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾**[3].

---

(١) سورة البقرة: ١ ـ ٣. (٢) سورة الحج: ١، ٢ (٣) سورة الأنبياء: ١ ـ ٣.

هذه طبيعة من لم يؤمن بالبعث والجزاء في اليوم الآخر أو يؤمن به ولكنه غافلٌ عنه، طبيعته الغفلة والإعراض وعدم التأثر بما يتلى عليهم من آيات الله واللعب واللهو، وإنك إذا تأملت في أحوال أكثر المسلمين اليوم - بله غيرهم - وجدت أنهم يتصفون بهذه الصفات بعيدين عن صفات من يؤمن باليوم الآخر ولا يغفل عنه. إنهم في غفلة عن الله وإعراض قد طغى عليهم اللعب والهزل واللهو فأخلدوا إلى الأرض وناموا عن المجد فأذّلهم الله ذلاً لا فكاك لهم منه إلاّ بالعودة إلى الله وتزكية أنفسهم بالعلم النافع والعمل الصالح.

وأنذر الله سبحانه وتعالى الناس بيوم القيامة والبعث والجزاء من وقت نفخ الصور إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، فقال تعالى: ﴿**ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وأشرقت الأرض بنور ربّها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون، ووفيت كلٍ نفسٍ ما عملت وهو أعلم بما يفعلون، وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين، قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين، وسيق الذين اتقوا ربهم إل الجنة زمراً حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين**﴾[1].

إن المسلم الذي يربى على السعي في أسباب الأمن من هذا اليوم العظيم هو الذي يتحقق به الأمن في الدنيا، وإن الذي لا يخاف هذا اليوم، ولا يسعى في أسباب الأمن من أهواله لهو الجدير بالإخلال بالأمن في الدنيا، لأن الذي لا يخاف هذا اليوم العظيم لا يتورع عن أي فعل تتوق له نفسه مهما كانت فيه من الضرر على سواه. وإن الذي يطلب من الناس أن يحققوا الأمن في الدنيا ولم يربّهم على الإيمان باليوم الآخر ولا على السعي في أسباب

---

(١) سورة الزمر: ٦٨ - ٧٤.

الأمن من أهواله، ان الذي يطلب من الناس تحقيق الأمن على هذه الصفة مهما بلغ من القوة المادية يعد كراقم على الماء، بل لا يصدق في دعواه ورغبته في أمن الناس، لعدم سعيه حقاً في تحقيق الأمن باتخاذ وسائله المحققة له، فهو يدعى أنه يريد تحقيق مصالحهم وحمايتهم من الخوف والقلق في الدنيا، ولكنه لا يقيم على دعواه ما يصدقها بحمايتهم من الخوف الحقيقي الذي سيلاقونه يوم الدين، والحماية من هذا الخوف هي حماية من خوف الدنيا لو كانوا يعقلون.

فالساعي لتحقيق الأمن في الآخرة هو الساعي للأمن الحقيقي، وهو الذي يأمنه الناس في الدنيا على دمائهم وأعراضهم وأموالهم، وهو الذي يستحق البشرى بالأمن الذي اجتهد في تحقيقه عندما ينتقل من الدنيا إلى الآخرة، كما قال تعالى:

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم، ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾[1].

وهل يتحقق الأمن الحق إلا لمن كان الله وليه في الدنيا والآخرة؟.

وقد تطابق الكتاب والسنة على أن التربية باليوم الآخر تحقق الأمن، لذلك تجد تحريم الاعتداء مقروناً بجزاء اليوم الآخر وعقابه، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء منه فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[2].

وفي حديث أبي هريرة ـ أيضاً ـ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس من لا درهم له ولا متاع، فقال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا،

---

(١) سورة فصلت: ٣٠ ـ ٣٣. (٢) البخاري: (٣/٩٩).

وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته. وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقْضَى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[1].

وفي حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين»[2].

وفي حديث عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: «هذه غدرة فلان»[3].

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «سمعت النبي ﷺ يقول: «ان الغادر ينصب الله له لواء يوم القيامة فيقال: ألا هذه غدرة فلان»[4].

وفي حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل غادر لواء يوم القيامة، يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامة»[5].

تُرى هل يقدم الذي تربى على الإيمان باليوم الآخر وعلمه حق العلم على الغدر بالناس وأخذ حقوقهم وسفك دمائهم، حتى لو خلا عن أعين الناس، وهو يعلم أن غدره سيشهر أمام الأشهاد يوم الدين، ينصب له لواء وينادي باسمه، ويقال: هذه غدرة فلان؟

إن المالك الحق ـ مالك يوم الدين ـ يقتص للسيد من مملوكيه، كما يقتص لمملوكية منه سواء بسواء، بلا ظلم ولا محاباة، كما يفعل ذلك كثيرٌ من ملوك الأرض، يحابون القوي ويظلمون الضعيف.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: جاء رجل فقعد بين يدي النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني، ويخوّفونني ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا فيهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابك إيّاهم، فإن كان عقابك إيّاهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إيّاهم دون

---

(١) مسلم (١٩٩٧/٤).
(٢) مسلم (١٢٣٠/٣).
(٣) مسلم (١٣٦٠/٣).
(٤) البخاري (٧٢/٤) ومسلم (١٣٦٠/٣) واللفظ له.
(٥) مسلم (١٣٦١/٣).

ذنوبهم، كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل» فتنحى الرجل، وجعل يهتف ويبكي، فقال له رسول الله ﷺ: «أما تقرأ قول الله تعالى: ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾[1].

فقال الرجل: يا رسول الله، ما أجدُ لي ولهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم. أشهدك أنهم كلهم أحرار»[2].

إن رسول الله ﷺ لم يأمره بعتقهم، وإنما أجابه على سؤاله بأن العدل الإلهي يقتضي أن يحاسب هو على ما جنى، وأن يحاسبوا هم على ما جنوا، ويقتص للمظلوم من ظالمه، ولمّا كان إيمان هذا السائل باليوم الآخر وبالحساب العادل فيه إيماناً متيقناً، وزاده جواب الرسول ﷺ علماً به وبالعدل الإلهي فيه، خاف على نفسه لأنه هو السيد، وخصماءه هم العبيد، والسيد أقوى من عبده في الدنيا، وقد يكون ظلمه لهم أكثر من ظلمهم له، فما وجد مخلصاً لنفسه من ذلك إلّا مفارقتهم بعتقهم، ليكسب بذلك أمرين:

الأمر الأول: وقاية نفسه من مزيد الإثم بظلمهم ما داموا بين يديه.

والأمر الثاني: كسب الأجر بعتقهم الذي قد يغفر الله له ذنوبه التي اقترفها معهم ويبقى له المزيد من الثواب.

وقد قارن أبو الأعلى المودودي، رحمه الله بين الإيمان بالآخرة وعدم الإيمان بها، وبين ما يترتب على كلا الأمرين، فقال:

«فالإسلام يثبت هذه العقيدة ـ أي عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر ـ في قلب الإنسان، فكأنه بذلك يلقي في روعه حارساً من الشرطة الخلقية يدفعه إلى العمل ويحثه على الائتمار بأوامر الله جلّ وعلا، سواء عليه أكان في الخارج من الشرطة والمحكمة والسجن ما يحمله على القيام بها أم لا، وهذا الحارس الداخلي وهذا الوازع النفسي هو الذي يشد عضد قانون الإسلام الخلقي ويجعله نافذاً بين الناس في حقيقة الأمر، وإن كان مع ذلك من تأييد

---

(١) سورة الأنبياء: ٤٧.

(٢) الترمذي (٥/ ٣٢٠، ٣٢١) وقال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلّا من حديث عبد الرحمن ابن غزوان، وقد روى ابن حنبل عن عبد الرحمن بن غزوان هذا الحديث.

الحكم والرأي العام ما يسهل تنفيذه، فذلك أجدى وأزكى، وإلا فالحقيقة أن هذا الإيمان وحده يضمن هداية الفرد المسلم والأمة المسلمة إلى سواء الطريق إذا كانت خالطت بشاشته قلوبهم وتغلغلت هذه العقيدة في نفوسهم تغلغلاً...»[1].

وقال في موضع آخر: «فإن إنكار الإنسان للحياة الآخرة أو إقراره بها له تأثير بعيد في حياته، فإن الذي فطر عليه الإنسان أن لا يصبو إلى عمل، أو يعرض عنه إلا على قدر ما يرى فيه لنفسه من فائدة أو ضرر، فأنَّى للّذي لا يعدو نظره فائدة هذه العاجلة وضررها أن ينشط لعمل صالح لا يرجو منه فائدة في هذه الدنيا، أو يجتنب عملاً سيئاً لا يخاف منه على نفسه ضرراً في هذه الدنيا؟ أمّا الذي ينفذ بصره إلى نتائج الأعمال ولا يقف عند ظواهرها فلا يرى نفع هذه العاجلة أو ضررها إلّا شيئاً عارضاً، فيؤثر الحق على الباطل، والخير على الشر، نظراً إلى فائدة الآخرة أو مضرّتها الأبدية، ولو كان الخير يرجع إلى نفسه بأفدح ضرر، والسيئة بأعظم منفعة في هذه الدنيا، فانظر إلى ما بين هذين الرجلين من الفرق العظيم والبون الشاسع، فالخير في نظر الأول ما يحصل نفعه في هذه الحياة الفانية... والشرّ عنده ما ينتج أو يخشى أن ينتج شيئاً مكروهاً في هذه الدنيا... بينما الخير في نظر الرجل الثاني ما يرضي الله، والشر ما يسخطه، وهو يرى أن الخير خيرٌ في كل حال، وإن لم ينفعه في هذه الحياة الدنيا، وابتلاه بكل ضرر فيها، ويستيقن أن الله سيعطيه نفعاً أبدياً عنده في الآخرة، وأن الشرَّ شرٌّ في كل حال، وإن لم يذقه أو لم يخف أن يذوق وباله في هذه الحياة الدنيا ووجد فيه المنفعة كل المنفعة، ويعلم علم اليقين أنه إن فاته العقاب على أعماله السيئة في هذه الدنيا، فلا مفر له منه في الآخرة...»[2].

فأي الرجلين أحق بالأمن وتحقيقه في الدنيا والآخرة الأول أم الثاني؟

ألا ما أطول الطريق على طالب الأمن من غير هذا السبيل بل ما أصعب الوصول إليه من سواها، وما أفدح الأخطار النازلة به! وما أقصر الطريق لطالبي الأمن من هذا السبيل وأعظم مكاسبهم، فياليت قومي يعلمون!

---

(١) نظام الحياة ص ١٦.
(٢) مبادىء الإسلام ص ١١٥ ـ ١١٧.

المبحث السادس:
العلم بالملائكة ووظائفهم

إن الذي يعلم أن الله تعالى مخلوقات ملأت السموات وأحاطت بالعرش وانتشرت في الكون كله تنفذ أمر الله ولا تعصى له أمراً، وإن من وظائفها العناية بهذا الإنسان والاهتمام به منذ أن أراد الله خلقه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بل إنهم ليتلقونه في الآخرة، وهم الذين يفتحون لأهل الجنة أبوابها، ولأهل النار أبوابها، وخزنة الجنة ملائكة وخزنة النار ملائكة. إن الذي يعلم ذلك إجمالاً ليكاد ترتعد فرائصه من شدة الخوف من هؤلاء الذين يلازمونه في كل أحواله ويكتبون كل أعماله وحركاته فيلقاه كله محضراً عند لقاء ربه، فكيف إذا عرف ذلك بالتفصيل الذي أذن الله به؟

ويكفي أن نذكر شيئاً من وظائفهم المتعلقة بهذا الإنسان مع النصوص الدالّة عليها باختصار لنرى الأثر الذي يحدثه العلم بالملائكة والإيمان بهم في نفس المؤمن.

١ ـ دوام عبادتهم وعدم عصيانهم مطلقاً، كما قال تعالى: **﴿فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبّحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾**[١].

وقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾**[٢].

جُمع في هذه الآية بين ثلاثة أمور في الملائكة: الأمر الأول أن منهم من وظيفته القيام على شؤن النار، الأمر الثاني أن هؤلاء القائمين على جهنم متصفون بما يناسبها، وهو الغلظة والشدة، الأمر الثالث: كمال طاعتهم لربهم وعدم عصيانه، ولهذا حذّر الله المؤمنين وأمرهم بوقاية أنفسهم من هذه النار التي عليها هؤلاء الملائكة الذين هذه صفاتهم، فإنهم لا يمكن أن توجد في

(١) سورة فصلت: ٣٨. (٢) سورة التحريم: ٦.

قلوبهم رحمة لمن أمرهم الله بحبسه في نار جهنم.

وإن هذه الصفة التي هي عدم المعصية، والطاعة الكاملة لله سبحانه وتعالى من أعظم ما يبعث في نفس المؤمن محاولة الإرتقاء بنفسه في طاعة الله إلى أعلى مستوى يقدر عليه، وإن لم يكن تكوينه مثل تكوين الملائكة في العصمة، إلا أن الاقتداء في الاجتهاد في الطاعة حسب طاقته يرفعه إلى أعلى ما يطيقه البشر، وفي ذلك كفاية بالنسبة للإنسان.

٢ ـ إن الملائكة لشدة حرصهم على طاعة الله وكونهم جبلوا على ذلك، يحبون أن يكون الكون كله معموراً بطاعة الله بحيث لا يشذّ عنها أحد من الخلق، ويكرهون أن يوجد في الكون السفلي ما يخالف الكون العلوي، بوجود عصاة وفسادٍ، لذلك أبدوا شفقتهم وخوفهم من أن تكون هذه الأرض محل فسادٍ من بين سائر الكواكب والسماوات من اعتداءٍ وسفك دماءٍ وظلم، وغير ذلك، كما قال سبحانه وتعالى عنهم: **﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾**[1].

إنهم لشدة حرصهم على طهارة الكون من الشرك والظلم والاعتداء، ومحبتهم للتوحيد والطاعة والعدل والأمن والاستقرار، يودون أن يكون العالم السفلي (الأرض) مثل العالم العلوي، بأن تكون مقراً لهم يعمرونها بعبادة الله وطاعته، ولكن لحكمةٍ يعلمها الله، وقدرٍ أراده، وعلم محيط بالمصالح والمفاسد، أراد تعالى أن يكون سكان هذه الأرض من جنس آخر: جنس خلق من قبضة من طين ونفخة من روح، جنس يكون تكليفه فيه اختياراً، ولا تكون العبادة والطاعة سجية له كالملائكة، بحيث لا يقدر على الخروج من فلك الطاعة في كل أحيانه، بل يكون من طبيعته أن لديه قدرة على الطاعة والمعصية ونوع اختيار ويكفي أن يبعث الله إليه الرسل وينزل عليه الكتب لهدايته، والملائكة ترافق هذا الإنسان من وقت علوقه برحم أمه إلى أن يدخل الجنة أو النار.

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.

٣ ـ ولعل في جعل الله تعالى سفيره إلى رسله الهداة من البشر جبريل عليه السلام أمينه على وحيه تكريماً منه تعالى لملائكته الحريصين على وجود الصلاح في هذه الأرض، كما قال تعالى: **﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين﴾**(١).

وهم بذلك يقيمون الحجة على البشر بأنهم قد أتوهم بالهدى من عند الله الذي فيه صلاحهم وبيان ما يجب عليهم أن يجتنبوه من الفساد.

٤ ـ ولهذا جعلهم الله تعالى حراساً على البشر، يراقبون نشاطهم وأفعالهم ويكتبونها عليهم في سجلات تنشر عليهم يوم القيامة، كما قال سبحانه وتعالى: **﴿وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾**(٢).

وقال تعالى: **﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيدٌ ما يلفظ من قولٍ إلاّ لديه رقيب عتيد﴾**(٣).

إن الإنسان المؤمن الذي يعلم أن حراساً أمناء كتبه، يعلمون ما يفعل، ويكتبون عليه نشاطه كله في سجلاتهم في كل لحظة من لحظات حياته، لا فرق بين خلوته وجلوته، لا بد أن يسعى جاهداً في عمل كل صلاح يقدر عليه وفي البعد عن كل فسادٍ أو شرٍ.

٥ ـ ومن وظائفهم توفي الأرواح ونزعها، وهم ينقسمون إلى قسمين: ملائكة رحمة تنزع نفس المؤمن نزعاً خفيفاً، وملائكة عذاب تنزع روح الكافر نزعاً شديداً عنيفاً، كما قال تعالى:

﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾(٤).

وقال تعالى: **﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾**(٥).

وقال تعالى: **﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو**

---

(١) سورة التكوير: ١٩ ـ ٢١. (٢) سورة الانفطار: ١٠ ـ ١٢. (٣) سورة ق: ١٦ ـ ١٨.

(٤) سورة السجدة: ١١ (٥) سورة الأنعام: ٦١.

أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون﴾[1].

وقال تعالى: **﴿ولو ترى إذ يتوفّى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق﴾**[2].

إن المؤمن الذي يعلم أن من وظائف الملائكة نزع روحه وأنه إذا حاد عن الجادة تولت نزع روحه ملائكة العذاب ليجتهد كل الاجتهاد في السعي إلى ما يرضي ربه سبحانه وتعالى لتكون رفقته عند زهوق روحه في آخر حياته ملائكة الرحمة لا ملائكة العذاب.

٦ ـ وهم الذين يمتحنون الميت في قبره، كما في حديث البراء بن عازب، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾** قال: نزلت في عذاب القبر، فيقال له: من ربك؟ فيقول ربي الله ونبي محمد ﷺ، فذاك قوله عزّ وجلّ: **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾**[3].

وقد جاء في حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، بيان من يسأل الميت، وصفته، وتفصيل سؤاله، وأقسام المسئولين وأجوبة كل قسم، وما يترتب على تلك الأجوبة في البرزخ. فقد روى رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قبر الميت، أو قال أحدكم، أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما المنكر، والآخر النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: ما كان يقول: هو عبدالله ورسوله، أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، ثم ينور له فيه، ثم يقال له: نم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم؟ فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلّا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وإن كان منافقاً، قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثله، لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه، فتختلف فيها أضلاعه، فلا يزال

---

(١) سورة الأنعام: ٩٣. (٢) سورة الأنفال: ٥٠.

(٣) مسلم (٢٢٠١/٤) والآية في سورة إبراهيم: ٢٧.

فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[1].

وعلم الإنسان بهذا الامتحان من ملائكته المقربين الذين لا يعصونه يجعله يعدّ له عدته ويعيش مشفقاً على نفسه طول حياته، فلا يعتدي على حقوق الله ولا على حقوق عباده، وهذا هو الذي يؤتمر على دماء الناس وأعراضهم وأموالهم.

٧ ـ ومن وظائف الملائكة أن طائفة منهم يكونون خزنة للجنة وأخرى خزنة لجهنم، وهم الذين يفتحون أبواب الجنة للمؤمنين وأبواب جهنم للكافرين، يستقبلون المؤمنين بالتبشر ويستقبلون الكافرين بالتبهيت والتوبيخ والإهانة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلّا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون، ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون، وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين، وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين**﴾[2].

إن رحلة الإنسان من وقت خلقه في بطن أمه إلى أن يدخل الجنة أو النار، وملائكة الله معه لا تفارقه لممّا يقوي العزم على طاعة الله والبعد عن معصيته وإضرار عباده، وإن عدم تربية الإنسان على هذا الباب من أعظم المصائب والكوارث التي تجني ثمارها البشرية من الظلم والاعتداء والإخلال بالأمن.

وللملائكة وظائف أخرى لم نتعرض لها هنا، واكتفينا بما ذكر لقوة صلته بهذا الإنسان.

---

(١) الترمذي (٣/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥) بتحقيق محمد فؤاد عبدالباقي وقال: لم يخرّجه من أهل السنّة سوى الترمذي. وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٢) سورة الزمر: ٦٨ ـ ٧٣.

المبحث السابع:
العلم بوجوب محبة الله ورسوله

إن الذي تنعدم محبة الله ورسوله من قلبه لا يكون مؤمناً بالله ورسولـه، لأن محبة الله هي لب عبادة الله وركنهـا، ومحبة رسـول الله ﷺ تابعـة لمحبة الله، فهي أيضاً من لب العبادة لله.

ويجب أن يكـون الله ورسـولـه أحب إلى المؤمن من نفسـه ومـالـه وولـده والناس أجمعين، والذي لا يكون لله ورسوله أحب إليه من قرابته وزوجه وماله وتجارته، فليس من أهل الهدى ودين الحق، وإنما هو من الفاسقين، كما قال تعالى: **﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال قـترفتموهـا وتجارة تخشـون كسـادهـا ومسـاكن تـرضـونها أحب إليكم من الله ورسـوله وجهـاد في سبيله فتربصـوا حتى يـأتي الله بـأمـره والله لا يهـدي القـوم الفاسقين﴾**[1].

والإنسـان إذا كان الله ورسـولـه أحب إليـه من هـذه الأمـور المشتملة على أنواع المحاب الدنيوية فإنـه لا يُقدّم مـا يحبه طبعـاً أو يهواه على مـا يحبه الله ورسـوله شـرعاً، وهـذا هو منبـع الأمن، لأنه لا يمكن أن يعتـدي على حقوق الآخرين لا لنفسه ولا لمن يحبه طبعاً لعلمـه أن ذلك ممـا يسخط الله ويجعله في عداد الفاسقين، ولأنه يقدّم محبة ما يحب الله ورسوله على ما تحبه نفسـه أو يحبه أقاربه الذين يحبهم.

وهذه جملة من الأحاديث الواردة في محبة الله ورسوله ومحبـة ما يحبـه الله ورسوله:

عن أنس بن مـالك رضي الله عنـه، قال: قـال رسول الله ﷺ: «ثـلاث من كنَّ فيه وجد بهن طعم الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سـواهما،

---

(١) سورة التوبة: ٢٤.

ومن أحب عبداً لا يحبه إلّا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر ـ بعد أن أنقذه الله منه ـ كما يكره أن يلقى في النار»[1].

وفي حديث أنس ـ أيضاً ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»[2].

وفي حديثه أيضاً، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[3].

تأمل صيغتي نفي الإيمان في حديثي أنس الأخيرين، إنهما بعبارة واحدة: «لا يؤمن أحدكم»، إلّا أنه في الأول قال: «حتى أكون أحب إليه من والده...» وفي الثاني قال: «حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ومعنى هذا أنه إذا لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه لم يكن الرسول ﷺ أحب إليه من والده وولده.. ومن أضرّ الناس واعتدى على حقوقهم ولم يأمنوه على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، فإنه لا يكون محباً لله ولرسوله ﷺ المحبة الشرعية التي أرادها الله تعالى منه.

وقد بيّن الله سبحانه وتعالى أن الذي يحب الله على الحقيقة ـ ويحب رسوله لله كذلك ـ لا بدّ أن يتبع الرسول ﷺ فيما جاء به من عند ربه، وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم**﴾[4].

والذي يحقق محبة الله ورسوله باتباعه للرسول ﷺ هو الذي يأمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، لأن ذلك كله ممّا يحبه الله ورسوله ويجب عليه اتباعه حتى تتحقق له محبة الله ورسوله باتباعه للرسول ﷺ.

وقد كان الرسول ﷺ يربي أصحابه على محبته أكثر من محبتهم لأنفسهم، ليقدموا محاب الله ومحاب رسوله على محاب أنفسهم، كما في حديث عبد الله بن هشام، رضي الله عنه، قال: كنا مع النبي ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يارسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء،

---

(١) البخاري (١/٩ ـ ١٠) ومسلم (١/٦٦).
(٢) البخاري (١/٩).
(٣) البخاري (١/٩) ومسلم (١/٦٧).
(٤) سورة آل عمران: ٣١

إلّا نفسي، فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال عمر: فإنه الآن، والله لأنت أحب إليّ من نفسي، فقال له النبي ﷺ: «الآن يا عمر»[1].

فعلى الذين ينشدون في مجتمعاتهم أمن الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وسائر حقوقهم، حاكمين ومحكومين أن يربّوا أفرادهم على محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ، ومحبة كل ما يحبه الله ورسوله، حتى يقدموا محاب الله ورسوله على محاب كل أحد سوى الله ورسوله، حتى ولو كانت أنفسهم.

أما تربية الناس على حب غير الله ورسوله فإن في ذلك الدمار والهلاك وعدم الأمن والاستقرار، لأن الذي يربي الناس على حب نفسه لا يلبث الناس أن ينقلبوا أعداء له، لأن حب غير الله لا يدوم في نفوس الناس، بسبب أنهم جبلوا ان لا يحبوا أحداً غير الله إلّا لمصالح مادية تعود عليهم، فإذا وجدوا مصالح مادية عند غير محبوبهم الأول أكثر مالوا إلى هذا ووقفوا معه ضد ذاك، وهذا ما يشاهد في هذه الحياة.

أمّا إذا حبّ الناس أحداً لله واستقام على طاعة ربه فإن حبهم له لا يتغير غالباً لأنه تابع لمحبة الله ومحبة الله ثابتة في قلب المؤمن، وكذلك محبة من يحبه الله.

---

(١) البخاري (٧/٢١٨).

المبحث الثامن:
العلم بأن الله واهب الحياة والرزق

إن أعظم ما يحرص عليه الإنسان في الدنيا أمران:

الأمر الأول: الحياة وطول الأجل.

والأمر الثاني: الرزق، وهو شامل لكل ما ينتفع به ويتمتع، من مال وأهل وسكن وجاه ومنصب ومكانة وغيرها.

وإنّ أعظم ما يخاف منه هو انقطاع الأجل وانقطاع الرزق أو ما يؤثر على الحياة والرزق.

والذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر إيماناً حقاً كما أراد الله تجده أشد الناس حرصاً على الحياة والرزق، وأكثر الناس شراهة لتناول الشهوات أياً كان مصدرها، حرصاً على تمتعه بأكبر قسط متاحٍ قبل مفارقة الحياة، وإذا فاز في الحصول على الرزق الذي ينشد، وسلم مؤقتاً من انقطاع الأجل اشتد هلعه لطلب المزيد واشتد خوفه من أن يصاب بما ينغّص حياته أو ينقص رزقه.

أما الذي يؤمن بالله وباليوم الآخر، فإنه بفطرته البشرية يحب الحياة ويحب الرزق، ويسعى لحصول الرزق، ودفع ما يضرّه أو يقطع أجله، وهو مأمور بذلك شرعاً، كما قال الرسول ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ الله وما شاء الله. فإن لو تفتح عمل الشيطان»[1]. إلا أنه يعلم يقيناً أن الذي يهب له الحياة ويمدّ له في العمر هو الله وأن الذي ينزع منه هذه الحياة هو الله، وأن سعيه للرزق محكوم بمشيئة الله تعالى، يبسط له ما يشاء ويقدر له ما يشاء. قد يجعله من أكبر الأغنياء، وقد يجعله كفافاً، وقد يجعله فقيراً على الرغم من كدحه وسعيه، لهذا تجد المؤمن يسعى في دفع الأذى عن حياته

---

(١) مسلم (٤/٢٠٥٢).

ولجلب رزقه وهو مطمئن بأن أجله مقدرٌ لا يقدمه أحد غير الله ولا يؤخره، وأن رزقه لا يأتيه منه إلّا ما كتب الله له.

فالله سبحانه وتعالى هو واهب الحياة والموت وخالق الإنسان من تراب ثم من نطفة مهينة، وهو الذي يميته إذا شاء في أجله المحدود، كما قال تعالى: **﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾**[1].

وقال تعالى: **﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق﴾**[2].

وقال تعالى: **﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون﴾**[3]، وقال تعالى: **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين﴾**[4].

وقال تعالى: **﴿قتل الإنسان ما أكفره، من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدّره﴾**[5].

فالله هو الذي خلق الإنسان ووهبه الحياة ابتداءً ولا يقدر أحدٌ سواه تعالى أن يخلق أو يهب الحياة.

وكذلك هو الذي يميت من وهب له الحياة في أجل مقدر لا يزيد ولا ينقص، وقد ردّ الله زعم من ظنّ أن أحداً أو شيئاً ما يقدم الأجل أو يؤخره، قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزًّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرةً في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير﴾**[6].

ونفى سبحانه وتعالى أن تموت نفس بدون إذنه فقال: **﴿وما كان لنفس أن تموت إلّا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾**[7].

---

(١) سورة الملك: ٢. (٢) سورة العلق: ١، ٢. (٣) سورة الحجر: ٢٦.
(٤) سورة المؤمنون: ١٢ ـ ١٤. (٥) سورة عبس: ١٧ ـ ١٩. (٦) سورة آل عمران: ١٥٦.
(٧) سورة آل عمران: ١٤٥.

وأخبر تعالى أن التحصينات المادّية، من حصون وقلاع وجيوش وأسلحة لا ترد الموت عمن تم أجله، كما قال تعالى: **﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة﴾**[1].

وأخبر تعالى، أنه هو الذي يحيي ويميت كما أنه هو مالك السموات والأرض، فقال: **﴿ألا إن لله ما في السموات والأرض ألا إنّ وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون، هو يحيي ويميت وإليه ترجعون﴾**[2].

وقال تعالى: **﴿إن الله له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾**[3].

والرزق كالأجل مكتوب لصاحبه لا يقدر أحد على إعطائه أو منعه إلّا بإذن الله، وقد دلّ على هذا المعنى نصوص كثيرة من الكتاب والسنة، وشهد به ـ كما شهد بالذي قبله ـ الواقع الذي لا يجحده إلّا مكابر.

فالخالق هو الرازق، كما قال تعالى: **﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾**[4]. تأمل كيف جمع الله في هذه الآية: الخلق والرزق والأجل، فالذي يخلق هو الذي يرزق وهو الذي يحيي ويميت وقال تعالى: **﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾**[5].

من يوجد الماء الذي تشربه الأرض فتنبت أو من خلق الخصائص التي اشتملت عليها تربة الأرض فكانت صالحة لإنبات الزروع المختلفة؟ ومن خلق الهواء والشمس اللذين لا نبات بدونهما؟ إلى غير ذلك.

ومن خلق الحيوانات وجعل منها الأليف المأكول أو المركوب؟ ومن أوجد الآلات الصالحة للصناعات والمساكن والسلاح؟ ومن خلق العقول المدبرة لذلك كله؟ إنه الله.

---

(١) سورة النساء: ٧٨. (٢) سورة يونس: ٥٥، ٥٦. (٣) سورة التوبة: ١١٦
(٤) سورة الروم: ٤٠. (٥) سورة يونس: ٣١.

من الـذي يوسـع الرزق لهـذا ويضيّقه على ذاك؟ بـل يوسّعـه لشخص في وقت، ويضيّقه عليه في وقت آخر. قال تعالى: **﴿الله يبسط الرزق لمن يشـاء ويقـدر﴾**[1]، **﴿أوَلم يروا أن الله يبسط الـرزق لمن يشـاء ويقـدر إنّ في ذلـك لآيات لقوم يؤمنون﴾**[2].

وقال سبحانه وتعالى، مسـوياً بين الانسـان وغيره من الحيـوانات العجمـاء التي لا تملك ما يملكه الإنسان من العقل والتدبير وحمـل الرزق وخـزنه، في أن رزق الجميع من الله الخالق: **﴿وكأيّن من دابة لا تحمل رزقها الله يـرزقها وإياكم وهو السميع العليم﴾**[3].

وأمر سبحانـه عباده بـطلب الرزق عنـده وشكره على رزقـه إياهم، فقـال: **﴿فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾**[4].

وقـال تعالى: **﴿ومـا خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون مـا أريـد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إنّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾**[5].

ومن أعظم ما يحرص عليه ذوو المطامع والأهـواء من الأرزاق الملك الذي يكـون وسيلة للوصول إلى المـال وغيره من متـع الحياة وبسط النفـوذ والجاه، وفـرض احتـرام النـاس وتقـديـرهم، حيث يكـون صـاحب الملك هـو الآمـر الناهي، يقدر على فعل ما لايقدر عليه غيره، يصبح بـالملك عزيـزاً وقد كـان قبله ذليلاً، ويصبح أعزّه الناس أذلّه له، هذا الملك الذي يتمتع بهذه الصفة، ويحرص عليه النـاس حرصـاً شديـداً هو بيـد الله تعالى، كغيـره من الأرزاق، يؤتيـه من يشاء وينـزعه ممن يشـاء، يمسي الإنسان ذليـلاً مهينـاً خـادمـاً لـذي السلطان، فيصبح ملكاً عزيزاً مخدوماً، ويمسي ملكـاً عزيـزاً مخدومـاً فيصبح ذليلاً مهاناً خادماً، كما قال تعالى: **﴿قـل اللهم مالـك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّ من تشاء وتذل من تشـاء بيدك الخيـر إنك على كل شيء قدير، تولـج الليل في النهـار وتولـج النهار في الليـل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾**[6].

---

(١) سورة الرعد: ٢٦. (٢) سورة الروم: ٣٧. (٣) سورة العنكبوت: ٦٠
(٤) سورة العنكبوت: ١٧. (٥) سورة الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨. (٦) سورة آل عمران: ٢٦، ٢٧.

هـذا، وقد دلّت نصـوص السنّة ـ كمـا دلت نصوص الكتـاب ـ أن الأجـل والرزق مقدران من الخالق الرازق، لا قـدرة لأحد على التحكم فيهمـا بتقديم ولا تأخير ولا زيادة ولا نقص، فالْمَلَك يكتب رزق كـل إنسان وأجله وسعـادته وشقاءه وهو في بطن أمه، كما في حديث عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: «حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق. قال: إن أحدكم يجمع خلق في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقـة مثل ذلـك، ثم يكون مضغة في ذلك مثل ذلك، ثم يـرسل الملك فينفـخ فيه الـروح، ويؤمر بـأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد. . .»[1].

وقد ضرب الرسول ﷺ مثلاً لطول أمل الإنسان في طـول أجله وسعة رزقـه وزيادته، وللأجل المقـدّر الذي يقـطع ذلك الأمـل الطويـل، كما في حـديث عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: «خطّ النبي ﷺ خـطاً مربعـاً، وخطّ خطاً في الوسط خارجاً منـه، وخطّ خططاً صغـاراً إلى هذا الـذي في الوسط، من جانبه الذي في الوسط، وقـال: «هذا الانسـان، وهذا أجله محيط بـه، أو قد أحاط به، وهذا الـذي هو خـارج أمله، وهذه الخـطط الصغار الأعـراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا»[2].

ونبّه الرسول ﷺ زوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان التي سـألت الله أن يمتّعها به وبأبيها وأخيها، نبّههـا أن للأجـل أيامـه المعدودة التي لا تـزيد ولا تنقص، وأن الـرزق مقسوم لا يـزيد ولا ينقص، كمـا في حديث عبـدالله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: قـالت أم حبيبة، زوج النبي ﷺ: اللهم امتعني بـزوجي رسول الله ﷺ، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، قال: فقال النبي ﷺ: «قد سـألت الله لآجالٍ مضـروبة وأيـام معدودة وأرزاق مقسـومة، لن يعجّـل قبـل أجله، أو يؤخـر شيئـاً عن أجله، ولـو كنت سـألت الله ان يعيـذك من النـار أو عذاب في القبر كان خيراً وأفضل»[3].

وفي هـذا الحديث تنبيـه على ان يهتم المسلم بالعمـل الصـالـح ويلحّ في

---

(١) البخاري (٤/ ٧٨ ـ ٧٩) ومسلم (٤/ ٢٠٣٦) واللفظ له.

(٢) البخاري (٧/ ١٧١)، وهو في المسند (١/ ٣٨٥) وابن ماجه (٢/ ١٤١٤).

(٣) أحمد (١/ ٣٩٠) ومسلم (٤/ ٢٠٥٠ ـ ٢٠٥١).

الدعاء أن يوفقه الله، وأن يعيذه من النار وعذاب القبر، وأمّا الأجل والرزق فإنهما قد كتاب ولا بدّ منهما كما كتبا، وإن كان يشرّع الدعاء بطلب العافية وتيسّر الأمور وقضاء الحاجات.

ولمّا كان خوف انقطاع الأجل والرزق، قد يمنع الإنسان من قول كلمة الحق خوفاً على نفسه من ولاة الجور الظلمة الذين بأيديهم القوة والمال والأمر والنهي، نهى رسول الله ﷺ المؤمن أن يمنعه ذلك الخوف من قول الحق، معللاً أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقربان من أجلٍ ولا يبعدان من رزق، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا لا يمنعنّ أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده فإنه لا يقرب من أجلٍ ويباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكر بعظيم»[1].

وعندما دنا أجل ابن بنت رسول الله ﷺ، فبعثت إليه ليحضره ـ ولا شك أنها كانت متأثرة لوفاة ابنها ـ أرسل إليها رسولاً يقول لها: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكلٌّ عنده بأجل مسمى»[2].

وقد يظن بعض الناس أن التعرض للقتال والمبارزة ينقص الأجل، وذلك ظنّ المنافقين الكاذب، فإن الأجل محدود، والذي يقتل إنما يقتل لانقضاء أجله، كالذي يموت بأي سبب ظاهرٍ أو في أي مكان آخر، الأجل هو الأجل، قال ابن حزم، رحمه الله: «ولا يموت أحدٌ قبل أجله، مقتولاً أو غير مقتول، قال الله عزّ وجلّ: **﴿وما كان لنفسٍ أن تموت إلّا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾**[3] وقال تعالى: **﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾**[4]. وقال تعالى: **﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾**[5]. وحتى يستوفي رزقه ويعمل بما يسّر له...»[6].

هذا، وإذا تأمل الإنسان أحوال الناس، وقلّب صحائف التاريخ وجد أن

---

(1) أحمد (٣/٥٠) (2) البخاري (٢/٨٠) ومسلم (٢/٦٣٥ ـ ٦٣٦).
(3) سورة آل عمران: ١٤٥ (4) سورة الأعراف: ٣٤. (5) سورة آل عمران: ١٥٤.
(6) المحلى (١/٣٧) وراجع منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب (٢/٧١).

الواقع المشاهد في كل زمان، بل في كل يوم مطابقاً لهذه النصوص التي سيقت من القرآن والسنّة للدلالة على أن الأجل والرزق بيد الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يستطيع أحدٌ في الأرض ولا في السماء أن يقدم فيها أحداً أو يؤخره أو يزيده أو ينقصه إلّا بإذن الله.

فكم من الناس من يسعى سعياً حثيثاً ليكون غنياً ويطرق كل باب يتاح له طرقه، ولكنه يعيش طول حياته في تعب وكدٍ ونصب، وفقر مدقع لا يجد إلّا الضروري من الرزق! وكم من الناس من يسعى سعيه أو أقل منه فيصبح غنياً ممتلئة خزائنه من رزق الله تعالى! وكم من غني أمسى يرفل في نعيم غناه، فأصبح فقيراً يستحق نصيبه من صدقات الأغنياء! وكم من شركة تجارية صغيرة أصبحت أمّ الشركات، وكم من شركات كبيرة افتقرت! وكم من عزيز تخضع له الرقاب وتحنو له الجبابرة لاعتلائه عرش الملك أصبح يتمنى أن يكون له حق العيش في بلده كبقية الأفراد فلم يجد إلّا النفي إن سلم من الإهانة والإذلال! وكم من صعلوك كان يكدح في الحياة سعياً وراء لقمة العيش يحمل على ظهره في الأسواق الأثقال بالأجر الزهيد أصبح آمراً وناهياً لقوم كانوا قادة شعوب: **﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾**[1].

والفائدة من علم هذا المعنى، وهو أن الله واهب الحياة والرزق أن العالم بذلك المؤمن به يتقيد في سعيه لوقاية نفسه من الأخطار أو الحصول على الأرزاق بأوامر الله الشرعية، فلا يعتدي على حقوق الله ولا على حقوق خلقه، لعلمه بأن أجله ورزقه مربوطان بأمر الله الكوني القدري، فلا يمكن أن يحصل في سعيه إلا على ما قد قدّره الله له أو عليه، ولذلك لا يضرّ الناس ولا يؤذيهم طمعاً في رزق أو زيادة حياة، مهما كان هذا الرزق، ولو كان ملك الدنيا بحذافيرها، ومهما كانت هذه الحياة، ولو كانت دائمة السرور من أول عمره إلى آخره لا تكدّرها المكدّرات وبذلك يأمنه الناس على أنفسهم

---

(١) سورة آل عمران: ٢٦، ٢٧.

وأموالهم وأعراضهم وسائر حقوقهم، سواء كان ملكاً آمراً وناهياً أم خادماً مأموراً منهياً.

ولا بدّ هنا من التنبيه على أمرٍ مهم جداً، وهو أن الجاهل عندما يعلم هذه المعاني التي شرحت في هذا المبحث والنصوص الدّالة عليها، والواقع المشاهد الذي يدعمها قد يظن أن العمل لحفظ الحياة وصيانتها والحصول على الرزق يعتبر عبثاً، ما دام أن الأجل بيد الله، لا يقدّمه أحد لحظة ولا يؤخره أخرى وما دام ان الرزق من عنده، لا يمنعه أحد ولا يعطيه ـ أي أن الله وحده واهب الحياة والرزق ـ.

وقد تبادر إلى ذهن بعض أصحاب رسول الله ﷺ هذا المعنى، فأجابه الرسول ﷺ بأن الإيمان بالقدر شيء ووجوب العمل والسعي شيء آخر، فالقدر بالنسبة للإنسان مجهول لا يدري ماذا قدر عليه، والعمل مشروع كلّفه الله إياه فلا يجوز ترك العمل اتكالاً على القدر الذي سبق في علم الله كما في حديث علي رضي الله عنه، قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا النبي ﷺ، فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة، فنكس، فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: «ما منكم من أحد، ما من نفسٍ منفوسة إلّا كتب مكانها في الجنة والنار، وإلّا قد كتب شقية أو سعيدة» فقال رجل: يارسول الله أفلا نتكل وندع العمل؟ فمن كان منّا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، وأما من كان منّا من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة. قال: «أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأمّا أهل الشقاوة فييسرون لعمل الشقاوة» ثم قرأ: ﴿**فأما من أعطى واتقى**. . .﴾ الآية[1].

فالقدر المجهول لا يمنع السعي المشروع ولا يجوز لتارك العمل المشروع الاحتجاج بمضي القدر، ولهذا كان الذي يقتل دون نفسه شهيداً مع أن أجله قد قضى أن يقتله ذلك القاتل المعتدي الذي حاول المقتول أن يدفعه عن القتل، وأمر الله تعالى الإنسان بكسب رزقه والسعي له، كما قال تعالى: ﴿**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**﴾[2].

---

(١) البخاري (٢/٩٩) ومسلم (٤/٢٠٣٩)

(٢) سورة الملك: ١٥.

فعلى الإنسان أن يبذل طاقته في تحصيل مصالحه، ودرء المفاسد عنه ولكن لا يركن إلى سعيه ذلك ويعتقد أنه ينشىء النتيجة ولا بدّ، بل يعتقد أنه يعمل السبب المشروع وان الله هو خالق السبب والمسبّب معاً ولا قدرة لأحدٍ على دفع ما أراد الله تعالى وقوعه.

قال ابن حجر رحمه الله في شرح حديث عمران بن حصين الذي قال فيه النبي ﷺ: «كل يعمل لما خلق له، أو لما ييسر له»[1]: «وفي الحديث إشارة إلى أن المآل محجوب عن المكلف، فعليه أن يجتهد في عمل ما أمر به، فإن عمله أمارة إلى ما يؤل إليه أمره غالباً، وإن كان بعضهم قد يختم له بغير ذلك...»[2].

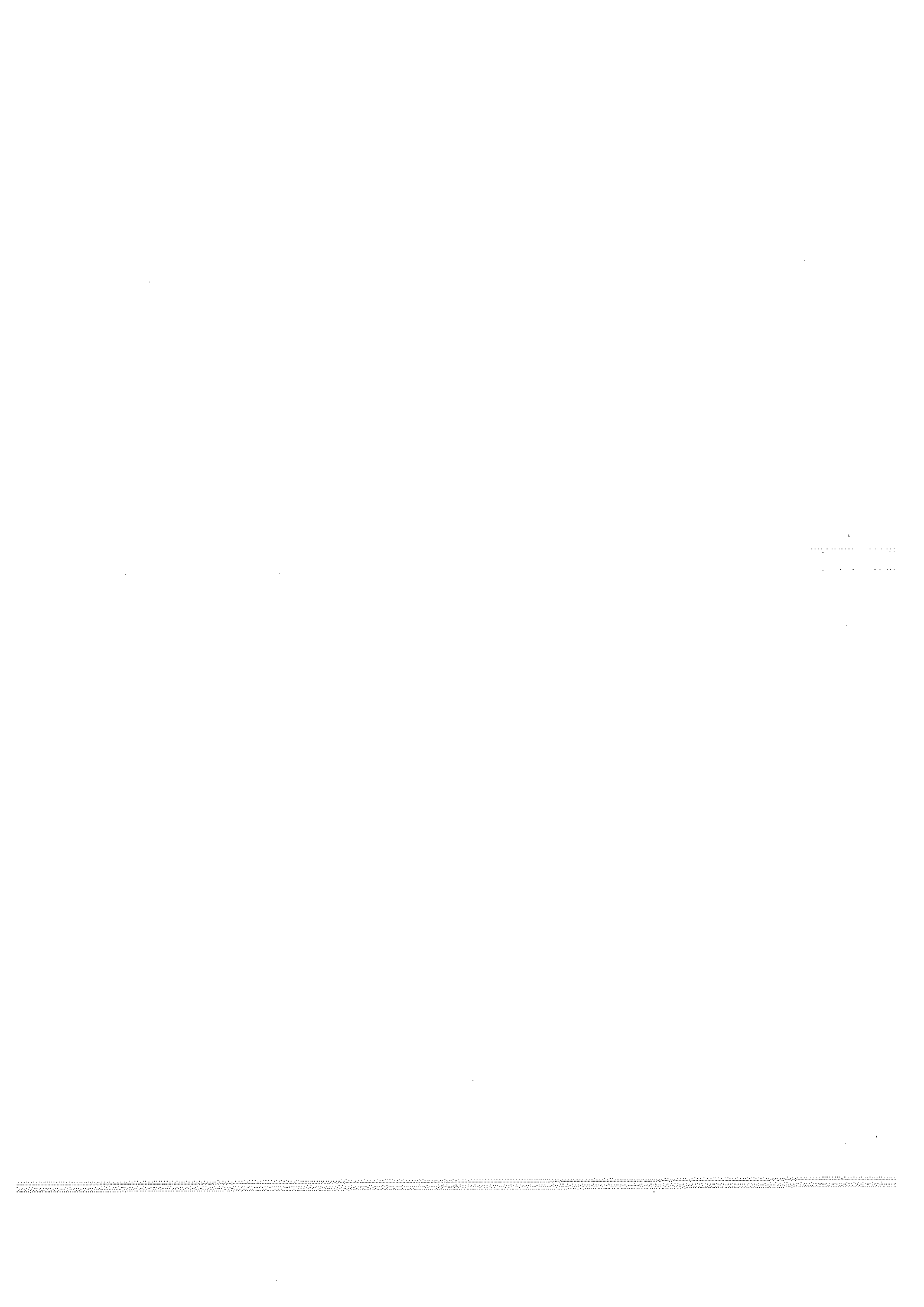
وهذا هو معنى التوكل على الله الذي دلّ عليه القرآن والسنّة، فليس التوكل ترك الأسباب، وإنما هو الاعتماد على الله، وعمل السعي المشروع، وعدم اعتقاد أن السعي ينشىء النتيجة، بل المنشىء هو الله تعالى، وقد بيّن ذلك الرسول ﷺ حيث جمع بين الاعتماد على الله، مع فعل السبب المشروع، كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[3].

والشاهد في الحديث أنه شبّه المتوكلين على الله حق توكله بالطير ووصفها بوصفين: الأول: أنها تغدو خماصاً، أي تغدو من أوكارها لطلب الرزق وهي جائعة، والثاني: إنها تروح بطاناً أي تعود إلى مقارّها وهي مملوءة البطون، ومعنى هذا أن المتوكل على الله يسعى لكسب رزقه مع اعتماده على الله ولا يتكل على القدر.

---

(١) البخاري (٢١٠/٧)   (٢) الفتح (٤٩٣/١١).

(٣) الترمذي (٥٧٣/٤)) وقال: قال ابو عيسى هذا حديث حسن صحيح. وراجع كتاب جامع العلوم والحكم في شرح الحديث ص ٣٧٩ ـ ٣٨٥، لابن رجب، طبع مصطفى البابي الحلبي وأولاده.



الفصل الثاني:

تربية الفرد المسلم بالعمل الصالح

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث.

تمهيد: في معنى العمل الصالح.

المبحث الأول : في الحضّ على طاعة الله ورسوله.

المبحث الثاني : اكتساب الحرية الحقة

المبحث الثالث : نماذج تطبيقية لأثر التربية الاسلامية.



تمهيد: في معنى العمل الصالح

الصلاح ضد الفساد، والعمل الصالح ضد العمل الفاسد ولكن من الذي يحدد العمل الصالح من العمل الفاسد؟ من الذي له حق الحكم على عمل ما بأنه صالح أو فاسد؟ أهم البشر؟ من من البشر؟ إنه لو أعطى هذا الحق للبشر لتباينت آراؤهم وأحكامهم، ولحكم بعضهم على عمل ما بأنه صالح وحكم آخرون على نفس العمل بأنه فاسد ومن الذي يفصل في نزاع الفريقين؟

لذلك ترى أنواعاً من السلوك وأنماطاً من النشاطات تعدّ جرائم عند قوم يعاقب عليها مرتكبها عندهم، وتجد نفس تلك الأنواع والأنماط حلالا ومزايا يدعى إليها ويثنى على فاعلها عند قوم آخرين، والأرض مملوءة بذلك.

ولنضرب لذلك مثالاً واحداً يتضح به المطلوب: الحرية الفردية في الاقتصاد، التي هي الأساس في معسكر الدول الغربية: الولايات المتحدة الأمريكية ودول غرب أوروبا، كل فردٍ له الحق أن يملك مايشاء من الأموال فأباحوا الملكية الفردية إباحة مطلقة، فله أن يملك ما ينتفع به من ملابس وأوانٍ وأثاث منزلي وغيرها مما يحتاج إليه الفرد لنفسه، وله أيضاً أن يملك ما يشاء من المرافق والوسائل التي تنتج الأشياء المستهلكة، ليبيعها من غيره، كالآلات والأراضي والمواد الخام بدون استثناء، وهو حرّ في سعيه لجمع المال بوسائله، ينتج ما يشاء ويبيع بالسعر الذي يريد، يتفق مع المشتري والأجير بكامل حريتهم، وفائدته الذاتية هي الدافع المحرك الأول له في الانتاج والسعي دون التفات الى منافع غيره، وذلك كفيل عندهم ان تنال الجماعة مصالحها من خدمة الأفراد الذين أعطيت لهم تلك الحرية. . . وهم يتنافسون فيما بينهم، وليس للدولة أن تتدخل في حرية تجارة الأفراد وسبل إنتاجهم وأساليب تعاملهم مع غيرهم.

هذه الحرية في الملكية الفردية هي منشأ جميع الشرور والمفاسد في

الأرض عند ذوي المعسكر الشرقي الاشتراكي، كروسيا والصين ومن في فلكهم، فلم يبيحوا للفرد إلاّ ما يحتاجه لمنافعه الشخصية، كالأواني والملابس وأثاث المنزل ونحوها. وما عدا ذلك من الأرض والآلات وغيرها مما تنتج الثروات فلا حق للأفراد فيها، لأن الفرد إذا تمكّن من ذلك استعبد غيره من الكادحين، لذلك يجب أن تتدخل الدولة في ذلك وتعتبره جريمة وفساداً يجب أن يستأصل من الأرض...[1] فالملكية الفردية في المعسكر الرأسمالي صلاح يجب ان يحمى، وفي المعسكر الشرقي فساد يجب ان يستأصل.

وإذا تأملنا تاريخ البشرية وجدنا كل أمة أو كل قوم يدعون أنهم مصلحون، ويصفون من يخالفهم بالفساد في كل النشاطات الأنسانية: العقدية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية الشرك هو الحق عند أكثر الأمم في الأرض، والتوحيد بدعة يجب أن تحارب: **﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾**[2]، **﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾**[3]، **﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدعُ ربه إني أخاف ان يبدّل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾**[4]، **﴿قال فرعون ما أريكم الاّ ما أرى وما أهديكم الاّ سبيل الرشاد﴾**[5]، **﴿قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾**[6]، **﴿ولوطاً اذ قال لقومه أتاتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون، وما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾**[7] **﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألاّ إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾**[8].

وهكذا تجد الناس في تخبط واضطراب وتباين، كل قوم يدّعون أنهم هم المصلحون وغيرهم مفسدون، فمن الذي يحدد العمل الصالح ويكون صالحاً

---

(1) راجع الأسس الاقتصادية للمودودي (2) سورة صٓ: ٥.
(3) سورة هود: ٨٧. (4) سورة غافر: ٢٦. (5) سورة غافر: ٢٩.
(6) سورة طه: ٦٣ (7) سورة الأعراف: ٨٠ ـ ٨٢. (8) سورة البقرة: ١١، ١٢.

فعلاً في كل زمان ومكان ولكل قوم في هذه الارض؟

إنه الله سبحانه وتعالى، وقد حدّد الأعمال الصالحة في كتابه وفي سنّة رسوله ﷺ في العقيدة والعبادة والسلوك وفي كل مجال من مجالات الحياة، وبيّن سبحانه أن كل من حاد عمّا أمر به ودعا اليه فهو خاسر في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿**والعصر إن الإنسان لفي خسرٍ إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾[1].

وقد أجمل الله سبحانه وتعالى أصول الإيمان والعمل الصالح على لسان نبيه ﷺ في حديث جبريل المشهور، واستنبط العلماء شرطين من نصوص الكتاب والسنّة للعمل الصالح، وهما الإخلاص لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿**وما أمروا إلّا ليعبدو الله مخلصين له الدين حنفاء**﴾[2]. والنصوص الواردة في الإخلاص من الكتاب والسنّة كثيرة جداً[3]. والأمر الثاني: اتباع الرسول ﷺ بحيث يكون العمل مطابقاً لما جاء به من عند الله وليس مخالفاً له، كما قال تعالى: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم**﴾[4]. والنصوص الواردة في اتباع الرسول ﷺ كثيرة جداً أيضاً في الكتاب والسنّة، فلا يكون العمل صالحاً إلّا إذا كان مراداً به وجه الله وموافقاً لسنّة رسول الله ﷺ، والعمل الصالح هو كل ما يرضي الله تعالى من أعمال القلب واللسان والجوارح، كالعبادة[5]، وكل ما لا يرضي الله تعالى فهو عمل فاسدٌ. فالميزان إذاً للعمل، أهو صالح أم فاسدٌ، هو كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

---

(١) سورة والعصر. (٢) سورة البينة: ٥.

(٣) راجع على سبيل المثال أول باب في كتاب رياض الصالحين للإمام النووي.

(٤) سورة آل عمران: ٣١.

(٥) راجع المبحث الثاني من الفصل الأول في معنى العبادة.

المبحث الأول:
في الحض على طاعة الله ورسوله

إن الغاية التي أنزل الله من أجلها كتبه وبعث لها رسله هي رضاه سبحانه الذي لا وسيلة للوصول إليه إلّا طاعته وطاعة رسله وتقواه سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾[1]. ولهذا قرنت الطاعُة بتقوى الله في دعوة رسله، كما قال تعالى، على لسان نوح وغيره: ﴿فاتقوا الله وأطيعونِ﴾[2].

وقد تكرر الحضّ على طاعة الله ورسوله في القرآن الكريم كثيراًكما تكرر التحذير من طاعة غير الله في معصيته ومعصية رسوله ﷺ.

ومن أمثلة الأول قول الله عزّ وجلّ: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً﴾[4].

وقوله سبحانه: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾[5].

وقوله جلّ وعلا: ﴿قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾[6].

وقال تعالى: ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾[7]. وقال تعالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾[8].

---

(١) سورة النساء: ٦٤. (٢) سورة الشعراء: ١٠٨ وما بعدها.
(٣) سورة النساء: ٥٩. (٤) سورة النساء: ٦٩ (٥) سورة النساء: ٨٠.
(٦) سورة آل عمران: ٣٢. (٧) سورة آل عمران: ١٣٢. (٨) سورة المائدة: ٩٢.

وقال تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان اللّه عزيز حكيم﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتّقه فأولئك هم الفائزون﴾[2].

وقال عزّ من قائل: ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فانّما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾[5]. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار ومن يَتَوَلَّ يعذّبه عذاباً اليماً﴾[7].

وقال تعالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾[8].

وإن التأمل في هذه الآيات التي وردت الطاعة فيها منصوصاً عليها بلفظها، وغيرها كثيرٌ لم يذكر هنا، إن التأمل في ذلك ليدلّ على مدى الاهتمام بتربية المسلم على طاعة الله ورسوله التي لا إسلام بدونها ولا نجاة.

فما أرسل الله الرسل إلا ليطيعهم البشر، وما أرسل من رسول إلّا دعا قومه

---

(١) سورة التوبة: ٧١. (٢) سورة النور: ٥١، ٥٢. (٣) سورة النور: ٥٤.
(٤) سورة النور: ٥. (٥) سورة الأحزاب: ٧١. (٦) سورة محمد: ٣٣.
(٧) سورة الفتح: ١٧. (٨) سورة التغابن: ١٢.

إلى الطاعة التي هي مفتاح تقوى الله، وما يحصل نزاع بين المسلمين حاكمين ومحكومين إلّا وجب عليهم ردّ ما اختلفوا فيه إلى الله ورسله ليحققوا الطاعة التي أمروا بها، ولا هداية لصراط الله المستقيم ولا مرافقة لعباد الله الصالحين، إلّا بالطاعة لله ولرسوله، ولا رحمة ولا إيمان ولا فلاح ولا فوز ولا هداية بدون طاعة الله ورسوله.

أما إذا أراد القارىء أن يتأمل زيادة على هذه النصوص التي حضّت على الطاعة بلفظها وغيرها ممّا لم يذكرهنا، إذا أراد أن يتأمل ما ورد في القرآن من الحضّ على الطاعة بمعناها وليس بذكر لفظها، فإنه يصعب عليه إحصاء ذلك وحصره، فما من ترغيب أو ذكر ثواب على عمل صالح أو على ترك عمل سيء إلّا كان امتثالاً لأمرٍ أو اجتناباً لنهي، وهو معنى الطاعة.

وما من ترهيب وذكر عقاب على ترك أو فعل إلّا كان على ترك أمرٍ أو فعل نهي، وهو ما يضاد الطاعة.

فالتربية على طاعة الله ورسوله هي التي تؤدي إلى العمل الصالح وترك لعمل السيء، وفي ذلك يكمن الأمن الحقيقي.

ومن أمثلة النوع الثاني ـ وهو التحذير من طاعة من خالف أمر الله ورسوله، سواء كان صادراً عن العدو الداخلي، وهو الهوى والنفس والشيطان، أم العدو الخارجي وهم أعداء الله الكفرة ومحبو الفسوق والعصيان ـ قول الله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾**[1].

وقال تعالى: **﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾**[2].

وقال تعالى: **﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن طعتموهم إنكم لمشركون﴾**[3].

وقال تعالى: **﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فرطاً﴾**[4].

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٠. (٢) سورة الأنعام: ١١٦ (٣) سورة الأنعام: ٢

(٤) سورة الكهف: ٢٨.

وقال تعالى: ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيراً﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ووصّينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾[2].

وقال تعالى عن الكافرين الذين عصوا الله ورسوله: ﴿يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السبيلا﴾[3]. وقال تعالى: ﴿فلا تطع المكذبين ودّوا لو تدهن فيدهنون ولا تطع كل حلّاف مهين﴾[4].

وقال تعالى: ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾[5]، وبهذا يعلم أن في طاعة غير الله ورسوله فيما خالف أمر الله ورسوله يكون الكفر والضلال والشرك والعذاب الأليم، والبعد عن ذلك يحتاج إلى صبر وتوكل على الله سبحانه وتعالى.

وعلى هاتين القاعدتين: طاعة الله ورسوله وعدم طاعة من خالف أمر الله ورسوله ربّى رسوله الله ﷺ أصحابه فكان عصرهم خير العصور في الأرض، وذلك ما يجب أن يسلكه كل من أراد أن يربّي أمة مسلمة يتحقق بتربيتها الخير والسعادة والأمن في الأرض.

فإن التربية على طاعة الله ورسوله تجعل من ربي عليها يلتزم بأوامر الله ورسوله وأوامر من اتبع شرع الله ورسوله في كل حال من الأحوال في السر والعلانية.

وكل أمر أو نهي لا يكون نابعاً من طاعة الله ورسوله فإن التمرد عليه سهل يسير إذا غاب المتمرد عن العين المادّية التي تراقبه أو خلا عن سطوة القانون البشري.

أمّا طاعة اللّه فانها لا تفارق صاحبها في كل لحظة من لحظات حياته، فلا يخون ولا يغش ولا ينقض عهداً ولا ينتهك عرضاً ولا يسرق مالاً ولا يغتصب أرضاً، ولا يتناول شيئاً ممّا حرّم الله عليه، ورقيبه في ذلك كله هو اللّه الذي يجب طاعته التي التزم بها وتربّى عليها وبغض معصيته التي حذّر منها وتربّى

---

(١) سورة الفرقان: ٥٢ (٢) سورة العنكبوت: ٨. (٣) سورة الأحزاب: ٦٦، ٦٧.
(٤) سورة القلم: ٨ - ١٠ (٥) سورة الانسان: ٢٤.

على البعد عنها وعن أهلها، فهو يحب طاعة الله ويسعى لتحقيقها ويكره معصية الله ويهرب من الوقوع فيها، فإذا فعل خيراً يعود على غيره من البشر إنما يفعله لأنه طاعة لله ورسوله وإذا ترك شراً يعود ضرر فعله الى الناس فإنما تركه لأنه معصية لله ولرسوله ﷺ، لذلك لا يخاف منه خصمه أذى ولا يطمع منه صديقه في محاباة وعمل منكر، وهذا هو الذي يأمنه الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وسائر حقوقهم.

وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين، ولم ينل هذا الفضل غيرهم، ممن يعبدون أهواءهم ويفضّلون المعصية على الطاعة، وقد امتنّ الله على عباده المؤمنين بهذا الفضلْ العظيم فقال عزّ من قائل: **﴿واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم ولكن الله حبب اليكم الايمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم﴾**[1].

(١) سورة الحجرات: ٧، ٨.

المبحث الثاني:
اكتساب الحرية الحقة

إن الذي يرزقه الله العلم النافع، وهو هدى الله، والعمل الصالح، وهو الدين الحق، أي تطبيق علمه بسلوكه العملي ينغرس في قلبه أمران عظيمان:

الأمر الأول: العبودية الكاملة لله سبحانه وتعالى، بحيث لا يتحرك ولا يسكن إلا في عبادة ربه وطاعته، تحقيقاً لقوله تعالى: **﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾**[1]. وقوله تعالى: **﴿قل إن صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا من المسلمين﴾**[2].

والأمر الثاني: الحرية الكاملة من عبودية غير الله، من هوى ونفس وشيطان وملذات وطغاة، فاذا تمكنت عبوديته لله من قلبه، وتحرر من عبودية غير الله، كان أهلاً لأن يأمنه الناس على كل شيء، لأنه لا يستجيب لرغبة ولا يخضع لرهبة ولا يقوده إغراء ولا شهوة، ولا يتبع هوى، وإنما يستجيب لأمر الله وأمر الله لا يوجد فيه إلّا عمل الخير الذي فيه غاية الأمن لكل البشر.

والذي يعتدي على حقوق الله أو حقوق عباده، إنما يفعل ذلك بسبب استرقاق الشهوات لقلبه الذي لم تتمكن منه عبودية الله، فتمكنت منه عبودية غيره، فهو أسير شهواته وهواه ولو كان في ظاهر أمره ملكاً للناس.

وقد دلّ القرآن الكريم على أن الذي يحقق عبودية الله في نفسه يسلم من عبودية غيره، والذي لا يحقّق عبودية الله في نفسه يكون عبداً لشتى مخلوقاته، فالحرية الحقة هي عبودية الله الواحد والعبودية المذلّة هي الخضوع لغير الله، قال تعالى: **﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾**[3].

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦. (٢) سورة الأنعام: ١٦٢، ١٦٣. (٣) سورة الزمر: ٢٩.

والمثل مضروب لتقريب المعنى للأفهام، فالذي يكون مملوكاً لعدد من الناس يلقى عنتاً ومشقة في إرضائهم، ولا يجد منهم رأفةً به ولا إعانة على مصالحه، بخلاف من كان مملوكاً لمالك واحدٍ، فانه يرضيه بطاعته ولا يجد من يعارضه في ذلك ويثيبه مالكه على عمله ويعرفه له، فالذي يعبد الله وحده هو الحر الذي لا تستعبده آلهة شتى، والذي لا يعبد الله وحده يكون مسترقاً لتلك الآلهة المتعددة: آلهة الطواغيت التي تأمره بالمنكر فيفعله، وتنهاه عن المعروف فيتركه، وآلهة الشهوات التي تدعوه إلى الوقوع فيها والاعتداء على حقوق الناس، وهذا هو العبد الذليل الحقير لهواه وشهواته فقد العزّة التى تنال بعبادة الله، فأبدله بها الذلّ لغيره.

وهذا ما عناه رسول الله ﷺ في حديث ابي هريرة رضي الله عنه: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش».

هذا هو الذي لم تتمكن العبودية الحقة من قلبه، فأصبح عبداً لكل شيء، أمّا من تمكنت عبودية الله من قلبه فقد عناه الرسول ﷺ في نفس الحديث بقوله: «طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه مغبرّة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة، كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له وان شفع لم يشفع»[1].

إن عبد الله حر عزيز، ولو لم يكن له ذكر بين الناس ولا جاه ولا منصب ولا هيئة تجعل الناس يلتفتون إليه، تقفل أبواب الناس في وجهه، ولكن باب الله له مفتوح، واذا شفع عند أحد ردّت شفاعته، ولكن شفاعته عند الله مقبولة.

أما صاحب الجاه والمنصب والغنى والهيئة إذا كان غير ذي عبودية لله فانه عبدٌ لجاهه ومنصبه وغناه وهيئته ولا قيمة له عند الله.

هذا، ولابن تيمية رحمه الله كلام جميل بديع في معنى الحرية في غاية من الدقة والعمق، فهو لا يعتبر من غلبته شهواته وهواه حراً في عرف الشرع ولو كان سيداً مطاعاً في الأرض.

---

(١) البخاري (٣/٢٢٣).

قال رحمه الله: «فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استعبد بدنه واسترق وأسر لا يبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص، وأمّا اذا كان القلب ـ الذي هو ملك الجسم ـ رقيقاً مستعبداً متيماً لغير الله، فهذا هو الذل والأسر المحض والعبودية الذليلة لما استعبد القلب، وعبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، فإن المسلم لو أسره كافرٌ أو استرقّه فاجر بغير حق لم يضره ذلك إذا كان قائماً بما يقدر عليه من الواجبات. . . اما من استعبد قلبه فصار عبداً لغير الله، فهذا يضره ذلك ولو كان في الظاهر ملك الناس، فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب. . .»[1].

والمقصود من هذا المبحث أن الذي يربى على عبودية الله وحبه والخوف منه واتباع شرعه والبعد عن معصيته والتوكل عليه وحده وعدم الخوف من غيره أن يقرب أجلاً أو يقطع رزقاً، إن الذي يربّى هذه التربية يصبح حراً من اتّباع الأهواء والشهوات وطغاة الباطل، فلا يقدم على معصية لربه أو ما يضرّ الناس وهنا يكون الأمن والطمأنينة، بخلاف من أسر لشهوته وهواه أو لطاغية فإنه يقدم على المعاصي والجرائم ولا يبالي ضرر الناس وأذاهم.

ولمّا كان معنى الحرية عند كثير من الناس هو الانطلاق الكامل في الاستمتاع بما يقدر عليه الفرد ترتب على ذلك الاعتداء على الحرمات، واصطدمت الرغبات ونجم النزاع، ونتج عن ذلك اختلال الأمن في أرجاء المعمورة على الضرورات التي لا حياة بدون حفظها[2].

قال سيد قطب، رحمه الله: «لا تستقيم حياة يذهب فيها كل فرد إلى الاستمتاع بحريته المطلقة إلى غير حدٍّ ولا مدى، يغذيها الشعور بالتحرر الوجداني المطلق من كل ضغط وبالمساواة المطلقة التي لا يحدها قيد ولا شرط، فإن الشعور على هذا النحو كفيل بأن يحطّم المجتمع، كما يحطّم الفرد ذاته وللمجتمع مصلحة عليا لا بدّ أن تنتهي عندها حرية الأفراد، وللفرد

---

(١) العبودية ص ٩٦، ٩٧ طبع المكتب الإسلامي، وراجع كتاب منهج التربية الإسلامية، لمحمد قطب (١ / ٢٧٠)، والعدالة الاجتماعية لسيد قطب، ص ٣٧ ـ ٥١.

(٢) راجع كتاب: الإسلام وضرورات الحياة للمؤلف.

ذاته مصلحة خاصة في أن يقف عند حدود معينة في استمتاعه بحريته لكي لا يـذهب مع غـرائزه وشهـواته ولـذائذه إلى الحـد المـردي ثم لكي لا تصـطدم حريته بحرية الآخرين، فتقوم المنـازعات التي لا تنتهي، وتستحيـل الحريـة. جحيما ونكالاً، ويقف نمو الحياة وكمالها عند حدود المصالح الفردية القـريبة الآماد وذلك كالذي حدث في حرية النظام الرأسمالي وما صاحبه من نظريـات الحرية الحيوانية للشهوات، والاسلام الذي يمنح الحـرية الفـردية في أجمـل صـورها، والمسـاواة الإنسانيـة في أدق معانيهـا ولكنـه لا يتـركهمـا فـوضى، فللمجتمع حسابه وللإنسانية اعتبارها ولـلأهداف العليـا للدين قيمتها، لـذلك يقرر مبدأ التبعة الفردية، ويقرر إلى جانبها مبدأ التبعية الجمـاعية التي تشمـل الفرد والجماعة بتكاليفها، وهذا ما ندعوه بالتكافل الاجتماعي»[1].

---

(١) العدالة الاجتماعية ص ٦٢، ٦٣.

المبحث الثالث:
نماذج تطبيقية لأثر التربية الإسلامية

لقد أثّرت التربية الإسلامية في المسلمين تأثيراً ما كان أحد يتوقع حدوثه في الأرض، لم يتوقعه أحد ممن لم يذق طعم الإسلام وما يحدثه في النفوس من تغيير، وسلوك أصحاب رسول الله ﷺ يدل على مدى ذلك التأثير.

ونضرب لذلك ببعض الأمثلة:

المثال الأول: سرعة التنفيذ اختياراً وامتثالاً

إن الأمور التي يعتادها الناس لمدة طويلة وهي مما تشتهيه النفوس، يصعب على تلك النفوس أن تتركها، واذا حاول القليل أن يتركها تشبّث بها أكثر الناس، ولكن النفوس المؤمنة التي تربّت على طاعة الله ورسوله لا يصعب عليها الإقلاع عمّا ألفت إذا أراد الله منها ذلك الإقلاع؛ وإنما يصعب عليها أن تبقى على ما ألفت حياء من الله وخوفاً من سخطه.

فقد كان كثير من أصحاب رسول الله ﷺ ما زالوا يشربون الخمر في المدينة قبل أن ينزل تحريمها صريحاً في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، فلما نزل تحريمها سارعوا الى اجتنابها مسارعة الراغب في رضا الله تعالى، الذي في يده الكأس لم يرفعها الى فيه، والذي قد أخذ جرعة في فمه لم يستسغ إنزالها الى جوفه، بل مجّها من فوره، والذي قد شرب منها شيئاً حاول أن يستقيء ليطهر جوفه من الرجس الذي حرّمه الله، وجرت سكك المدينة بالخمور التي أهرقوها من دنانها، حتى لا يبقى شيء منها أمام أعينهم.

كما روى أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: كنت ساقي القوم يوم حرِّمت الخمر، في بيت أبي طلحة، وما شرابهم إلاّ الفضيخ والبسر والتمر، فإذا منادٍ ينادي، فقال: اخرج فانظر، فخرجت، فإذ منادٍ ينادي ألا إن الخمر قد حرِّمت، قال: فجرت في سكك المدينة، فقال لي أبو طلحة: اخرج

فاهرقها، فهرقتها..»[1].

رجل واحد ينادي بأمر رسول الله ﷺ بتحريم الخمر، فيسرع الناس باهراق القلال المملوءة به ـ كما ورد في بعض روايات أنس: «اهرق هذه القلال» ـ في شوارع المدينة حتى تجرى فيها لكثرتها، ولم يترددوا في ذلك مع ما عرف من صعوبة إقلاع شاربي الخمر عنها، ثم لم يراجعوها بعد ذلك ولا سألوا عنها، ولم يكن ذلك لقوة السلطة المادية من المطاردة، وفتح السجون والغرامات وغيرها، وإنما كان بسبب السلطة الربانية ـ أي القوة الإيمانية المغروسة في النفوس ـ إنه امتثال أمر الله ورسوله عن رضا واطمئنان.

وينبغي ـ هنا ـ أن نذكّر بقصة إصدار أكبر دولة مادية في العصر الحديث، قانوناً بحظر الخمر والعقاب عليها، وتجنيد هذه الدولة كل قواها البشرية والمالية، ووسائل إعلامها، وفتح سجونها على مصراعيها لملئها بالجناة الذين لم يستجيبوا لتطبيق القانون الذي صدر في ١٦ يناير عام ١٩١٩ على أن ينفّذ عام ١٩٢٠، وسبق المنع حملة واسعة من التوعية في جميع وسائل الاعلام، وفي المدارس والمصانع، وصار تدريس أضرار الخمر جزءاً من المواد الدراسية التي يدرسها الطلبة في الابتدائي والثانوي والجامعة، وبذلت جهود جبارة في التوعية، حتى لقد سودت تسعة ملايين صفحة تبين أضرار الخمر الطبية، والاجتماعية، والأخلاقية، وبلغت تكاليف الحملة الاعلامية في ذلك العام فقط خمسة وستين مليون دولار (عام ١٩٢٠، قيمتها اليوم أكثر من ٦٥٠ مليون دولاراً). ولكن لم يكد يمضي على إغلاق الحانات ومصانع الخمر أيام قلائل إلّا وابتدأت تنتشر آلاف الحانات السرية.. وفي غضون أشهر قليلة زاد شاربو الخمر عمّا كانوا عليه قبل المنع... وقدّم إلى المحاكمة ملايين الأشخاص... وسجن ما بين ١٩٢٠ و١٩٣٣ نصف مليون شخص، لإدانتهم بشرب الخمور والاتجار بها أو حيازتها، وقدِّم الى القضاء في تلك الفترة مجرمون عتاة ارتكبوا جرائم مروعة بسبب الخمر، وقد أدانت المحاكم الكثير منهم، وحكمت على مائتين من عتاة المجرمين بالإعدام... لجرائم متعلقة بالخمور، كما قامت الحكومة بمصادرة أملاك ومصانع الخمر السرية، وبلغ

(١) البخاري (٦/٢٤١ ـ ٢٤٢) ومسلم (٣/١٥٧٠) واللفظ له، وغيرهما من أهل السنن.

قيمة الأموال المصادرة عندئذ أربعمائة مليون دولار.

ومع هذا فقد انتشرت العصابات الإجرامية... وأفلت كثير منها من قبضة القانون.

وممّا ذكرنا يبدو أن الحكومات الأمريكية المتعاقبة في الولايات المتحدة في فترة المنع، وهي ما بين ١٩٢٠ و١٩٣٣، كانت جادة في تطبيق القانون، فقد بذلت في ذلك جهوداً جبارة، ولكن تلك الجهود المضنية باءت بالفشل، وصار من المحتم على الحكومة الأمريكية والكونغرس الأمريكي أن يعيدا النظر في قرار المنع ذلك، إذ وجدت الحكومة الأمريكية أن ملايين الأمريكيين قد أقبلوا على شرب الخمور السرية الرديئة، وزاد الإقبال عليها خاصة بين الشباب... وقد انتشرت إحصائيات مرعبة عن الوفيات الناتجة عن شرب تلك الخمور الرديئة، ففي عام ١٩٢٧ فقط هلك من استعمال تلك السموم الناقعة سبعة آلاف وخمسمائة شخص، كما أصيب بأمراض وبيلة من جراء شربها أحد عشر ألف شخص في ذلك العام، وازدادت نسبة الجرائم كلها من هتك للأعراض، وسرقة، وقتل، وتضاعف عدد المجرمين ثلاثة أضعاف ما كان عليه قبل المنع، وصرح الكولونيل موسى رئيس المجلس الوطني للجريمة... في ذلك الوقت، بقوله: إن واحداً من كل ثلاثة أمريكيين يتعاطون الخمر، وإن الجرائم قد زادت بنسبة ثلثمائة بالمائة عما كانت عليه قبل... وبذلك عادت الولايات المتحدة الأمريكية إلى السماح بصناعة الخمور وبيعها والاتجار بها والإعلان عنها...[1].

قارن بين نداء رجل واحد بأن الله قد حرّم الخمر واستجابة أهل المدينة كلهم لندائه وإهراق ما عندهم من الخمور حتى جرت في سكك المدينة ومن ثم لم يعودوا لشربها، وبين ما جرى من دولة ذات قوة وإمكانات مادية لتطبيق القانون الذي حرّمت به الخمر قهراً، ثم استسلامها لجماهير الإجرام والشهوة العارمة، بعد أحد عشر عاماً من الزمن وافهم السبب الذي جعل الناس

---

(١) الخمر بين الطب والفقه، لمؤلفه الدكتور محمد بن علي البار من ص ١٠٠ الى ص ١٠٣ مع شيء يسير من التصرف والاختصار، وراجع كتاب التشريع الجنائي الإسلامي (٢/٤٩٦ ـ ٤٩٧) لعبد القادر عودة وراجع ضرورة حفظ العقل في كتابنا: الإسلام وضرورات الحياة.

يستجيبون في الأول، والسبب الذي دعا إلى التمرد في الثاني!

إن التـربية الإسـلامية في استجـابة المسلمين لـداعي التحريم في الأول، وعدمها، وهو البعد عن الله في الثاني.

المثال الثاني:
سرعة تنفيذ النساء المؤمنات أمرهن بالحجاب

إنه من الصعوبة بمكان أن يتحول المرء من عادة ألفها فترة طويلة من حياته إلى عـادة أخرى لم يـألفها، ولكن الايمـان والتربيـة الإسلاميـة تجعله يتحول بسرعة، راضياً مطمئناً من عادته الأولى الى الثانية. وهذا ما حصل من النسـاء المؤمنـات عندمـا علمن أن الله أمرهنّ بـالحجاب فقـد استبـطأن أن تعـد كـل واحدة منهن خماراً لـذلك، فشققن مـروطهن واختمرن بهـا، كما في حـديث عائشة، رضي الله عنها، قالت: «يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل: ﴿وليضربنّ بخمرهن على جيوبهن﴾ الآية شققن مروطهن فاختمرن بها»[1].

المثال الثالث:
سهولة إثبات الجريمة بإقرار الجاني خوفاً من الله تعالى، ولو أدّى إقراره الى حرمانه الحياة أو حرمان أقرب المقربين إليه، ونسوق لهذا المثال حديثين:

الحديث الأول: عن أبي هريرة، رضي الله عنه، وزيد بن خالـد الجهني، رضي الله عنه، قالا: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، وهو جالس، فقال: يـا رسول الله! أنشدك الله إلا قضيت لي بكتـاب الله، فقال الخصم الآخـر، وهو أفقه منه: نعم يا رسول الله، اقض بيننا بكتاب الله، وائـذن لي، فقال رسـول الله ﷺ: «قـل». قال: إن ابني كـان عسيفاً على هـذا[2] فـزنى بـامـرأتـه وإني أخبرت على أن على ابني الرجم، ـ فافتديت منـه بمائـة شاة ووليـدة، فسألت

(١) البخاري (١٣/٦) والآية في سورة النور: ٣١.
(٢) يعني أجيراً عنده.

أهل العلم فأخبروني أن ما على ابنى جَلْدُ مائة وتغـريب عام، وأن على امـرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «والـذي نفسي بيده لأقضين بينكمـا بكتاب الله، الوليدة والغنم رد عليك وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، اعد يا أنيس ـ لـرجل من أسلم ـ الى امـرأة هـذا، فـإن اعتـرفت فـارجمهـا، فغـدا عليهـا فاعترفت فأمر بها رسول الله ﷺ، فرجمت»[1].

تأمل كيف يسعى من له علاقة بالمعصية للعثور على حكم الله فيها وتطبيقه على قريبه، من الاتصال بأهل العلم وسؤالهم، وكيف يأخذ الإبن أبوه الى من ينفّذ فيه حكم الله، ويقرّ الزوج على امرأته بالزنى، وفيه ما فيه من العار وسوء السمعة عليه، وكيف يعترف العاصي بمعصيته، وإن كان في اعتـرافه مفـارقة الحياة، كل ذلك للحرص على البعـد عن سخط الله، وطلب رضاه الـذي هو هدفه الأول في هذه الحياة، بسبب التربية الإسلامية التي تدور كلها حوله.

الحديث الثاني: عن وائل بن حجر، رضي الله عنه، أن امرأة خرجت على عهد رسول الله ﷺ، تريد الصـلاة، فتلقاهـا رجل، فتجللهـا، فقضى حاجتـه منها، فصاحت، فانطلق. ومـرت بعصابـة من المهاجـرين، فقالت: إن ذلـك الرجل فعـل بي كذا وكـذا، فانـطلقوا، فـأخذوا الـرجل الـذي ظنت أنه وقـع عليها، فأتوها به، فقالت: نعم هو هذا، فأتوا به رسول الله ﷺ، فلمـا أمر بـه ليرجم، قام صاحبها الـذي وقع عليهـا، فقال: يـا رسول الله، أنـا صاحبهـا، فقال لها اذهبي فقد غفر الله لك، وقال للرجل قولاً حسناً، وقال للرجـل الذي وقع عليها: «ارجموه» وقال: «لقد تاب تـوبة لـو تاب بهـا أهل المـدينة لقبـل منهم»[2].

إن الـرجل جنى واختفى، واتهم غيـره، وكاد يـطبق العقاب على المتهم،

---

(١) البخاري (٨/٢٤) ومسلم (٣/١٣٢٤).

(٢) أبـو داود (٤/٥٤١ ـ ٥٤٢) والترمـذي (٤/٥٦) وقال: قـال أبو عيسى: هـذا حـديث حسن غريب صحيح. قال العظيم آبـادي رحمه الله قـوله: «فلمـا أمر بـه ليرجم»: ولا يخفى أنـه بظاهره مشكل، اذ لا يستقيم الأمر بالرجم من غير إقرار ولا بيّنة، وقول المرأة لا يصلح بيّنة، بل هي التي تستحق أن تحدّ حدّ القذف، فلعل المراد فلمـا قارب أن يـأمر بـه، وذلك قـاله الراوي نظراً الى ظـاهر الأمـر حيث إنهم أحضروه في المحكم عنـد الإمام، والإمـام اشتغـل بالتفتيش عن حاله، والله أعلم، عون المعبود (١٢/٤٢ ـ ٤٣) الطبعة السلفية.

وهو الرجم الى الموت، ولو أراد الجاني أن يستمر في الاختفاء لفعل، ولكن خوف الله ساقه سوقاً لإنقاذ حياة بريء، وتقديم نفسه للموت، فكانت توبة لو تابها أهل المدينة لقبل الله منهم.

قال أبو زهرة، رحمه الله، وهو يعدّد فوائد يقظة الضمير الديني - اي بالتربية الإسلامية -:

الثاني: أن ايقاظ الضمير يسهّل الإثبات، لأن الجرائمْ لا تقع إلاّ في كن من الظلام، مستترة غير ظاهرة، فإذا أحسن الذين عاينوا وشاهدوا أن عليهم واجباً دينياً أن يبلّغوا فانهم يبلّغون، تنفيذاً لحكم ربهم، وذلك لقوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾[1].

ولقد بلغ من قوة الضمير أن الرجل يأخذ ولده الى الرسول عليه السلام، فيقيم عليه الحد إذا وجب..» ثم ذكر حديث أبي هريرة وزيد بن خالد المتقدم[2].

المثال الرابع:
رفض الإغراء واحتمال المكاره رغبة فيما عند الله وخوفاً من عقابه

كما في حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده، رضي الله عنهما، قال: كان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد، وكان رجلاً يحمل الأسراء من مكة حتى يأتي بهم المدينة، قال: وكانت امرأة بغي بمكة، يقال لها عناق، وكانت صديقة له، وأنه قد وعد رجلاً من أسارى مكة يحمله، قال: فجئت حتى انتهيت الى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عناق، فأبصرت سواد ظلي بجنب الحائط، فلما انتهت إليّ عرفتني، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد، فقالت: مرحباً وأهلاً، هلمّ فبت عندنا، قال: قلت:

---

(١) سورة النساء: ١٣٥ (٢)الجريمة والعقوبة (١٣/١).

يا عناق، حرّم الله الزنا، قالت: يا أهل الخيام، هذا الرجل يحمل أسراءكم، قال: فتبعني ثمانية، وسلكت الخندمة فانتهيت الى غار وكهف، فدخلت، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي فبالوا، فظلّ بولهم على رأسي، وعماهم الله عني، قال: ثم رجعوا ورجعت الى صاحبي، فحملته وكان رجلاً ثقيلاً، حتى انتهيت الى الإذخر ففككت عنه أكباله، فجعلت أحمله ويعينني، حتى قدمت المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أنكح عناق؟ فأمسك رسول الله ﷺ، فلم يرد شيئاً، حتى نزلت: **﴿الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك﴾**[1].

فقال رسول الله ﷺ: «يا مرثد **﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك﴾** فلا تنكحها»[2].

حمل مرثداً، رضي الله عنه، إيمانه وتربيته الإسلامية على إنقاذ إخوانه المسلمين من الأسر، وتأمينهم، فكان يقطع المسافات الطويلة بين مكة والمدينة ذاهباً وآئباً: يحمل الأسير وهو مكبل بالقيود، حتى يخرجه من مكة، فيفك قيوده ويعينه حتى يصل الى مأمنه بين إخوانه المسلمين بالمدينة.

وجد مرثد تلك البغي التي كان له معها علاقة في الجاهلية، وهو في وقت حرج يخاف على نفسه من أن يكتشف من قبل قريش الذين كان يأخذ أسراهم خفية منهم، فدعته تلك البغي الى الرواح معها والنزول في بيتها وهو يتدسس، فلم يتردد في أن يذكر لها حكم الله في تلك العلاقة السيئة، وهو يعرّض بذلك نفسه للخطر، لأنها كانت، كما يبدو من سياق الحديث تعرف حمله الأسرى، وهو يعلم أنها ستؤلب عليه إن لم يستجب لها، ولذلك صاحت بالناس محرشة عليه، فتبعوه.. ونجّاه الله منهم، فرجع لتنفيذ أمره.

والذي يظهر من استئذان مرثد النبي ﷺ في الزواج من عناق أنه كان يحبها، وكانت نفسه البشرية تتوق إليها، ولكنه صبر عنها رافضاً للإغراء ومتحملاً للأخطار في ذات الله عز وجل وتلك هي التربية الاسلامية العظيمة.

---

(١) سورة النور: ٣. (٢) ابو داود (٢/ ٥٤٢) والنسائي (٦/ ٥٤) والترمذي(٥/ ٣٢٨)، وقال: قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه. وقال المحشي على جامع الأصول (٢/ ٢٤٥): وإسناده حسن... وصحّحه الحاكم.

ويشبه ذلك رفض العبيد الضعفاء أوامر السادة الأقوياء التي فيها معصية الله تعالى، بل إن هذا أشد، لأن للسيد سلطة على عبده، والعبد مضطر على مخالطة سيده والبقاء عنده متعرضاً لأذاه كل حين، كما في قصة عبدالله بن أبيّ بن سلول مع جاريته ومحاولته إكراهها على البغاء ورفضها أمره:

عن جابر بن عبدالله، رضي الله عنهما، قال: كان عبدالله بن أبيّ ابن سلول. يقول لجارية له: اذهبي فابغينا شيئاً، قال: فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿**ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفورٌ رحيمٌ**﴾[1]. وفي رواية: إن جارية لعبدالله بن أبيّ يقال لها مسيكة. وأخرى يقال لها أميمة، كان يريدهما على الزنا، فشكتا ذلك الى رسول الله ﷺ، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿**ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء**﴾ ـ الى قوله ـ: ﴿**غفورٌ رحيمٌ**﴾[2].

يحاول المجرمون نشر الإجرام بكل الوسائل المتاحة لهم، كما أراد ابن أبيّ ذلك لجواريه، لأنه يملكهنّ، ولكن التربية الإسلامية تقف لهم بالمرصاد، فيقف الضعيف طبعاً، القوي إيماناً، ضد رغبة القوي طبعاً الضعيف إيماناً.

ولو أنّ المسلمين في كل زمان ربّوا هذه التربية الإيمانية لما قدر دعاة الفساد وناشروه وإن كانوا أقوياء أن يشيعوا فيهم الفحشاء والمنكر.

ولو أتيح للمجرمين والمنحلّين ومحبي الفاحشة أن يربّوا على الإيمان بالتربية الإسلامية لتابوا الى الله ورفضوا كل فحشاء ومنكر.

المثال الخامس:
الورع العالي

كما في قصة تقيّؤ أبي بكر رضي الله عنه ما أكله عندما علم أنه من كسب حرام.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج،

---

(١) سورة النور: ٣٣. (٢) مسلم (٤/٢٣٢٠).

وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشيء، ووافق من أبي بكر جوعاً، فأكل منه لقمة قبل أن يسأل عنه فقال له الغلام: تدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أحسن الكهانة، إلا أني خدعته، فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر إصبعه في فيه، فقاء كل شيء في بطنه»[1].

تأمل صنيع أبي بكر هذا، أكل لقمة من سعي غلامه، وهو جائع، قبل أن يسأل عن مصدر الكسب، والظاهر من الأثر أنه كان من عادته أن يسأل قبل أن يأكل احتياطاً، فلمّا أخبره الغلام بسبب كسبه وعرف أنه غير مشروع لم يطق أن يختلط غذاؤه بتلك اللقمة الخبيثة بدمه، فاستقاء ليخرجها وما اختلطت به في بطنه، وما كان رضي الله عنه مكلفاً أن يفعل ذلك، وقد أكلها دون أن يعلم أنها من كسب خبيث، ولكن التربية الاسلامية التي تربّاها على يد رسول الله ﷺ هي التي أوصلته إلى ذلك الورع العالي الذي لا يصل إليه إلّا من بلغ درجة المتقين الذين يدعون ما لا بأس به خشية مما به بأس، أليس كان يكفي أبا بكر أن يستغفر الله ويتوب اليه ويدع ما بقي من ذلك الكسب غير المشروع؟ بلى ولكن الورع العالي لم يدعه يكتفي بذلك.

إن الذي لم يتربَّ التربية الاسلامية على طاعة الله ليلتمس الحصول على ما ليس له فيه حق، ليسطو عليه إذا قدر في غفلة عن صاحبه، وإن كثيراً ممنولّاهم الله أمور الناس ليسلكون سبلاً شتى في الاعتداء على حقوق الناس مستغلين قوتهم وسلطانهم ولكن سلطان الله يسلك بأهله سبيلاً آخر وهو تقوى الله وعدم إضرار الناس.

فأين هذا الورع العالي الذي ضرب له أبو بكر رضي الله عنه أروع مثال، بإخراج لقمة الرزق الخبيث مع ما اختلطت به من الرزق الحلال، وكان أكلها وهو جائع ولا علم له بها؟

أين هذا من جباة الحرام وطالبي الاعتداء على حقوق الناس؟!

هذا وليعلم ان تربية الفرد بالعلم النافع والعمل الصالح لتستغرق كل أوقات حياته بأصول الإيمان وما تفرع عنها، وأصول الإسلام وما تفرع عنها،

---

(١) البخاري (٤/٢٣٦).

وكل أصل من أصول الإيمان وفروعه، وكل أصل من أصول الإسلام وفـروعه له أثره العـظيم على حياة الفـرد إذا جاء بـه على مراد الله ومـراد رسولـه ﷺ، يجعل ذلك الفرد صالحـاً مصلحاً، يحب الصـلاح والمصلحين ويكره الفسـاد والمفسـدين، ويسعى قدر طـاقتـه أن يـزداد الصـالحـون صـلاحـاً، وأن يقلع المفسدون عن فسادهم ويكونوا مع الصالحين.

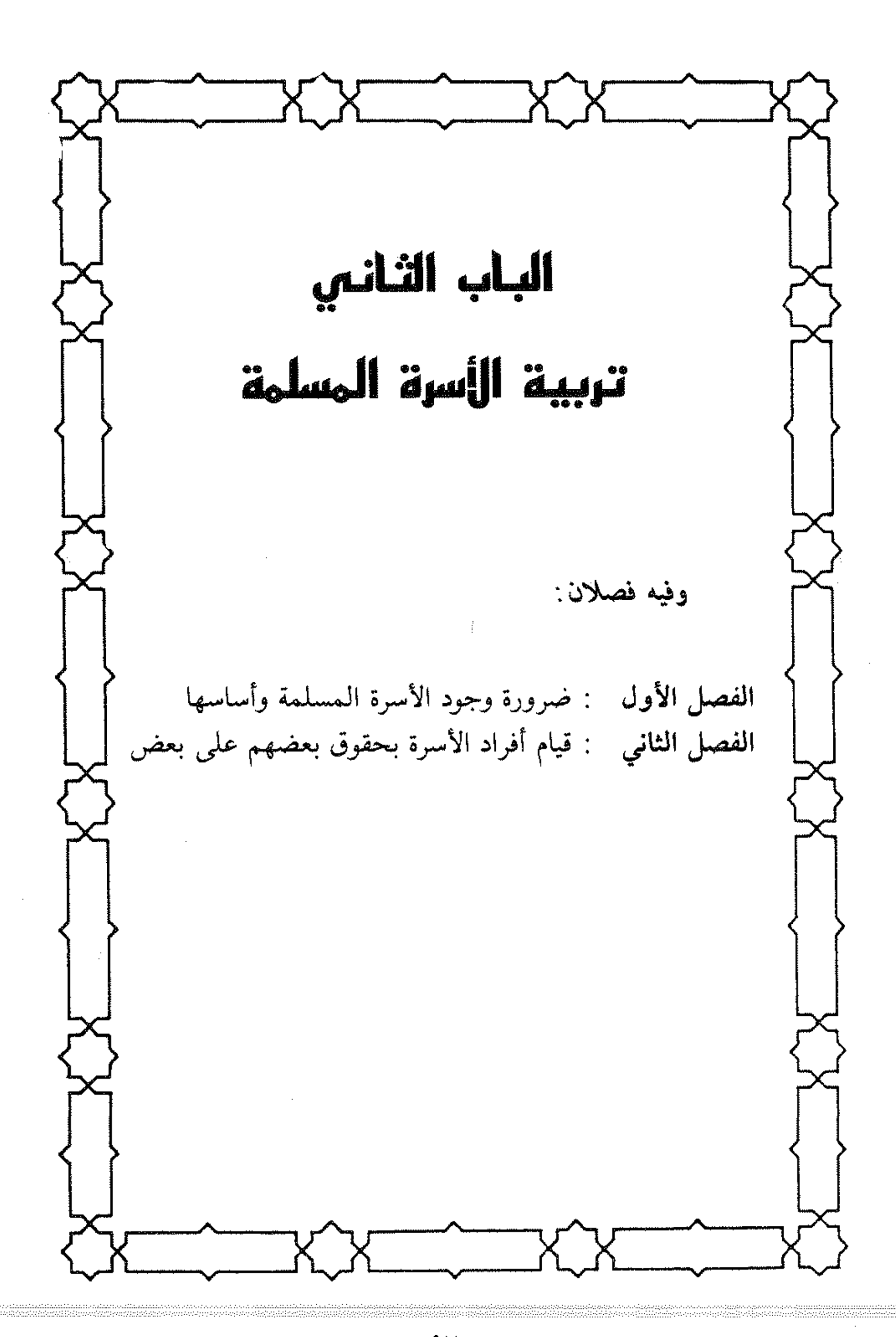
ومن تتبع منهاج حيـاة المسلم الذي شـرّعه الله تعـالى له سـواء فيما يتعلق بصلته بربه أم صلته بالآخرين وجـد أنه لا يـوجد للمسلم فـراغ يرتكب فيـه ما حرم الله أو يترك ما أمر الله به[1].

ويشمل ذلك قلب الإنسان وعقله وجسمه[2].

---

(١) راجع إن شئت قسم الجهاد المعنـوي في الفصل الثـاني من الباب الأول من كتـاب للمؤلف بعنوان: الجهاد في سبيل الله، حقيقته وغـايته (١/٢٧٤ - ٤٣٧)، الـطبعة الأولى، نشـر دار المنارة في جدة.

(٢) راجع بحث ضرورة حفظ العقل في كتابنا الإسلام وضرورات الحياة. وكذا الجهاد في سبيل الله (١/٤٣٨ - ٤٧٣).



الباب الثاني

تربية الأسرة المسلمة

وفيه فصلان:

الفصل الأول : ضرورة وجود الأسرة المسلمة وأساسها

الفصل الثاني : قيام أفراد الأسرة بحقوق بعضهم على بعض

الفصل الأول:

ضرورة وجود الأسرة المسلمة، وأساسها

وفيه مبحثان:

المبحث الأول : ضرورة وجود الأسرة المسلمة

المبحث الثاني : أساس بناء الأسرة المسلمة



المبحث الأول:
ضرورة وجود الأسرة المسلمة

إن النظام الأسري هو القانون الفطري العام للمخلوقات فالحيوانات العجماء تقوم حياتها على الأسرة بفطرتها التي فطرها الله تعالى عليها، ولذا تجد الأنثى من الحيوان إذا ولدت، حبست نفسها على ولدها، تحرسه وتغذّيه بالوسيلة التي فطرها الله عليها وأتاحها لها، وتنظّف جسمه، وإذا كان في حاجة الى مكان أمين يحتمي به من العاديات صنعت له ذلك صنعاً عجيباً يناسبه، كالعش الذي تستمر الطيور مدة طويلة في تجميع مواده وبنائه، وقد يكون المناسب له جحراً في الأرض، أو شقاً في الصخور، أو ثقباً في الأشجار، فتجد كل حيوان يضع أولاده في المكان المناسب له.

وهكذا تجد الحيوانات تسير أسراً ومجتمعات تتكون من تلك الأسر، وقد تتصارع فيما بينها، ولكنها تشكّل جبهة واحدة ضد الحيوانات الأخرى التي تعتدي عليها من غير جنسها، وهذا أمر فطري يدركه الإنسان في الحيوانات الأليفة والمتوحشة، في الطيور والوحوش وجميع الدواب.

وهو ـ أي النظام الأسري ـ أشد ضرورة للناس من الحيوانات الأخرى، لا سيما لرعاية الطفل الذي تطول مدة طفولته أكثر من الحيوانات بكثير، وحاجته الى الرعاية والعناية أشدّ، كما أن الإنسان لا تستقيم حياته بدون أسرة، يعرف فيها الأب والأم والقريب، من ابن وأخ وجد وغيرهم ليحصل التكافل بينهم، ولهذا كان النسب من الضرورات التي اتفقت عليها الأمم، وإن خرج بعضها على ذلك شذوذاً وجنوحاً.

وإذا كان قد وجد في الأناس من شذّ عن هذه الفطرة بوضع تصور يدعو فيه الى عدم اعتبار ضرورة الأسرة فإن ذلك لا يؤثر في أمر تواطأت عليه الأجيال، وإذا فسدت فطر بعض المخلوقين فساداً كاملاً وشبهه فشذوا عن غيرهم، فالخلل يبقى محصوراً فيهم لفساد فطرهم.

وإذا كان نظام الأسرة وقانونها ضرورة للبشر كلهم، فإن كونه ضرورة للمسلمين أشدّ ضرورة، لأن الاسلام جاء لتثبيت ما فطر الله عليه الخلق وتأصيله ورعايته. وقد بُني على نظام الأسرة أحكام وتشريعات ضرورية لا تؤدّي تلك الأحكام والتشريعات إلا بوجود الأسرة ورعايتها وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية التي وضعت قواعد معينة محكمة لقيام الأسرة.

وكثير من أبواب الفقه الاسلامي وضع للعناية بتلك الأحكام كالنكاح والطلاق والرجعة، والعدة، والحضانة، والرضاعة، والولاية، والنسب، وغيرها، فوجود الأسرة المسلمة هو ضرورة شرعية الى جانب كونه ضرورة فطرية.

ولذا تجد في القرآن سوراً تكثر فيها أحكام الأسرة كما في سور: البقرة، والنساء، والنور، والأحزاب، والمجادلة، والطلاق، وغيرها من السور التي لا تخلو غالباً من ذكر ما يتعلق بالأسرة، من أب أو أم أو زوج أو امرأة أو غير ذلك.

قال سيد قطب رحمه الله: «نحن في هذا الدرس[1] مع جانب من دستور الأسرة، جانب من التنظيم للقاعدة الركينة التي تقوم عليها الجماعة المسلمة، ويقوم عليها المجتمع الإسلامي، هذه القاعدة التي أحاطها الإسلام برعاية ملحوظة واستغرق تنظيمها وحمايتها وتطهيرها من فوضى الجاهلية جهداً كبيراً، نراه متناثراً في سور شتى من القرآن، محيطاً بكل المقومات اللازمة لإقامة هذه القاعدة الأساسية الكبرى... وينبثق نظام الأسرة في الإسلام من معين الفطرة وأصل الخلقة وقاعدة التكوين الأولى للأحياء جميعاً وللمخلوقات كافة، تبدو هذه النظرة واضحة في قوله تعالى: ﴿**ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون**﴾[2] ومن قوله سبحانه: ﴿**سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون**﴾[3]. ثم تتدرج النظرة الإسلامية للانسان فتذكر النفس الأولى التي كان منها الزوجان، ثم الذرية، ثم البشرية جمعاء: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها**

---

(١) وهو يتفيأ في ظلال آيات سورة البقرة من آية ٢٢١ ـ ٢٤٢.

(٢) سورة الذاريات: ٤٩. (٣) سورة يس: ٣٦.

زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيباً﴾[1] ﴿يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾[2].

والأسرة هي المحضن الطبيعي الذي يتولى حماية الفراخ الناشئة ورعايتها وتنمية أجسادها وأرواحها، وفي ظله تتلقى مشاعر الحب والرحمة والتكافل... والطفل الإنسان هو أطول الأحياء طفولة، تمتد طفولته أكثر من أي طفل آخر للأحياء الأخرى، وذلك أن مرحلة الطفولة هي فترة إعداد وتهيؤ وتدريب للدور المطلوب من كل حي باقي حياته.

ولما كانت وظيفة الإنسان هي أكبر وظيفة ودوره في الأرض هو أضخم دور امتدت طفولته فترة أطول ليحسن إعداده وتدريبه للمستقبل، من ثم كانت حاجته لملازمة أبويه أشد من حاجة أي طفل لحيوان آخر، وكانت الأسرة المستقرة الهادئة ألزم للنظام الإنساني وألصق بفطرة الإنسان وتكوينه ودوره في هذه الحياة.

وقد أثبتت التجارب العلمية أن أي جهاز آخر غير جهاز الأسرة لا يعوض عنها ولا يقوم مقامها. بل لا يخلو من أضرار مفسدة لتكوين الطفل وتربيته...»[3].

قلت: وفي العناية الربانية بنظام الأسرة وأحكامها في القرآن العظيم في سور شتى، منه الدلالة الواضحة على أن الأسرة في الإسلام هي أصل المجتمع الإسلامي وجذره، وأنه لا يقوم هذا المجتمع بدونها[4].

---

(١) سورة النساء: ١ (٢) سورة الحجرات: ١٣.

(٣) في ظلال القرآن (٢/ ٢٣٤ - ٢٣٥) وراجع العدالة الاجتماعية أيضاً لسيد قطب نفسه ص ٦٥ - ٦٦.

(٤) وراجع مطالب حفظ النسل من كتابنا: الإسلام وضرورات الحياة.

المبحث الثاني:
الأساس في بناء الأسرة المسلمة

إن الأسرة المسلمة الصالحة التي تربى أفرادها بالتربية الاسلامية التي تثمر في نفوسهم الأمن والاطمئنان والسكينة والحب، لا سبيل الى وجودها إلا بوجود زوجين صالحين تربّى كل منهما على العلم النافع والعمل الصالح، ولهذا كان الواجب الأول عند إرادة الزواج أن يبحث الزوج الصالح عن المرأة الصالحة ذات الدين، وأن يختار الولي المسلم للمرأة الصالحة الزوج الصالح، حتى يسكن كل منهما الى الآخر، وتتحقق بينهما المودّة والرحمة، وينشأ أولادهما على التقوى والخلق الفاضل، كما قال سبحانه وتعالى: **﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾**[1].

وإذا كانت هذه المعاني المذكورة قد توجد بين زوجين مسلمين أو غير مسلمين، لالتقائهما على الفطرة التي اقتضتها حكمة الله في الذكر والأنثى، فإنها توجد في المسلمين بحدها الأعلى، لاجتماع الفطرة الغريزية والتوجيه الربّاني فيهما.

ومن أولى صفات المرأة المسلمة الصلاح وما يتبعه من عبادة وحفظ لحقوق الزوج والأولاد، قال تعالى: **﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾**[2].

وقد أجمل الله سبحانه صفات المرأة الصالحة في أعلى صورها في هذه الآيات التي وجّه إليها نساء النبي ﷺ، وهن قدوة نساء المؤمنين، كما قال تعالى: **﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتّعكن وأسرّحكن سراحاً جميلاً، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً، يا نساء النبي من يأت**

---

(١) سورة الروم: ٢١ (٢) سورة النساء: ٣٤.

منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقاً كريماً، يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتّقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً وقرن في بيوتكن ولا تبرّجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً، واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً، إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذّاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾[1].

إن كل ما ذكر من صفات الخير التي وجّه الله إليها نساء نبيه في هذه الآيات هي مطلوبة من نساء المؤمنين كلهن، وإن كان طلبها من نساء الرسول ﷺ آكد وأوجب، لما خصهن الله به من الفضل على غيرهن، من وجودهن في بيت رسول الله ﷺ: حيث ينزل عليه جبريل بالوحي، وهو يعلمهن ويزكيهن، ويعمل بأوامر الله تعالى أمامهن، فهو قدوة لهن ملاصق لهن أكثر من غيرهن.

وكذلك كل الصفات التي حذّر الله منها نساء النبي ﷺ، فغيرهن من نساء المؤمنات داخلات في ذلك التحذير، وإن كان أشدّ في حق نساء النبي ﷺ لما مضى.

وإن الآية الأخيرة قد جمعت الصفات الأساسية لجميع المسلمين رجالاً ونساءً، فهي تبيّن الصلاح المطلوب شرعاً في الأسرة المسلمة.

وقد نهى الله تعالى أن ينكح المسلم مشركة، أو أن تنكح المسلمة مشركاً، حرصاً على بناء الأسرة المسلمة، لأن المشركين من أهل النار ويدعون إليها، والمسلمين من أهل الجنة ويدعون إليها، تحقيقاً لدعوة الله إليها.

---

(١) سورة الأحزاب: ٢٨ ـ ٣٥.

وأباح سبحانه وتعالى عند الضرورة أن يتزوج المسلم الحر أمة مؤمنة، وإن كان في ذلك رق أولاده منها، فهي مفسدة تهون في جانب مفسدة الزواج بمشركة، لأن رق الأولاد اذا تزوج بأمة مؤمنة رق حسي، لأنهم في عبوديتهم لربهم سبحانه وتعالى أحرار من عبوديتهم لغيره، بخلاف أولاد المشركة، فقد يكونون أحرار حسياً وأرقاء في واقع الأمر رقاً ذليلاً لغير الله تعالى إذا ما هي أفسدتهم بالشرك.

كما أباح سبحانه زواج المرأة المسلمة الحرة بالعبد المؤمن إذا لم تجد مسلماً حراً، قال تعالى: ﴿**ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون الى النار والله يدعو الى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون**﴾[1].

ولهذا رجح بعض الفقهاء والمفسرين عدم جواز نكاح المسلم العفيف المسلمة الزانية إلّا إذا تابت من ذلك، مستدلين بقوله تعالى: ﴿**الزاني لا ينكح إلّا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلّا زان أو مشرك وحُرّم ذلك على المؤمنين**﴾[2]. وهو الراجح في مذهب الحنابلة[3].

ويرى الأئمة الثلاثة ـ أبو حنيفة ومالك والشافعي ـ رحمهم الله جواز نكاحها قبل التوبة، وحملوا النكاح في الآية على أن المراد به الوطء بزنا[4].

والذي يظهر من قواعد الشريعة ونصوصها أنه لا يجوز نكاح الزانية قبل التوبة من الفاحشة «لأنها إذا كانت مقيمة على الزنا لم يأمن أن تلحق به ولد غيره وتفسد فراشه...»[5].

ومهما يكن الخلاف في هذه المسألة، فإن السنّة قد أكدت اختيار المرأة الصالحة، وهي ذات الدين، وإذا أطلق هذا اللفظ «الدين» في الشرع فالمراد

---

(١) سورة البقرة: ٢٢١ (٢) سورة النور: ٣.

(٣) راجع المغني لابن قدامة (٧/١٤٠ ـ ١٤٢).

(٤) المرجع السابق نفسه (٧/١٤١)، والتفسير الكبير للرازي (٢٣/١٥١) ورجّح ذلك ابن جرير الطبري في تفسيره (١٨/٧٥).

(٥) المغني (٧/١٤١).

به التقوى والصلاح والورع والإحسان الذي يعبد صاحبه ربه كأنه يراه.

روى أبو هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[1].

وجعل ﷺ المرأة الصالحة خير متاع الدنيا، كما في حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، قال: «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»[2].

وأهل الفطر السليمة والعفة لا يرغبون في نكاح الزواني الفاسقات، ويتركون الصالحات»[3].

والمرأة الصالحة خير كنز للمرء، لما فيها من صفات الخير العائدة عليه بالبركة في حياته، كما في حديث عمر، رضي الله عنه، وفيه: «ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة: إذا نظر إليها سرّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته»[4] ثلاث صفات في المرأة الصالحة جمعت خصال الخير التي تدوم بها المودة وحسن العشرة بين الزوج وامرأته، وهي خير ما يكنز المرء في حياته:

الخصلة الأولى: تجملها له وتزينها وظهورها أمامه بمنظر حسن يسره النظر إليه وهي خصلة تدل على شدة حرصها على إدخال السرور عليه والعناية به، وقد لا تكون مفرطة في الجمال، ولكن تزينها له وحسن هندامها يجعلها أمامه خيراً من المفرطات في الجمال اللاتي لا يعتنين بأزواجهن مثلها.

الخصلة الثانية: المسارعة في طاعة زوجها وتنفيذ رغباته المشروعة، والمؤمن الصالح لا يأمر زوجته بما فيه معصية لله تعالى، ولا شك أن المرأة التي تطيع زوجها ولا تعصيه كنزٌ ثمين غال لا يحصل عليه إلّا من أسعده الله به.

الخصلة الثالثة: حفظ حقوقه في غيبته: في نفسها وأولادها وماله وغيرها، وهذه الخصلة أهم الخصال وأفضلها، لأنها لا توجد إلا في ذات الدين التي

---

(١) البخاري (٦/١٢٣) ومسلم (٢/١٠٨٦). (٢) مسلم (٢/١٠٩٠).

(٣) راجع التفسير الكبير للرازي (٢٣/١٥٠). (٤) أبو داود (٢/٣٠٥، ٣٠٦).

أمر الرسول ﷺ بالظفر بها. فهي المرأة الأمينة على نفسها التي يطمئن الزوج عليها في تربية أولاده، فلا تربيهم إلا على طاعة الله وطاعة الوالدين في غير معصية الله، وتربيهم على الصدق والأمانة وحَسَن الأخلاق، كما يأمنها على نفسها فلا ترتكب محرماً في غيبته عنها ولا تفتح بابه لمن يكره، ولا تدخل في نسبه من ليس منه، ويأمنها على ماله فلا تنفقه فيما حرم الله ولا تبذر بشيء منه.

أي كنز يوازي هذا الكنز من متاع الدنيا، وأي أمن يوازي هذا الأمن المصاحب للإنسان في حياته كلها في منزله الذي لا يفارقه إلا ليعود اليه؟ «إنه خير ما يكنز» كما قال الرسول ﷺ.

قال ابن قدامة، رحمه الله: «ويستحب لمن أراد التزوج أن يختار ذات الدين، لقول النبي ﷺ: «تنكح المرأة لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك» متفق عليه. ويختار الجميلة، لأنه أسكن لنفسه، وأغض لبصره، وأدوم لمودته، ولذلك شرع النظر قبل النكاح...»[1].

وإذا اجتمع الرجل الصالح بالمرأة الصالحة على سنة الله ورسوله وطاعة الله ورسوله بدأ بهما تكوّن الأسرة الصالحة التي هي نواة المجتمع الصالح، حيث ينجب الأولاد ويعنى بتربيتهم جسمياً وعقلياً وروحياً، على هدى من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبالقدوة الحسنة التي يصبغهم بها الوالدان في كل تصرفاتهما، والقدوة التي ينشأ فيها الطفل هي التي تحدد نشاطه وتصرفاته واتجاهاته في مستقبل حياته في الأعم الأغلب، لأن ما ينبت في نفسه وهو صغير، وينمو معه في منزله من أبويه يصبح عادة متمكنة يصعب تغييرها بعد كبره.

لهذا كان الواجب على الوالدين أن تكون تصرفاتهما كلها قدوة حسنة لأولادهما، مع التوجيه النظري والتعليم، فان التعليم لا ينفع إذا كانت القدوة سيئة، فإن الفعل يتمكن في النفس أكثر من القول، لا سيما إذا كان الفعل عادة يشاهدها الطفل في أبويه باستمرار، وتتعاون القدوة السيئة في المنزل،

---

(١) الكافي: (٢/٦٥٩).

مع الأفعال السيئة التي شاهدها الولد في خارج المنزل، فينشأ محباً للشر مبغضاً للخير.

وقد ذكّر الله المسلمين بأهمية القدوة الحسنة. بنبيّهم ﷺ فقال: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً..**﴾[1].

وكان الرسول ﷺ يأمر أصحابه أن يقتدوا بأفعاله في أهم الأعمال وأفضلها، كقوله لهم في الصلاة: «صلوا كما رأيتموني أصلي..»[2] وكان يعلّمهم الصلاة بالفعل مع القول.

وقال لهم في الحج: «لتأخذوا عني مناسككم»[3].

وعندما أمرهم بالإحلال في الحديبية، إذ صدهم المشركون عن الطواف بالبيت، لم تطب نفوسهم حتى أحلّ هو ﷺ فتبعوه[4].

وإذا كانت القدوة مؤثرة في الكبار، فإنها في الصغار أشد تأثيراً، ومن هنا كان واجب الوالدين عظيماً في أن يهتما بأن تكون تصرفاتهما إسلامية ينشأ عليها ولدهما، وإلا كانا سبباً رئيساً في انحرافه بانحرافهما أو انحراف أحدهما، وبخاصة الأم التي لا يفارقها الطفل في أغلب أحيانه.

قال محمد قطب ـ وفقه الله ـ: «ومرة واحدة من القدوة السيئة تكفي، مرة واحدة يجد أمه تكذب على أبيه، أو أباه يكذب على أمه، أو أحدهما يكذب على الجيران... مرة واحدة كفيلة بأن تدمّر قيمة الصدق في نفسه، ولو أخذ كل يوم وساعة يرددان على سمعه النصائح والمواعظ والتوصيات بالصدق، مرة واحدة يجد أمه أو أباه يغش أحدهما الآخر، أو يغشان الناس في قول أو فعل... مرة واحدة كفيلة بأن تدمر قيمة الاستقامة في نفسه، ولو انهالت على سمعه التعليمات، مرة واحدة يجد في هؤلاء المقربين إليه نموذجاً من السرقة كفيلة بأن تدمر في نفسه قيمة الأمانة، وهكذا في كل القيم والمبادىء التي تقوم عليها الحياة الإنسانية السوية.

وقد يغفر الطفل للآخرين أن يكذبوا ويخدعوا ويسرقوا ويغشوا

---

(١) سورة الأحزاب: ٢١ (٢) البخاري (١/١٥٥) (٣) مسلم (٢/٩٤٣).

(٤) البخاري (٣/١٨٢).

ويخونوا. . . أو لا يتأثر به كثيراً، أو لا يتأثر بـه على الإطلاق، إذا كـان يأوي الى ركن ركين من القيم والمبـادىء متمثلة في أبويـه، وخـاصـة حين يبيّن لـه أبواه بالقدر الكافي من الإبانة والتـوضيح أن تلك نمـاذج سيئة لا ينبغي لـه أن يحاكيها، مستندين الى النموذج الطيب الذي يقدمانه هما لـطفلهما. ولكنـه لا يغفر لأبويه أبداً شيئاً من ذلك، ولا يمكن ان يمر شيء منه بغير تأثر عميق في نفسه، وقد يبقى بقية العمر كله لا يتغير.

ومن هنـا كان حـرص الإسلام الشـديد على أن يكـون الأبـوان في ذاتهمـا مسلمين، أي ممارسين لحقائق الإسـلام وقيمه ومبـادئه، وحـرصه على تـربية الناس على منهج الإسلام، لكي يكونوا هم القدوة المباشرة لأبنائهم في الفترة التي ينحصـر عـالم الـطفـل بهم، فتتكـون في نفـوس الأطفـال ـ بـالالتقـاط والمحـاكاة ـ تلك القيم والمبـادىء الإسلاميـة بغيـر جهـد يـذكـر، وتنشأ في نفـوسهم منذ الصغـر، فتكون عميقـة الجذور، ثم يـزيدهـا التعليم رسـوخـاً، ويزيدها المجتمع الإسلامي قوة، حتى يكبر الطفل، فيتلقى التعليم، ثم يكبر أكثر فيحتك بالمجتمع، ويأخذ منه ويعطي.

ومن هنا كذلك كان حرص الرسول ﷺ على توصية الرجـل وهو يتـزوج أن يظفر بذات الدين، فيقول له: «تنكح المرأة لأربـع. . .» (الحديث وقـد سبق مع تخريجه).

«فذات الدين هي الركن الركين في إقـامة البيت المسلم والأسـرة المسلمة وفي تنشئة الأطفال بالقدوة قبـل التلقين على قيم الإسلام ومبـادئه منـذ نعومـة أظفارهم، فتصبح عادة لهم وطبيعة، وتصبح جزءاً من كيانهم ليس من السهل ان يحيدوا عنه، حين تحاول أن تلويهم الأعاصير، وحين توجد القدوة الحسنة متمثلة في الأب المسلم والأم ذات الـدين، فإن كثيـراً من الجهد الـذي يبذل في تنشئـة الطفـل على الإسلام يكـون جهـداً ميسـراً وقـريب الثمـرة في ذات الوقت لأن الطفل سيتشرب القيم الإسلامية من الجو المحيط به تشرباً تلقائياً، وستكون تصرفات الأم والأب أمامـة في مختلف المواقف مـع بعضهما البعض ومـع الآخرين، نمـاذج يحتذيهـا ويتصرف على منـوالهـا. . .»[1] إن هـذا هـو أساس الأسرة المسلمة: الزوجان المسلمان.

---

(١) منهج التربية الاسلامية (٢/١١٨).

الفصل الثاني:
حقوق أفراد الأسرة بعضهم على بعض

وفيه مقدمة وسبعة مباحث:

المبحث الأول : حقوق الوالدين على الأولاد
المبحث الثاني : حقوق الزوج على المرأة
المبحث الثالث : حقوق المرأة على الزوج
المبحث الرابع : حقوق الأولاد على الآباء
المبحث الخامس : حقوق السادة على العبيد
المبحث السادس : حقوق العبيد والخدم
المبحث السابع : العدل الأُسري



مقدمة

إن الأسرة في المنزل صورة مصغّرة للمجتمع، فيه أفراد لهم حاجات وحقوق، وعليهم واجبات، وفيهم الكبير الذي يعتبر أميراً والصغير الذي يعتبر مأموراً، وفيهم من له فضل على غيره ويدٌ على سواه، وفيهم القوي القادر والضعيف العاجز، وفيهم العالم البصير، والجاهل الأعمى، فيهم القدوة الحسنة السابق في أعمال الخير، وفيهم الفاجر القاعد عن ركب الصالحين، وفيهم المقتصد الذي يؤدي الفرض ويترك الحرام ويكسل عن المندوب وينشط لفعل المكروه، وفيهم العدل وفيهم الظالم وفيهم القنوع الذي يكفيه اليسير، وفيهم الجشع الذي لا يشبع من الكثير.

لهذا كانت عناية الإله الحكيم العليم سبحانه بشئون الأسرة في كتابه الكريم، وفي سنّة سوله ﷺ، وتوفيق الله لعلماء الإسلام الذي عنوا بالأسرة عناية فائقة، فانبثقت عن الكتاب والسنة ـ في هذا الباب ـ مؤلفات كثيرة، إما في كتب مستقلة بشئون الأسرة، أو ببعض الأحكام المتعلقة بها، كالزواج والطلاق، والرضاع، والحضانة، والنفقة، وحقوق الآباء، وحقوق الأولاد، وأحكام الجنين، والميراث، وإما في أبواب وفصول ضمن كتب الفقه الكثيرة في المذاهب الفقهية.

وقد تحتاج الأسرة من يعاونها في الخدمة، فيدخل فيها الأجير الذي يحتك بهم، وقد يكون لبعض الأسر عبيد، ويكون للأسرة على عبيدهم وأجرائهم حقوق، كما يكون للعبيد والأجراء على السادة والمستأجرين حقوق.

وكل ذلك قد عنيت به الشريعة الإسلامية غاية العناية وإن تلك الأحكام والتوجيهات لو أخذت بها أغلب أسر المسلمين لتكوّن منها المجتمع الإسلامي تلقائياً بدون عناء ولا مشقّة من خارج الأسر إلا التوجيه العام الذي يتلقاه الجميع بالترحاب والتنفيذ.

وما أصعب أن يتعرض مؤلف، مثلي، يريد أن يشير إشارات سريعة إلى

أبـواب متفرقـة من أبواب الشـريعـة الإسـلاميـة يتحقق بهـا الغـرض من هـذا الكتاب، وهو الأمن والاستقـرار والحياة الـطيبة في الـدنيا، والفـوز برضـا الله وثـوابه في الآخـرة، ما أصعب أن يتعـرض لتلك الأبواب الكثيـرة المتفرعـة، ومنهـا شئون الأسـرة، لهذا سـأكتفي في هذا الفصـل بالكـلام على المبـاحث المهمة منه، مع الاختصار المناسب.

وأسأل الله عونه وتسديده.

المبحث الأول:
في حقوق الوالدين

إن الوالدين هما السبب المادي المباشر في وجود الولد، والذي يكون سبباً في وجودك يكون حقه عليك أعظم من حق غيره.

ولعلّ ذلك يظهر شيئاً من الحكمة في أن الله تعالى قرن حق الوالدين بحقه تعالى في القرآن العظيم، كما قال تعالى: **﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً﴾**[1] وقال تعالى: **﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾**[2] وقال عزّ وجلّ: **﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾**[3] وقال جلّ وعلا: **﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحساناً إما يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾**[4].

فقد أمر الله تعالى بحقه وهو عبادته، ونهى عما يضاده، وهو الشرك به كما أمر بحقوق الوالدين، وهو برّهما، ونهى عما يضاده، وهو عقوقهما، وبدأ تعالى بحقه لأنه الاله الخالق الذي أوجد السبب والمسبّب، ثم ذكر حقوق الوالدين، لأنهما السبب الذي أوجده الله ليكون مصدراً للأولاد.

وقد أشار سبحانه وتعالى في آيات أخرى الى بعض معاناة الوالدين وقيامهما على الأولاد، وأن على الولد ان يشكر الله على ما هيأه له من تحمل الوالدين مشاق القيام بحقه في صغره، ويشكرهما كذلك وأن يجزيهما على تعبهما، قال تعالى: **﴿ووصّينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير﴾**[5] وقال تعالى: **﴿ووصّينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله**

---

(١) سورة البقرة: ٨٣. (٢) سورة النساء: ٣٦ (٣) سورة الأنعام: ١٥١.
(٤) سورة الإسراء: ٢٣، ٢٤. (٥) سورة لقمان: ١٤.

وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين، أولئك الذين نتقبل منهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون. والذي قال لوالديه أفٍّ لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إنّ وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين أولئك الذين حقّ عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين﴾[1].

فتعب الوالدة بحمله ورضاعه، والسهر على راحته والعناية به. وقيام الأب بتربيته وتعليمه وجلب رزقه وغير ذلك مما يقومان به يوجب عليه أن يشكرهما وأن يؤدي حقهما من البرّ والصلة والخدمة والرحمة وإظهار الفرح والسرور بهما، لا سيما إذا كانا في حاجة الى خدمته وعنايته بهما في كبرهما، فإنهما قد يصلان إلى حالة من العجز في الكبر تشبه حالته عندما كان صغيراً، وقد قام بحقه وقت عجزه، فعليه أن يقوم بحقهما بدون تضجّر ولا تأفّف ولا تقذّر، وبدون طلب منهما، بل يبادر هو بذلك، كما كانا هما لا يتقذران من أوساخه: بوله وغائطه وبصاقه وقيئه وغير ذلك، عليه أن يتذكر ذلك فيردّ الجميل إليهما على أكمل وجه ويعلم أن القيام بحقوقهما عبادة لله، ولو لم يقوما بشيء من العناية به في صغره، فكيف وقد اجتمع لهما ردّ الجميل وواجب أداء الحق الذي أمر الله تعالى به.

ولما كان جهد الأم وتعبها على الولد أكثر من جهد الأب، كان حقها عليه أعظم، كما أشارت الى ذلك آيتا لقمان والأحقاف السابقتان: **﴿حملته أمه وهناً على وهن﴾ ﴿حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً﴾**وفسّر ذلك الرسول ﷺ، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء رجل الى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»[2].

---

(١) سورة الأحقاف: ١٥ ـ ١٨.

(٢) البخاري: (٦٩/٧) ومسلم (١٩٧٤/٤).

ودعا الرسول ﷺ على من أدرك والديه فلم يبرّهما برّا يدخله الجنة، كما في حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك والديه عند الكبر، أحدهما أو كليهما، ثم لم يدخل الجنة»[1].

وجعل ﷺ ولد الرجل من كسبه، وجعله هو وماله لأبيه، بياناً لعظم حقه عليه، كما في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ أتاه رجل، فقال: يا رسول الله، إن لي مالاً ووالداً، وإن والدي يجتاح مالي[2] قال: «أنت ومالك لوالدك، وإن أولادكم من أطيب كسبكم، فكلوا من كسب أولادكم»[3].

لكن بعض العلماء قيّد أخذ الوالد بما شاء من مال ولده بأن لا يجحف بولده ويدعه محتاجاً، قال ابن قدامة رحمه الله: «وللأب أن يأخذ من مال ولده ما شاء مع غناه وحاجته بشرطين: أحدهما أن لا يجحف بالإبن ولا يأخذ ما تعلقت به حاجته، الثاني أن لا يأخذ من مال أحد ولديه فيعطيه الآخر، لأن تفضيل أحد الولدين غير جائز، فمع تخصيص الآخر بالأخذ منه أولى. فإذا وجد الشرطان جاز الأخذ»[4].

ولعظم حق الوالدين قدم الله تعالى برّهما على الجهاد في سبيل الله - إذا لم يتعين - كما في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما، قال: جاء رجل الى رسول الله ﷺ، فاستأذنه في الجهاد، قال: «أحيّ والداك؟» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد»[5].

وحمل العلماء النهي عن جهاد الابن بدون إذن أبويه على ما إذا كان الجهاد لفرض كفاية - أي قام به من يكفي - أما إذا كان فرض عين فان عليه

---

(١) مسلم (١٩٧٨/٤).

(٢) أي يأتي عليه ويستأصله.

(٣) أبو داود (٣/٨٠١ - ٨٠٢) وابن ماجة (٧٦٩/٢) قال المحشى على جامع الأصول (٣٩٩/١): «وأخرجه احمد... وإسناده حسن... وصحّحه البوصيري وابن القطان، وقال ابن المنذر: رجاله ثقات... الى أن قال -: قال الحافظ في الفتح: فمجموع طرقه لا تحطه عن القوة وجواز الاحتجاج به» أهـ.

(٤) الكافي: (٤٧١/٢).

(٥) البخاري (٦٩/٧) ومسلم (١٩٧٥/٤).

ان يجاهد أذنا له أو لم يأذنا، كغيره من ذوي الأعذار، مثل العبد والمرأة ونحوهما، وفي المسألة تفصيل ليس هذا موضعه[1].

لكن ابن حزم، رحمه الله قيّد مشروعية جهاد الإبن بدون إذن والديه إذا كان الجهاد فرض عين بما إذا لم يكن في ذلك ضياع لهما، فان كان فيه ضياع لهما لم يجز له الجهاد ولو كان فرض عين، قال: «إلاّ أن يضيعا أو أحدهما، فلا يحل له ترك من يضيع منهما»[2].

ومما ينافي برّ الوالدين أن يدعهما أو أحدهما يمتهنان في خدمة الناس للحصول على نفقتهما، ولو كانا قادرين، ما دام يستطيع الإنفاق عليهما وعزهما، قال ابن القيم، رحمه الله: «فليس من برّ الوالدين أن يدع الرجل أباه يكنس الكنف، ويكاري عل الحمر، ويوقد في أتّون الحمام، ويحمل الناس على رأسه ما يتقوّت بأجرته، وهو في غاية الغنى واليسار وسعة ذات اليد، وليس من برّ أمه أن يدعها تخدم الناسَ وتغسل ثيابهم وتسقي لهم الماء ونحو ذلك، ولا يصونها بما ينفقه عليها، ويقول: الأبوان مكتسبان صحيحان، وليسا بزمنين ولا أعميين، فيالله العجب! أين شرط الله ورسوله في بر الوالدين وصلة الرحم أن يكون أحدهما زمناً أو أعمى؟ وليست صلة الرحم ولا برّ الوالدين موقوفة على ذلك شرعاً ولا لغة ولا عرفاً. . »[3].

وفي ايجاب الله تعالى بر الوالدين وإعطائهما هذه الحقوق على الأولاد أمن لكل أب أو أم لهما ولد بأن يعيشا عيشة طيبة تحت رعايته لهما، ويزيد من أمنهما واطمئنانهما أن ذلك ليس من باب التطوع من الولد عليهما، بل هو واجب مفروض عليه من الله سبحانه وتعالى، فلا منّة له عليهما بما يقوم به من برّهما.

وإن الذي يقارن بين هذا الحق الذي شرعه الله تعالى للوالدين في الإسلام ـ ولو كانا كافرين، فان على ولدهما المسلم أن يبرهما ويحسن إليهما

---

(١) راجع بدائع الصنائع للكاساني (٩/٤٣٠٠) وتكملة المجموع (١٨/٥٧) وحاشية الدسوقي (٢/٧٥) وراجع كتابنا: الجهاد في سبيل الله، حقيقته وغايته (١/٩٠ ـ ٩٢).

(٢) المحلى: (٧/٢٩٢)

(٣) زاد المعاد (٥/٥٥١).

كالأبوين المسلمين[1] ـ الذي يقارن بين هذا وبين ما يعانيه الآباء والأمهات في دول الكفر من العقوق والإهمال في جميع الحقوق لا سيما حالة ضعف الوالدين، يرى رحمة الله وحكمته ومحاسن شريعته، فأي الفريقين أحق بالأمن؟!

ولقد شرع الله في بر الوالدين ما لم يخطر على بال واضعي الأنظمة البشرية، لقد جعل من أبر بر الوالدين صلة من له قرابة بصديقهما بعد موتهما، كما جاء عن ابن عمر، رضي الله عنهما، انه كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروّح عليه إذا ملّ ركوب الراحلة، وعمامة يشد بها رأسه، فبينما هو يوماً على ذلك الحمار، إذ مرّ به أعرابي، فقال: ألست ابن فلان؟ قال: بلى، فأعطاه الحمار، فقال: اركب هذا، والعمامة، وقال: اشدد بها رأسك، فقال له بعض أصحابه: غفر الله لك. أعطيت هذا الأعرابي حماراً تروح عليه، وعمامة كنت تشد بها رأسك؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود وأبيه، بعد أن يولى، وإن أباه كان وداً لعمر»[2].

(١) ما لم يأمراه بمعصية، فإن أمراه بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.
(٢) مسلم (١٩٧٩/٤).

المبحث الثاني:
حقوق الزوج على المرأة

وفيه اثنا عشر مطلباً

المطلب الأول : تعظيم حقه عليها
المطلب الثاني : وجوب طاعتها له في غير معصية الله
المطلب الثالث : وجوب ابتعادها عما يؤذيه
المطلب الرابع : وجوب قرارها في بيته وعدم خروجها بدون إذنه
المطلب الخامس : عدم إذنها لأحد في بيته بدون رضاه
المطلب السادس : عدم صومها تطوعاً بدون إذنه
المطلب السابع : تربية أولاده تربية إسلامية
المطلب الثامن : اعترافها بإحسانه وعدم إنكار نعمته
المطلب التاسع : حفظ ماله وعدم التفريط فيه
المطلب العاشر : عدم تمكينها أجنبياً من الخلوة بها
المطلب الحادي عشر: مواساته وإدخال السرور عليه
المطلب الثاني عشر: تسليمها بإمرته للأسرة في حدود ما شرعه الله

تمهيد

لقد جمع رسول الله ﷺ المسئولين كلهم في حديث واحد من جوامع كلمه، بحيث ذكر أعظم مسئول في المجتمع الإسلامي، وأصغر مسئول فيه، وما بينهما، كما في حديث عبدالله بن عمر، رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ألا كلّكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده، وهي مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع ومسئول عن رعيته»[1].

فقد قسم الرسول ﷺ المسئوليات العامة والخاصة في هذا الحديث، فذكر أعلى أصناف الناس في أول من ذكر، وأدناهم في آخر من ذكر، وأوساطهم فيما بين ذلك، فالمقصود من الحديث استغراق كل أفراد المسلمين بذكر أعلاهم وأوساطهم وأدناهم[2].

والمقصود هنا ذكر بعض الحقوق التي يجب أن يرعاها كل فرد من أفراد الأسرة لمن هو مسئول عنه.

---

(١) البخاري (١٠٤/٨) ومسلم (١٤٥٩/٣).

(٢) راجع رسالة للمؤلف بعنوان: المسئولية في الإسلام، الطبعة الثانية.

المطلب الأول:
تعظيم حق الزوج على زوجته

وقد ورد في ذلك نصوص كثيرة منها حديث قيس بن سعد رضي الله عنه، قال: أتيت الحيرة، فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فقلت: رسول الله ﷺ أحق أن يسجد له، فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: أتيت الحيرة، فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فأنت أحق أن يسجد لك، فقال لي رسول الله ﷺ: «أرأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له؟» فقلت: لا، فقال: «لا تفعلوا، لو كنت آمراً أحداً ان يسجد لأحد لأمرت النساء ان يسجدن لأزواجهن، لما جعل الله لهم عليهن من حق»[1].

ومثله حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها»[2].

ففي هذين الحديثين الشريفين وما جاء في معناهما بيان عظيم لحق الزوج على المرأة، وأنها يجب أن تجتهد في أداء حقوقه بكل ما تقدر عليه وأن تسعى لرضاه فيما لا معصية لله فيه، ومنه ما أشار إليه الرسول ﷺ ممثلاً له بأفحش الذنوب، وهو عبادة غير الله، لأن السجود لا يجوز إلا لله سبحانه، إلا أنه لو فرض أنه يجوز أن يؤدى لأحد لكان الزوج جديراً به من قبل امرأته، لما له عليها من حق عظيم، وذلك لأن الزوج يعفّ امرأته ويكرمها ويجعلها ربة لبيته، لها منزلتها في الأسرة، يأتمنها على ماله وولده وعرضه، ويسعى في جلب الرزق لها ولأولادها، ويدفع عنها وعنهم العوادي التي يقدر على دفعها، وغير ذلك مما تشعر معه المرأة بالراحة والأمن والاطمئنان.

---

(١) أبو داود (٢/٦٠٤ ـ ٦٠٥).

(٢) الترمذي (٣/٤٥٦) وقال: حديث أبي هريرة حديث حسن غريب من هذا الوجه، وذكر أن تسعة من الصحابة رووه بهذا المعنى غير أبي هريرة. وقال المحشي على جامع الأصول (٦/٤٩٤) على حديث قيس: يشهد له الأحاديث التي قبله فهو حديث حسن.. وقال في حديث أبي هريرة: حديث صحيح له شواهد بمعناه.

المطلب الثاني:
طاعتها لأمره في غير معصية الله تعالى

ويدل على ذلك الحديثان السابقان وغيرهما، كحديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي النساء خير؟ قال: «التي تسرّه إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره»[1].

ويتأكد وجوب طاعته في دعوته إياها إلى فراشه، حتى إن الملائكة لتعلنها ليلتها إذا بات زوجها غاضباً عليها، كما في حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح»[2].

المطلب الثالث:
وجوب ابتعادها عما يؤذيه

ويكفي ان نذكر في هذا المطلب حديثين واضحي الدلالة على خسارة المرأة التي تؤذي زوجها وتغضبه:

الحديث الأول: عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلّا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه، قاتلك الله، فإنما هو دخيل عندك، يوشك أن يفارقك إلينا»[3].

الحديث الثاني: عن أبي أمامة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم: العبد الآبق، حتى يرجع، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وإمام قوم وهم له كارهون»[4].

---

(١) النسائي (٦/٥٦) قال المحشى على جامع الأصول (٦/٤٩٨): ورواه أحمد، وإسناده حسن.

(٢) البخاري (٦/١٥٠) ومسلم (٢/١٠٥٩).

(٣) الترمذي (٣/٤٦٧ ـ ٤٦٨) وقال: «هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه الا من هذا الوجه».

(٤) الترمذي (٢/١٩٣) وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وعلّق عليه أحمد محمد شاكر، فقال: بل هو حديث صحيح...

المطلب الرابع:

وجوب قرارها في بيته وعدم خروجها بدون إذنه

سبق قول الرسول ﷺ: «والمرأة راعية على أهل بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها» في التمهيد الذي سبق المطلب الأول من هذا المبحث: وفي الحديث إشارة الى ما تقرر في نصوص الشريعة من أن الأصل في حق المرأة القرار في البيت، والخروج منه خلاف ذلك الأصل، يباح عند الحاجة بقدرها، فإذا انتهت الحاجة رجعت الى ما هو الأصل في حقها، وهو القرار في البيت، وقد أمر الله تعالى نساء النبي ﷺ بالقرار في بيوتهن، وجعل ذلك من وسائل تطهيرهن من الذنوب والمعاصي، والأصل في الأحكام المتعلقة بالنساء أن تستوي فيها كل النساء، من غير فرق بين نساء الرسول ﷺ وغيرهن من نساء المؤمنين، إلا إذا دل دليل خاص على اختصاصهن بحكم معين، مثل كونهن أمهات المؤمنين في حرمة الزواج بهن بعد وفاة رسول الله ﷺ، وايضاً فان الطهر والعفّة والمغفرة مطلوبة لكل النساء، وقد جعل الله قرارهن في البيوت من وسائل الطهر، وايضاً فقد نهاهنّ الله تعالى عن التلبس بصفات نساء الجاهلية الأولى كالتبرج، وهو أمر لا يختص بنساء النبي ﷺ، بل كل المسلمين منهيون ـ رجالاً ونساءً ـ عن الاتصاف بصفات الجاهلية.

قال تعالى: ﴿**وقرن في بيوتكن ولا تبرّجن تبرج الجاهلية الأولى**﴾[1] واتبع ذلك بما لا يختلف فيه اثنان أن ليس من خصائصهن، وهو الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله...، فقال تعالى: ﴿**وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾[1].

وإذا كان الأصل في المرأة أن تقرّ في بيتها، فإنها إضافة الى ذلك لا يجوز لها الخروج منه إلا بإذن زوجها، وقد دل على ذلك أمره ﷺ الرجال أن يأذنوا للنساء في الخروج لصلاة الجماعة في المساجد، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: «إذا استأذنت امرأة أحدكم إلى المسجد فلا يمنعها»[2].

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٣، وراجع كتابنا: المسئولية في الاسلام ص ١٢٥ ـ ١٢٦.
(٢) البخاري (٦/١٦٠) ومسلم (١/٣٢٦ ـ ٣٢٧).

ولو كان للمرأة الحق في الخروج بدون إذن زوجها لما كانت هناك حاجة لنهي الرسول ﷺ عن منعها إذا هي استأذنت بل لا حاجة لاستئذانها، وإذا كان خروجها للعبادة لا بد أن تستأذن فيه، فإن خروجها للأمور المباحة أولى بالاستئذان.

المطلب الخامس:
عدم إذنها لأحد في بيته بدون رضاه

سواء كان من أقربائها أم من أقرباء الزوج، ولو كانوا محارمها، ما عدا أباه، فقد مضى أن ولده من كسبه، وأنه يأخذ من ماله ما شاء - مع الشروط التي ذكرها بعض العلماء - وليس من الجائز له ولا لها منعه من دخول بيت ولده إلا إذا كانت هناك ضرورة شرعية معينة تصدر بها فتوى، وهي - إن حصلت - نادرة.

فقد روى الأحوص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ في حجة الوداع، بعد ان حمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ ثم قال: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوانٍ عندكم ليس تملكون لهن شيئاً غير ذلك، إلاّ أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن»[2].

قال الحافظ المبارك فورى في قوله: «فلا يوطئن فرشكم من تكرهون»: «قال الطيبي: أي لا يأذن لأحد أن يدخل منازل الأزواج» وقال في قوله: «إلا ان يأتين بفاحشة مبينة»: «كالنشوز وسوء العشرة وعدم التعفّف»[3].

---

(١) البخاري (٦/ ١٦٠) ومسلم (١/ ٣٢٦ - ٣٢٧).

(٢) الترمذي (٣/ ٤٥٨) وقال: وهذا حديث حسن صحيح. وابن ماجة: (١/ ٥٩٤).

(٣) تحفة الأحوذي (٤/ ٣٢٦) نشر المكتبة السلفية في المدينة المنورة.

قلت: واذا تقيدت المرأة المسلمة بهذه التوجيهات النبوية فلم توطىء فراش زوجها ولم تدخل أحداً يكره منزله، مع الحقوق الأخرى التي يجب أن تؤديها له فإن الأمن الأسري يصل الى ذروته.

المطلب السادس:
عدم صومها تطوعا بدون إذنه

إن خدمة المرأة زوجها وقيامها بقضاء حاجاته أولى من قيامها بأداء بعض العبادات تطوعاً، كالصوم والحج ونحوهما.

وقد دل على ذلك ـ وعلى ما جاء في المطلب الخامس أيضاً ـ حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، عن محمد رسول الله ﷺ ـ فذكر أحاديث، ومنها ـ: وقال رسول الله ﷺ: «لا تصم المرأة وبعلها شاهد إلّا بإذنه، ولا تأذن في بيته وهو شاهد إلا بإذنه وما انفقت من كسبه من غير أمره فإن نصف أجره له»[1].

المطلب السابع:
تربية أولاده تربية إسلامية. والقيام على شئونهم.

وقد أشار الى ذلك حديث ابن عمر المتقدم[2] في رواية البخاري، حيث قال: «والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده». ولا شك أن أوجب الرعاية وأهمها هي رعاية التربية الإيمانية والسلوكية التي جاء بها القرآن الكريم والسنّة المطهرة وسيرة الرسول ﷺ، ويتبع ذلك الرعاية الجسمية صحية وغذائية ونظافة وغيرها.

ويدخل في ذلك أن تساعده في تربية أولاده من غيرها إذا ماتت أمهم أو طلقت وهم في سن يحتاجون فيها الى الرعاية، وكذلك إخوانه وأخواته الصغار، إذا كانوا بلا أم، وقد شمل ذلك كله قوله ﷺ في الحديث السابق: «والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده» كما يدخل فيه بعض أقاربه الذين يجب أن يسعى هو في رعايتهم، كأمّه العجوز وأبيه.

ومما يدل على ذلك حديث جابر بن عبدالله، رضي الله عنهما، وفيه قال

---

(١) البخاري (٦/١٥٠) ومسلم (٢/٧١١). (٢) انظر التمهيد في أول هذا المبحث.

له رسول الله ﷺ: «هل تزوجت بكراً أم ثيباً؟» قلت: تزوجت ثيباً، فقال: «هلا تزوجت بكراً تلاعبها وتلاعبك؟» قلت: يا رسول الله، توفى والدي أو استشهد، ولي أخوات صغار، فكرهت أن أتزوج مثلهن، فلا تؤدبهن، ولا تقوم عليهن، فتزوجت ثيّباً لتقوم عليهن وتؤدبهن...»[1].

نعم لا يجب عليها القيام بشئون أبنائه من غيرها أو بعض أقاربه إلا إذا كان شرط ذلك عليها وقبلت، ولكن ينبغي أن تقوم بذلك طواعية واختياراً، فإن لها في نساء أصحاب رسول الله ﷺ قدوة حسنة في الصبر على خدمة أزواجهن التي قد تعاني المرأة منها مشقة، ولكنها تنال بذلك فائدتين:

الفائدة الأولى إرضا ربها في خدمة زوجها، والفائدة الثانية إدخال الأمن والطمأنينة والراحة والمودة بينها وبين زوجها، بما تدخله عليه من السرور والرضا.

فقد حفظ علي رضي الله عنه لزوجه وبنت ابن عمه، فاطمة بنت رسول الله ﷺ قيامها بخدمته وما عانت من تعب ومشقة في ذلك، فحكى ذلك للناس مثنياً عليها به بعد موتها، كما روى أبو الورد بن ثمامة، قال: قال علي لابن اعبد: ألا أحدثك عني وعن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وكانت أحب أهله إليه، وكانت عندي؟ قلت: بلى، قال: إنها جرت بالرحا حتى أثرت في يدها، وكنست البيت حتى اغبرّت ثيابها، فأتى النبي ﷺ خدم، فقلت: لو أتيت أباك فسألته خادماً؟ فأتته، فوجدت عنده حُدّاثاً، فرجعت، فأتاها من الغد، فقال: «ما كان حاجتك؟» وسكتت، فقلت: أنا أحدثك يا رسول الله، جرّت بالرحا حتى أثرت في يدها، وحملت بالقربة حتى أثرت في نحرها، فلما أن جاء الخدم أمرتها أن تأتيك فتستخدمك خادماً يقيها حرما هي فيه، قال: «اتقي الله يا فاطمة، وأدي فريضة ربك، واعملي عمل أهلك، وإذا أخذت مضجعك فسبحي ثلاثاً وثلاثين، واحمدي ثلاثاً وثلاثين، وكبّري أربعاً وثلاثين، فتلك مائة، فهي خير لك من خادم» قالت: رضيت عن الله وعن رسوله[2].

---

(١) البخاري (٤/٩ ـ ١٠) ومسلم (١٠٨٧/٢).

(٢) البخاري (١٩٢/٦ ـ ١٩٣) ومسلم (٢٠٩١/٤) والترمذي (٤٧٧/٥) وأبو داود (٣٩٤/٣) واللفظ له.

ويؤخذ من هذا الحديث، زيادة على ما ذكر من دلالته على قيام المرأة بخدمة زوجها ذلك التوجيه النبوي العظيم، لولاة أمور المسلمين الذين تقع خزائن بيت المال بأيديهم بأن لا يرخوا الزّمام لقراباتهم في الاستمتاع الذي يصل الى حد الترف والإسراف والاستئثار بذلك دون الرعيّة الذين قد لا يجدون القوت الضروري ولا السكن والمركب، بل بلغ التوجيه الشرعي بالرسول ﷺ أن يصبر أهل بيته على ما يعانون من مشقة ويوجههم إلى الإكثار من عبادة الله وذكره، ويؤثر عامة الناس عليهم.

فأين هذا المعنى الذي سنّه رسول الله ﷺ لولاة الأمر بعده مما يلصقه أعداء الدين الإسلامي به من أنه يخدّر الشعوب والكادحين ليستمتع بخيرات الأرض وكدح الرعايا الزعماء باسم الدين؟!

المطلب الثامن:
اعتراف المرأة بإحسان الزوج وعدم إنكار نعمته

إن ما يقوم به الزوج من اكتساب الرزق في خارج البيت، وما يعانيه من الإشراف على الأسرة في داخل البيت، ومحاولة التوفيق بين الرغبات المختلفة، وكفاية المرأة في كثير من الأمور التي لو غاب عنها لأرهقتها وكلّفتها شططاً، وكذلك ما يقدمه من الإحسان لامرأته، إن ذلك كله جدير بالشكر والاعتراف بالنعمة.

والاعتراف بنعمة الإنسان يدخل عليه السرور ويجعله يشعر بأن ما يبذله من خير يقع في مكانه اللائق به، وجحد النعمة يسيء اليه ويحطم أمله في أن تثمر نعمته ويؤثر إحسانه، وينزل به الغمّ، لأنه يشعر أن نعمته توضع في غير موضعها ـ وإن كان مضطراً إلى الاستمرار في وضعها في ذلك الموضع ـ فلا يهدأ له بال ولا يستقر له قرار.

ولهذا حذر النبي ﷺ النساء بوعيد شديد على كفرهن النعمة والإحسان، كما روى ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «أُريتُ النار، فإذا أكثر أهلها النساء، يكفرن» قيل: أيكفرن بالله؟ قال: «يكفرن العشير،

ويكفرون الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئاً، قالت: ما رأيت منك خيراً قط»[1].

المطلب التاسع:
حفظ ماله وعدم التفريط فيه

إن أوْلى من يأتمنهم المرء على ماله أهل بيته، فاذا كانت امرأته حريصة على حفظه اطمأن على كل ما عنده وأمن الاسراف والتبذير والإنفاق في غير ما يحتاج إليه، وإذا لم تكن كذلك، بأن أسرفت في الإنفاق أو فرطت في المال، هو يجمعه من هنا وهي تبدده هناك، أصيب بخيبة أمل وصاحبه الخوف على ما له في أوْلى الأماكن التي كان يجب أن تكون أكثر أمناً له، ولهذا أثنى الرسول ﷺ على نساء قريش بخصال، منها الحنوّ على الولد، ورعاية ذات اليد ـ أي حفظ المال ـ كما روى أبو هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «خير نساء ركبن الإبْل نساء قريش» وقال الآخر: «صالح نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده»[2].

المطلب العاشر:
عدم تمكينها أجنبيا من الخلوة بها

لا يجوز للمرأة أن تمكّن أحداً من أن يختلي بها ما لم يكن محرماً لها أميناً على عرضها، وبخاصة أقاربها وأقارب زوجها الذين ليسوا بمحارم لها، لما في ذلك من الريبة والذريعة إلى المنكر، وهذا من أشدّ ما يتأذى به الزوج من تصرفات زوجته، وبخاصة المسلم الغيور الذي يؤذيه عدم صيانة عرضه، وقد حذّر النبي ﷺ من ذلك، كما في حديث عقبة بن عامر، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «إيّاكم والدخول على النساء» فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: «الحمو الموت»[3].

---

(١) البخاري (١٣/١) ومسلم (٦٢٦/٢). (٢) البخاري (١٩٣/٦).
(٣) البخاري (١٥٩/٦) ومسلم (١٧١١/٤).

إن تشبيه الحمو بالموت يدل على أن دخوله على النساء أشد خطراً من غيره، لأن الناس يتساهلون في دخول أقربائهم على نسائهم، وهذا التساهل من أسباب ما قد يجري من المنكر ولأن دخوله وخروجه عندما يصبح عادة يؤلف فلا يكون مستنكراً، على رغم خطورته، بخلاف الأجنبي فان الغالب عدم التساهل في دخوله، والناس ينكرون تردده.

المطلب الحادي عشر:
مواساة الزوج وإدخال السرور عليه

إن الرجل يتعرض للمتاعب والمعاناة والاحتكاك بالناس خارج المنزل، وقد يواجه مصاعب في أعماله وعقبات في سبيله، فيغضب ويحزن، ويعود إلى البيت وهو مرهق مكتئب، وينبغي أن تستقبله المرأة ببشاشة وحنان، وأن تواسيه في مصائبه ومشكلاته، وأن تعينه على الراحة والهدوء في بيته لتحقق له فيه السكن والمودة والرحمة، والأسلوب المناسب لكل حالة من حالاته، كما فعلت خديجة، رضي الله عنها مع رسول الله ﷺ، من مواساته منذ بدأ الوحي ينزل عليه، إلى أن توفيت..

وقد رودت عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ لما فاجأه الوحي: «فرجع رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها، فقال: «زملوني، زملوني» حتى ذهب عنه الروْع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي» فقالت خديجة: «كلا والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق...». ثم ذهبت به الى ابن عمها ورقة بن نوفل فطمأنه ﷺ[1].

ومن أروع الأمثلة على مواساة المرأة المسلمة لزوجها ورعايتها له ما فعلته أم سليم، رضي الله عنها مع زوجها أبي طلحة الأنصاري، رضي الله عنه عندما مات ابن لهما، وهذه قصتهما، كما رواها أنس، رضي الله عنه، قال: «مات ابن لأبي طلحة من أم سليم، فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه،

---

(١) البخاري (١/٣ - ٤) ومسلم (١/١٣٩ - ١٤٢).

حتى أكون أنا أحدثه، قال: فجاء فقربت إليه عشاءً، فأكل وشرب، فقال: ثم تصنّعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك، فوقع بها، فلما رأت أن قد شبع وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، قالت: فاحتسب ابنك، فغضب وقال: تركتني حتى تلطخت، ثم أخبرتني بابني؟ فانطلق إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بما كان، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لكما في غابر ليلتكما...»[1].

المطلب الثاني عشر:
تسليمها بإمرته للأسرة في حدود ما شرع الله

إن كل جماعة يحتكّ بعضهم ببعض هم في حاجة إلى من يتولّى أمرهم بالرجوع إليه فيما يحتاجون فيه إلى التوجيه أو حل النزاع فيما يختلفون فيه، والا استحكمت فيهم الفوضى ودبّ الخلاف ولم يستقم لهم أمر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهّالهم سادوا

لذلك اقتضت الضرورة والحاجة الإمرة على الأفراد، لتنظيم حياتهم وإذا كان المسافرون يحتاجون إلى من يكون أميراً لهم، ولو كانوا ثلاثة فإن الأسرة أشد حاجة إلى أمير يرجعون اليه، لملازمة أفرادها بعضهم بعضاً في منزل واحد ولمدة طويلة.

ولا بد من تقسيم الوظائف على كبار الأسرة حسب الأهلية والطاقة وإجادة العمل، ولما كان الرجل متميزاً بخصائص لا توجد في المرأة، أو تقلّ فيها غالباً، وكانت المرأة متميزة بخلال لا توجد في الرجل، أو تقلّ فيه غالباً، اقتضت حكمة الله أن ينزل كل واحد منزلته، ويسند إليه ما هو كفء له.

فالمرأة هي الأرض الخصبة للنسل والإنجاب، وهي الظل الوارف الذي تستظل به الذرية، والمحضن الأمين الذي يتربى فيه النشء، وهي الأم الحنون ذات العاطفة السريعة الاستجابة لحاجات الصغار والكبار في المنزل،

---

(١) البخاري (٢/ ٨٤) ومسلم (٤/ ١٩٠٩).

وهي المعدة للبقاء في البيت، لتنظيفه وترتيبه وتهيئة ما يريح أهله كلهم، فكانت وظيفتها تناسبها، وهي الحمل والوضع والرضاع وتربية الأولاد والإشراف على مصالحهم، وتدبير أمور المنزل بالتعاون مع بقية الأسرة، وإعداد الطعام، وغير ذلك من تنظيف وتمريض، وكل إمكاناتها العضوية والعقلية والعاطفية صالحة لهذه الوظيفة وما شابهها، لذلك غلب عليها لقب ربة البيت.

أما الرجل فقد هيّىء لوظائف أخرى، زوده الله بالقوة الجسدية، والعقل المفكر، والصبر على المشاق، وتحمل الأسفار ومقارعة الأعداء، وحماية الأهل، وإجابة داعي العشيرة فاقتضت حكمة الله أن يتولى جلب حاجات الأسرة من خارج البيت، يسعى في اكتساب الرزق، بحراثة أو صناعة، أو تجارة بالصفق في الأسواق، والمشي في مناكب الأرض، وأن يقوم ببناء البيت وإعداده للسكن، ويصون الأدوات ومرافق المنزل وغير ذلك.

ولذلك منحه الله تعالى رئاسة الأسرة وتوجيهها العام لأنه أقدر على ذلك من المرأة وأهيب أمام بقية الأسرة، فهو الذي ينفق ويراقب تصرفات الإنفاق التي ينبغي أن يراعى فيها مقدار الدخل وعدم الإسراف والتبذير، وهو الذي يأمر عند الحاجة إلى الأمر، ويأذن بالدخول أو الخروج من المنزل وهو الذي يأخذ على يد من تعدّى حدوده المشروع أو العرف، وليس عن هوى أو تسلط منه.

قال تعالى: ﴿**الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم**﴾[1].

ولا يفهم من هذا أن يكون الرجل في رئاسته للأسرة جباراً، مكبِّلاً حركات المرأة في نشاطها في المنزل أو بقية أفراد الأسرة، وإنما هو موجه توجيهاً عاماً، والمرأة مرؤوسة له، ولكن لها رأيها الذي ينبغي أن يسمعه منها ويقرها في تصرفاتها التي لا ضرر فيها، وأن لا يقف منها موقف الآمر المستبد في كل شيء، بل يتعاون الرجل والمرأة بالحكمة والمشورة، وتعمل هي تحت رئاسته وهي راضية.

---

(١) سورة النساء: ٣٤.

قال الأستاذ الإمام محمد عبده: «المراد بالقيام هنا هو الرياسة التي يتصرف فيها المرؤوس بإرادته واختياره، وليس معناها أن يكون المرؤوس مقهوراً مسلوب الإرادة لا يعمل عملاً إلّا ما يوجهه إليه رئيسه، فإن كون الشخص قيّماً على آخر هو عبارة عن إرشاده والمراقبة عليه في تنفيذ ما يرشده إليه، أي ملاحظته في أعماله وتربيته، ومنها حفظ المنزل وعدم مفارقته ولو لنحو زيارة أولى القربى إلّا في الأوقات والأحوال التي يأذن بها الرجل ويرضى، أقول: ومنها مسألة النفقة فإن الأمر فيها للرجل، فهو يقدّر للمرأة تقديراً إجمالياً، يوماً يوماً أو شهراً شهراً، أو سنة سنة، وهي تنفذ ما يقدره، على الوجه الذي ترى أنه يرضيه، ويناسب حاله من السعة والضيق»[1].

إنه إذا سلّم كل من الزوجين للآخر بوظيفته التي أناطها الله به حلّ الأمن والاستقرار والراحة والطمأنينة في المنزل، وشعر كل فرد من أفراد الأسرة برضا النفس وراحة الضمير، لما يرى من الوفاق والتعاون والوئام.

أما إذا تنافس الرجل والمرأة على رئاسة الأسرة أو تدخل أحدهما في شئون الآخر، فإن ذلك يحدث من التصدع والنفور والفوضى والاضطراب ما الله به عليم، هذا إذا كان التنافس في الرئاسة، مع الاتفاق على الأهداف التي ينبغي تحقيقها، أما إذا وجد التنافس مع اختلاف الاتجاهات والأهداف، فهناك التحطيم الكامل والتفكك والانفصام النكد، وبخاصة إذا كان محل التنافس هو تربية الأولاد، فإن ذلك يكون أعظم خطراً.

قال محمد قطب: «كما ينبغي أن تكون سياسة الأبوين موحدة أو متقاربة تجاه الطفل، بحيث لا يشعر أن هناك فارقاً ملحوظاً بين معاملة كل منهما له، وبالذات لا ينبغي أن يقف الأبوان موقفين متعارضين ـ أمام الطفل ـ تجاه عمل قام به، أحدهما ـ مثلاً ـ يطالب بعقابه، والآخر يعارض في توقيع العقوبة عليه، فإن هذا يفسد الموازين في حسّه، ويشعره بأن الأمور ليس لها ضابط محدّد ولا معيار معيّن يلتزم به، وأن في إمكانه أن يخالف تعاليم أحد الوالدين ويجد من يدافع عنه من طريق آخر...»[2].

---

(١) تفسير المنار (٥/٦٨)، وراجع كتاب في ظلال القرآن (٥/٦٥٠) وما بعدها، لسيد قطب.

(٢) منهج التربية الإسلامية (٢/١١٥).

إن اختلاف الأبوين في المنزل معناه وجود حزبين متصارعين ينضمّ فيه الأولاد إلى من يرون أن يحقق لهم رغباتهم ويؤيد ميولهم في الغالب، وفي ذلك كارثة على الأسرة وهدّ لكيانها، فليعلم الأبوان ذلك، وليتلافياه قبل فوات الأوان.

هذه بعض الأمور التي ينبغي أن تعلمها المرأة لتعامل زوجها وأفراد أسرتها على ضوئها، وهي إذا ما اتبعتها جهد طاقتها كفيلة بأمن رئيس الأسرة في أسرته واستقراره وشعوره بالسكن والمودة والرحمة، وتلك بداية أمن الأسرة كلها، فإنه يأمن على نفسه وولده ودينه وماله وعرضه، وكفى بذلك أمناً.

المبحث الثالث:
في حقوق المرأة على الزوج والولي

وفيه تمهيد وأربعة مطالب:

المطلب الأول : حقوق المرأة قبل الزواج
المطلب الثاني : حقوق المرأة عند البناء بها
المطلب الثالث: حقوق المرأة في فترة الحياة الزوجية
المطلب الرابع : حقوق المرأة بعد الفراق

تمهيد

إن الذي يتأمل الحقوق التي شرعها الله في هذا الدين لكل واحد من الزوجين يرى فيها كمال علم الله وحكمته، وكمال عدله ورحمته، وأنه سبحانه وتعالى قد منح كلًا منهما من الحقوق ما تقوم به الحياة الزوجية على أكمل وجه، والحياة الأسرية على أتم حال، وإن الذي يطالع حقوق الزوج مستقلة يظن أنه قد منح من الحقوق، ما لم تنل الزوجة مثلها، فإذا طالع حقوق الزوجة مستقلة ظن أنها منحت من الحقوق ما لم ينل الزوج مثلها، ولكنه إذا نظر إلى هذه وتلك ظهر له كمال العناية الربانية بالجانبين ولما كان من الصعب هنا التفصيل في حقوق الزوجة، كما هو الحال في حقوق الزوج، فقد سلكنا في حقوقها مسلكنا في حقوق الزوج من الاختصار، حسب المطالب الأربعة، وفي كل مطلب فروع تذكر فيه:

المطلب الأول:
حقوق المرأة قبل الزواج

وفي هذا المطلب خمسة فروع:

الفرع الأول: التأكد من رضاها بالزواج منه

لا يجوز إجبار المرأة على الزواج بشخص لا ترضاه، لما في إجبارها من فقد الحياة المطمئنة والراحة النفسية والمودة والسكن والرحمة، وتلك من أهم أهداف الزواج في الشريعة الإسلامية، فلا بدّ من استئذانها في الزواج.

وإذْن البكر يدل عليه سكوتها، لأنها تستحي في الغالب أن تصرح بالقول، أما إذْن الثيّب فلا بدّ أن يكون بالقول الصريح بقبول الزوج الخاطب، كما في حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، قال: «لا تنكح الأيّم حتى تُستأمر، ولا تنكح البكر حتى تُستأذن» قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: «أن تسكت»(١).

وفي حديث عائشة، رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، يستأمر النساء في أبضاعهن؟ قال: «نعم» قلت: فإن البكر تستأمر فتستحي، فتسكت، قال: «سكاتها إذنها»(٢).

فإذا زوّج الولي المرأة البالغة بدون إذنها، بكراً كانت أم ثيّبا فلها فسخ النكاح إذا لم ترضه، كما في حديث ابن عباس، رضي الله عنهما، أن جارية بكراً أتت سول الله ﷺ، فذكرت أن أباها زوّجها وهي كارهة، فخيّرها النبي ﷺ(٣).

---

(١) البخاري (٦/١٣٥) ومسلم (٢/١٠٣٦) (٢) البخاري (٨/٥٧) ومسلم (٢/١٠٣٧).

(٣) أحمد (١/٣٦٤) وأبو داود (٢/٥٧٦)، وابن ماجة (١/٦٠٢)، قال الشوكاني في نيل الأوطار (٦/١٣٨): قال الحافظ: ورجاله ثقات، ثم أجاب الشوكاني على من أعل الحديث بالارسال، ورجّح وصله، وقال المحشى على سنن أبي داود: وقد صححه الشيخ أحمد شاكر.

وقد أثبتت إحدى الصحابيات هذا الحكم بالسنّة النبوية قاصدة بذلك سدّ الباب في وجه الأولياء المستبدّين بالأمر مخالفين بذلك شرع الله في إكراه المرأة على زوج لا ترضاه.

فقد روى بريدة، عن عائشة، رضي الله عنها قالت: جاءت فتاة إلى النبي ﷺ، فقالت: ان أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته، قال: فجعل الأمر إليها، فقالت: قد أجزت ما صنع أبي ولكني أردت أن تعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شيء»[1].

بل إن الرسول ﷺ أقر استشارة المرأة من تثق به وترى أن يشير عليها بما ينفعها عندما ذكرت له فاطمة بنت قيس، رضي الله عنها أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهْم خطباها، فقال لها رسول الله ﷺ: «أما أبو جهْم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، أنكحي أسامة بن زيد» فكرهته، ثم قال: «أنكحي أسامة بن زيد» فنكحته، فجعل الله فيه خيراً، واغتبطت»[2].

ومع ذلك فان المرأة ليست مطلقة الحرية في استبدادها بزواج نفسها ممن تشاء، كما ان وليّها ليس مطلق الحرية في تزويجها بمن يشاء، بل يجب عليها أن تعود إلى وليّها لِيَلي عقد نكاحها، وقد اشترط الجمهور الولي في النكاح، إلا إذا عضلها عن النكاح بغير حق، فان الولاية تنتزع منه وتعود إلى الحاكم حتى لا يضر الأولياء قريباتهم بالعضل وقد وردت نصوص كثيرة تؤيد رأي الجمهور، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله[3] لأن المصلحة وان كانت تعود إلى المرأة بالدرجة الأولى وكذلك المضرّة، فإن وليّها وأسرتها تعود اليهم مصلحتها ومضرتها أيضاً، لأنها قد تزوّج نفسها من غير كفء، فيكون ذلك عاراً على أسرتها كلهم[4].

---

(١) أحمد (١٣٦/٦)، والنسائي (٧١/٦)، وابن ماجة (٦٠٢/١ ـ ٦٠٣) وقال محققه، محمد فؤاد عبد الباقي: في الزوائد: إسناده صحيح، وقد رواه غير المصنف من حديث عائشة وغيرها. أهـ قلت: هو في سنن ابن ماجة: عن بريدة عن أبيه.

(٢) مسلم (١١١٤/٢).

(٣) راجع المغني لابن قدامة (٦/٧).

(٤) راجع الولاية على النفس لأبي زهرة ص ١٢٥.

وللولي أن يزوج الصغيرة إذا وجد الكفء الصالح الذي يخشى فواته، كما فعل أبو بكر رضى الله عنه في تزويج بنته عائشة رضي الله عنها برسول الله ﷺ وهي بنت ست سنين، وان كان لم يدخل بها إلاّ وهي بنت تسع[1].

وبما تضمنه هذا الفرع تأمن المرأة على حياتها الزوجية فلا يملك عصمتها من لا ترضاه زوجاً لها.

الفرع الثاني:
من حق المرأة على وليّها أن يبحث لها عن زوج صالح، وأنْ يعرضها عليه

وهذا أمر مشروع، وقد عرض الرجل الصالح إحدى ابنتيه على موسى، عندما توسّم فيه الصلاح كما قال تعالى: ﴿**قالت إحداهما يا أبت استأجره إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين، قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج**﴾ الآية[2]. وطبّق ذلك أصحاب رسول الله ﷺ في عهده، كما عرض عمر بن الخطاب، رضي الله عنه بنته حفصة حين تأيّمت على عثمان فاعتذر، ثم عرضها على أبي بكر فسكت، ثم خطبها رسول الله ، وعلم عمر أن سبب اعتذار عثمان وسكوت أبي بكر عليهما أن رسول الله ﷺ قد ذكرها[3].

الفرع الثالث:
عدم جواز عضلها إذا طلبها الكفء

ولا يجوز للولي أن يمنع المرأة من الزواج إذا كان الزوج المتقدم كفؤاً لها، وهي راضية به، سواء أكان متقدماً لها ابتداء ـ أي لم يسبق له أن تزوجها، أم كان زوجاً لها فطلّقها، وأراد خطبتها بعد انقضاء عدتها، وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن عضلها نهياً صريحاً، فقال تعالى: ﴿**وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم**

---

(١) البخاري (٦/١٣٤) ومسلم (٢/١٠٣٨).   (٢) سورة القصص: ٢٦، ٢٧.

(٣) راجع القصة في صحيح البخاري (٦/١٣٠).

بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: **﴿ياأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾**[2].

قال القرطبي رحمه الله على قوله: **﴿فلا تعضلوهن﴾**: روى معقل ابن يسار كانت أخته تحت أبي البداح، فطلّقها وتركها حتى انقضت عدتها، ثم ندم فخطبها، فرضيت وأبى أخوها أن يزوجها وقال: وجهي من وجهكِ حرام إن تزوجتيه، فنزلت الآية، قال مقاتل، فدعا رسول الله ﷺ معقلاً، فقال: «إن كنت مؤمناً فلا تمنع أختك من أبي البداح» فقال: آمنت بالله وزوّجها منه، وروى البخاري عن الحسن أن أخت معقل ابن يسار طلّقها زوجها حتى انقضت عدتها، فخطبها، فأبى معقل فنزلت: **﴿فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾**[3].

وقالت عائشة، رضي الله عنها في قوله تعالى: **﴿يستفتونك في النساء، قل الله يفتيكم فيهن﴾** إلى آخر الآية، قالت: هي اليتيمة تكون في حجر الرجل قد شركته في ماله، فيرغب عنها أن يتزوجها، ويكره أن يزوجها غيره، فيدخل عليه في ماله، فيحبسها، فنهاهم الله عن ذلك»[4].

فالواجب تزويج المرأة إذا خطبها الكفء وعدم عضلها بسبب مال أو منصب ونحوهما، ولا يتسع المقام هنا للحديث عن الكفاءة، ولكن الكفاءة في الدين هي الدعامة الأولى[5].

وبما تضمنه هذا الفرع تأمن المرأة من منعها بالزواج من الكفء الذي ترضاه، كما أنها بما تضمنه الفرع الأول تأمن من إكراهها على الزواج بمن لا ترضاه.

---

(١) سورة البقرة: ٢٣٢.
(٢) سورة النساء: ١٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٥٨/٣).
(٤) البخاري (١٣٤/٦).
(٥) راجع نيل الأوطار (١٤٤/٦).

الفرع الرابع:
أن لا يقدم الخاطب على الزواج بها إلّا بعد التأكد من رغبته فيها

لئلا تفاجأ بعد الزواج بكرهها، فتعيش معه حياة غير مرضية، وقد يصل به الأمر إلى فراقها، وفي ذلك إساءة إليها، وإدخال الحزن إلى قلبها، وحرمانها من حياة تاقت لها في مقتبل عمرها، ولأن المقصود من الزواج هو دوام العشرة واستمرارها.

ولهذا شرع أن يخطبها وينظر إليها قبل الزواج، ليرى إن كانت تعجبه، فيقدم على الزواج بها، وإن كانت لا تعجبه تركها ليرزقها الله غيره ويرزقه غيرها.

وقد نظر الرسول ﷺ إلى التي وهبت له نفسها، فلم تعجبه، فتركها بأسلوب مناسب، كما في حديث سهل بن سعد، رضي الله عنه، أن امرأةجاءت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، جئت لأهب لك نفسي، فنظر إليها رسول الله ﷺ، فصعّد النظر إليها وصوَّبه، ثم طأطأ رأسه، فلما رأت أنه لم يقض فيها شيئاً جلست. . .»[1].

وفي حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: كنت عند النبي ﷺ، فأتاه رجل، فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار، فقال رسول الله ﷺ: «أنظرت إليها؟» قال: لا، قال: «فاذهب فانظر إليها فإن في عيون الأنصار شيئاً»[2].

فقد ثبت هذا الحكم من فعله ﷺ ومن قوله، وقد يظهر باديء ذي بدء أن هذا الأمر من حقوق الزوج، والواقع أن للزوجة حقاً كبيراً فيه، كما ذكرت.

وفي حديث أبي هريرة هذا تنبيه من الرسول ﷺ للرجل أن ينظر إلى ما يخشى أن يكون سبباً في كرهه للمرأة إذا تزوجها ولم يره من قبل، لقوله: «فإن في عيون الأنصار شيئاً» لأن من المصلحة رؤية العيب قبل الزواج، حتى

---

(١) البخاري (٦/١٣١).

(٢) مسلم (٢/١٠٤٠)، وراجع المغني لابن قدامة (٧/٩٦).

يتزوجها وهو راضٍ بما فيها من عيب أو يدعها، بخلاف ما إذا فوجىء به بعد الزواج فإن مفسدة ذلك أكبر من مفسدة تركها قبل الزواج.

وهذا الفرع يتضمن أمن الرجل والمرأة معاً من الزواج الذي قد يفاجأ أحدهما بعيب أو عيوب خِلْقِية في الآخر لم يرها قبل الزواج فيندم وقد يترتب على ذلك عدم استمرار الحياة الزوجية بينهما.

الفرع الخامس:
إعطاؤها المهر المتيسر

ولا بد للمرأة من مهر يعطيه الزوج لها، ولكن ينبغي عدم المغالاة فيه، قال ابن قدامة، رحمه الله: «الأصل في مشروعيته الكتاب والسنّة والإجماع، أما الكتاب، فقوله تعالى: ﴿**وأحلّ لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين**﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿**وآتوا النساء صدقاتهن نحلة**﴾[2]، قال أبو عبيد: يعني عن طيب نفس بالفريضة التي فرض الله تعالى». ويجوز أن يكون كثيراً إذا كان الزوج موسراً، كما قال تعالى: ﴿**وآتيتم إحداهن قنطاراً**﴾[3] إلاّ أنه لا يجوز أن تكون المغالاة في المهور سبباً لمنع الشبان والشابات من الزواج كما هو الواقع في هذا الزمان الذي كثر فيه الفساد وحيل بين الشاب والشابة أن يتزوجا على سنّة الله ورسوله، بسبب غلاء المهور وكثرة ما يطلب منه من الحلي والملابس وأنواع الزينة والأثاث والولائم المبالغ في إنفاق الأموال إلى حد التبذير والسرف فيها، حتى أصبح الزواج عند كثير من الشباب لا يطاق بسبب ذلك، فكثرت العوانس وكثر العزّاب وانتشر الفساد.

والواجب على ولاة أمور المسلمين من العلماء والحكام والعقلاء في البلدان الاسلامية، وكذلك تجارهم أن يوجدوا حلاًّ لهذا الأمر الخطير، حتى يتمكن الشبان والشابات من الزواج المشروع، وهو من أسس تخفيف الشرور التي تحصل في الأقطار الإسلامية التي تكاد تصل إلى ما وصلت إليه دول الكفر من الفسوق والفواحش الجنسية، ومن أهم الحلول أن يكون الأغنياء

---

(١) سورة النساء: ٢٤. (٢) سورة النساء: ٤. (٣) سورة النساء: ٢٠.

والزعماء قدوة لغيرهم في التخفيف من المهر والولائم وغيرها حتى يقتدي بهم غيرهم.

ومن أهم الحلول أن تكون هناك صناديق تبرعات كافية للذين لا يجدون ما يمكنهم من إقامة حياة زوجية سعيدة وينبغي أن يعود أغنياء المسلمين إلى الجود بإيقاف بعض أموالهم على المشروعات الخيرية، ومنها زواج الفقراء[1] وعلى حكام الشعوب الإسلامية أن يعنوا بهذا الأمر ويسعوا إلى تزويج الشباب بإيجاد وسائل ذلك من الزكوات والتبرعات أو أي مورد مشروع لبيت أموال المسلمين، فإن المصالح التي تترتب على تزويج الشباب عظيمة جداً، كما أن المفاسد التي تترتب على عدم تزويجه خطيرة جداً.

وإذا كان مهر أغلب أزواج النبي ﷺ خمسمائة درهم، أي أن مهر الواحدة لم يزد على اثنتي عشرة أوقية فهل غيرهن أفضل منهن؟ وقد استنكر النبي ﷺ كون رجل أصدق امرأته أربع أواق، وقد جاء إليه ليصيب إعانة منه ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام: «على أربع أواق؟ كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل، ما عندنا ما نعطيك، ولكن عسى أن نبعثك في بعث تصيب منه، فبعث بعثاً إلى بني عبس، بعث ذلك الرجل فيهم»[2].

وقال الشوكاني رحمه الله: «فيه - أي أحد أحاديث الباب - دليل على أفضلية النكاح مع قلة المهر، وأن الزواج بمهر قليل مندوب إليه، لأن المهر إذا كان قليلاً لم يستصعب النكاح من يريده، فيكثر الزواج المرغب فيه ويقدر عليه الفقراء ويكثر النسل الذي هو أهم مطالب النكاح، بخلاف ما إذا كان المهر كثيراً فإنه لا يتمكن منه إلاّ أرباب الأموال، فيكون الفقراء الذين هم الأكثر في الغالب غير متزوجين، فلا تحصل المكاثرة التي أرشد إليها النبي ﷺ»[3].

قد ينكر القارىء تأكيدي في هذا الفرع على التقليل من المهر مع أنه في حق المرأة التي تستفيد من كثرة المهر، ولكن الغرابة تزول إذا علم المرء أن

(١) راجع في مقدار المهر، فتح الباري (٩/٢٠٤ - ٢١٧) والمغني لابن قدامة (٧/٢١٠ - ٢١٢).

(٢) مسلم (٢/١٠٤٠). (٣) نيل الأوطار (٦/١٩٠ - ١٩١).

عوانس كثيرات يتململن من إغلاء أوليائهن مهورهن إلى درجة عدم استطاعة الراغبين فيهن التقدم لخطبتهن وكثيرات منهن يشكون من ذلك فالشابات في أمسّ الحاجة إلى تخفيف مهورهن ليستطيع من يرغب فيهن ويرغبن فيه أن يتزوجهن.

وبهذا الفرع تأمن المرأة على أخذ ما فرض الله لها من صداق، وعلى عدم جعل المغالاة في المهور سدًّا في طريق زواجها.

المطلب الثاني:
حقوق المرأة عند البناء بها

وفيه ثلاثة فروع:

الفرع الأول:
إظهار الزواج للناس بإظهار أسرتي الزوجين وجيرانهم الفرح والسرور

ومن مظاهر ذلك الضرب بالدفوف، وفعل شيء من الطرب واللّهو غير المنكر، كما في قصة زواج الربيع بنت معوذ ابن عفراء، رضي الله عنها، قالت: جاء النبي ﷺ فدخل حين بنى عليّ، فجلس على فراشي كمجلسك مني، فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر، إذ قالت إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد، فقال: «دعي هذه وقولي بالذي كنت تقولين»[1].

فقد أقرّ ﷺ ضرب الدفوف، وذكر محاسن آباء المرأة، وأنكر الغلوّ الذي ظهر من إحدى الجواري.

وسأل ﷺ عائشة رضي الله عنها، بعد أن زفت امرأة من الأنصار، عمّا إذا كان حصل في هذا الزفاف شيء من اللّهو؟ وعلّل ذلك بأن الأنصار يعجبهم اللّهو، قالت عائشة، رضي الله عنها: إنها زفت امرأة من الأنصار، فقال نبي الله ﷺ: «يا عائشة، ما كان معكم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو»[2].

وكان ﷺ يفرح عندما يرى النساء والأطفال ذاهبين إلى الزفاف أو راجعين

---

(١) البخاري (٦/١٣٧). (٢) البخاري (٦/١٤٠).

منه، كما روى أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: أبصر النبي ﷺ نساءً وصبياناً مقبلين من عرس، فقام مُمْتَنًا، فقال: «أللّهم أنتم من أحبّ الناس إليّ»[1].

وفي هذا الفرع مشروعية إعلان النكاح والفرح به، لما فيه من تحقيق سنّة اللقاء المشروع بين الرجل والمرأة اللذين ليسا في حاجة إلى التدسس بلقائهما، لأنه لقاء مشروع يجب أن يعلمه الناس، ليأمن الزوجان من القيل والقال اللذين لا يسلم منهما من التقيا على غير سنّة الله ورسوله، وفيه قضاء على الفواحش والمنكرات التي تحدث سرًّا بدون زواج.

الفرع الثاني:
إقامة الزوج الوليمة المتيسرة.

وهي مشروعة لزيادة إعلان النكاح، وإظهار السرور به والشكر لمن حضّ عليه ويسّره، والجمهور على أن الوليمة سنة وليست واجبة، وذهب بعض أصحاب الشافعي أنها واجبة استناداً إلى ظاهر الأمر بها، عندما سأل الرسول ﷺ عبد الرحمن بن عوف الذي تزوج امرأة من الأنصار: «كم أصدقتها؟» قال: «وزن نواة من ذهب.. فقال له ﷺ: «أوْلم ولو بشاة»[1] وكان هو ﷺ إذا تزوج امرأة أوْلم بما يتيسر له، قال أنس رضي الله عنه ـ وقد ذكر عنده تزويج زينب بنت جحش برسول الله ﷺ ـ: ما رأيت رسول الله ﷺ أوْلم على أحدٍ من نسائه ما أَوْلم عليها، أوْلم بشاة»[3].

وقالت صفية بنت شيبة: أوْلم النبي ﷺ على بعض نسائه بمدّين من شعير»[4].

الفرع الثالث:
تخصيصها عند البناء بمدة معينة يقيمها عندها

ومن حق المرأة التي تزف إلى زوجها أن يقيم عندها سبعاً إن كانت بكراً، وثلاثاً إن كانت ثيّبا، ثم يقسم لبقية نسائه بعد ذلك ما جرت به عادته، قال

(١) البخاري (٦/١٤٤).
(٢) البخاري (٦/١٤٢).
(٣) البخاري (٦/١٤٣).
(٤) البخاري (٦/١٤٣).

أنس رضي الله عنه: من السنّة إذا تزوج الرجل البكر على الثيّب أقام عندها سبعاً وقسم، وإذا تزوج الثيّب على البكر أقام عندها ثلاثا ثم قسم، قال أبو قلابة ولو شئت لقلت: إن أنساً رفعه إلى النبي ﷺ»[1].

وسبب هذا التخصيص، والله أعلم، أن المرأة الجديدة في حاجة إلى إيناسها من وحشة الانتقال من بيت أهلها إلى بيت الزوج، وكذلك في بقائه عندها هذه المدة إشباع لرغبتها فيه، وهو أيضاً ينال رغبته منها، وخصت البكر بزيادة على الثيّب لأنها أحوج إلى ذلك الإيناس وتلك الرغبة، حتى تألف الزوج والزوج يألفها.

المطلب الثالث:
حقوق المرأة في فترة الحياة الزوجية

والحقوق التي تدخل في هذا المطلب كثيرة جداً، ومهمة كذلك، وهي التي تمتد بها الحياة الزوجية السعيدة والأمن الأسري، إن تحققت أو يحصل بفقدها الشقاء والقلق والنزاع والتمزق، إن لم تؤد كما أمر الله سبحانه وتعالى: أداء من قبل الزوج، وقبولاً من قبل المرأة. ولنجمل ما تيسر من هذه الحقوق في اثني عشر فرعاً:

الفرع الأول:

تعليمها أمور دينها، وتربيتها عليها فيما يتعلق بها وفيما يتعلق بزوجها وأولادها، وفيما يتعلق ببقية الأسرة والجيران، وغير ذلك، مما ينبغي أن تعلمه، وبهذا التعليم تعرف واجباتها وحقوقها، فلا تقصر في أداء واجب ولا تطمع في غير حق، إلاّ على سبيل التعاون والإيثار من الطرفين.

وقد كان الرسول ﷺ يعلّم نساءه دينهن، حتى كنّ من كثرة ما يتلقّين عنه ﷺ العلم من الكتاب والسنّة من المفتيات لأصحاب رسول الله ﷺ بعد وفاته، وقد أمرهن الله سبحانه وتعالى أن يذكرن تلك النعمة التي ساقها الله

---

(١) البخاري (٦/١٥٤).

إليهن مباشرة من رسول الله ﷺ في بيوتهن، فقال تعالى: ﴿**واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً**﴾[1].

والواجب الاقتداء برسول الله ﷺ في تعليم نساء المؤمنين كما كان ﷺ يعلّم نساءه وغيرهن، ولا يقي الإنسان نفسه من عذاب الله إن لم يحاول وقاية أهله منه، كما يحاول وقاية نفسه بتعليمهم ما يجب عليهم، وتعليم المرأة هو أساس تعليم أفراد الأسرة لأنها إذا تعلمت علّمت أبناءها وغيرهم بالقول والقدوة الحسنة، قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى**﴾[3].

وسبق حديث: «كلكم راع ومسئول عن رعيته»[4].

ومن أعظم رعاية الرجل امرأته تعليمها أمور دينها وما تتحقق به مصالح الأسرة، فإن المرأة الجاهلة تسيء إلى زوجها وأولادها، بل وعلى نفسها بتصرفاتها، وهي لا تدري عن النتائج المترتبة على ذلك.

الفرع الثاني: معاشرتها معاشرة حسنة والتلطّف بها وعدم العنف معها.

إن معاشرة الزوج امرأته معاشرة حسنة، وتلطّفه بها وتحسين أخلاقه معها يوطد بينه وبينها المودة والمحبة والألفة، وذلك يثمر التعاون على راحة الأسرة وهدوء بالها واطمئنانها.

ولما كان الزوج وامرأته لصيقين يكثر احتكاك بعضهما ببعض وينبني على ذلك وجود مشكلات بينهما، وقد تختلف وجهات نظرهما، كان لا بدّ من صبر بعضهما على بعض وتحمل بعضهما أخطاء بعض وعدم المشاحّة في

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٤.
(٢) سورة التحريم: ٦.
(٣) سورة طه: ١٣٢.
(٤) في أول المبحث الثاني من هذا الفصل.

الحقوق، لما في ذلك من تلافٍ للشقاق والنزاع المستمرين استمرار الحياة الزوجية.

وإذا كانت المرأة قد أُمرت بطاعة زوجها والقيام بحقوقه وعدم التساهل فيها وتعظيم حقه عليها، فإن الزوج أيضاً مأمور بأداء حقوق زوجه وعدم التساهل فيها، بل مأمور بالتساهل في حقوقه الخاصة، وإذا رأى منها خلالاً لا تعجبه، فليذكر فيها صفات أخرى تعجبه، ويجعل الأخلاق الحسنة بمنزلة الماء والصفات السيئة بمنزلة النار، وليطفىء بالأولى الثانية، كما روى أبو هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول لله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإذا ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء»[1].

وفي حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً، رضي منها آخر»[2].

ولقد جعل النبي ﷺ ميزان التفاضل في الخلق عشرة الرجل الحسنة لامرأته، كما في حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول لله ﷺ: «اكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً»[3].

ولعلّ من الحكمة في جعل ميزان التفاضل في الخلق السبق في العشرة الحسنة للنساء هو ما ذكر أولاً من أن المرأة فيها اعوجاج، يحتاج زوجها معه إلى صبر، وكثرة احتكاكه بها، فصبره عليها مع اعوجاجها وطول عشرته معها يدل على قوة تحمله وحسن خلقه، لأنه إذا كان أحسن خلقاً معها من آخر مع امرأته، فإنه يكون أحسن خلقاً مع غير زوجته من الذي هو أقل خلقاً مع زوجته من باب أولى.

قال الشوكاني، رحمه الله: «خيركم خيركم لأهله»: في ذلك تنبيه على أعلى الناس، رتبة في الخير وحسن الخلق والإحسان وجلب النفع ودفع

---

(١) البخاري (٦/١٤٥) ومسلم (٢/١٠٩٠). (٢) مسلم (٢/١٠٩١).

(٣) الترمذي (٣/٤٥٧)، وقال: حديث أبي هريرة هذا حديث حسن صحيح، وابو داود (٥/٦٠).

الضر، فإذا كان الرجل كذلك، فهو خير الناس، وإن كان على العكس من ذلك، فهو في الجانب الآخر من الشر، وكثيراً ما يقع الناس في هذه الورطة، فترى الرجل إذا لقي أهله، كان أسوأ الناس أخلاقاً وأشجعهم نفساً وأقلّهم خيراً، وإذ لقي غير الأهل من الأجانب لانت عريكته وانبسطت أخلاقه وجادت نفسه وكثر خيره، ولا شك أن من كان كذلك فهو محروم التوفيق، زائغ عن سواء الطريق. . . »[1].

قلت: «ولا بد أن تكون تلك الأخلاق التي ظاهرها الحسن مع غير الأهل، ممن هو سيىء الأخلاق مع الأهل، متكلفة ليست من طبعه، لأنه لم يستقم على الميزان النبوي للأخلاق الحسنة: «وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً».

الفرع الثالث:
بذل ما تحتاجه من النفقة والكسوة مما يكفي أمثالها.

ونفقة المرأة الكافية لها، وكسوتها التي جرت بها العادة لأمثالها واجبة، وينبغي للزوج إذا كان موسراً أن يوسع على أهله، ولا يبخل عليهم بشيء ما لم يكن إسرافاً أو ينفق في معصية، فإنه حينئذ لا يجوز.

وقد أمر الرسول ﷺ أن يبدأ المرء في النفقة بمن يعول، ولا شك أن الزوجة من أوْلى الناس بذلك.

روى أبو هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة ما ترك غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»[2].

وكان ﷺ يحبس نفقة عياله لسنة، كما في حديث عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، كان يبيع نخل بني النضير ويحبس لأهله قوت سنتهم»[3].

وجعل ﷺ الإنفاق على الأهل، مع كونه واجباً صدقة إذا احتسبه المنفق عند الله، كما روى أبو مسعود البدري. رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال:

---

(١) نيل الأوطار: (٦/٢٣٣).
(٢) البخاري (٦/١٩٠).
(٣) البخاري (٦/١٩٠).

«إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة»[1].

كما أخبر ﷺ أن الإنفاق على الأهل أعظم أجراً من الإنفاق على غيرهم، حتى ما أنفق في سبيل الله، روى أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك»[2].

وفي حديث حكيم بن معاوية بن حيدة القشيري، عن أبيه رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبّح، ولا تهجر إلاّ في البيت»[3].

الفرع الرابع:
الإذن لها بالخروج من بيتها لقضاء حوائجها

سبق أن المرأة يجب أن تلزم بيت زوجها، ولا تخرج منه إلاّ أن يأذن لها[4].

وقد أذن الله للنساء أن يخرجن لقضاء حوائجهن، وأمر الرسول ﷺ أزواجهن أن يأذنوا لهن، ودلّ فعله ﷺ على ذلك.

روت عائشة، رضي الله عنها، قالت: خرجت سودة بنت زمعة ليلاً، فرآها عمر، فعرفها، فقال: إنك والله يا سودة ما تخفين علينا، فرجعت إلى النبي ﷺ، فذكرت ذلك له، وهو في حجرتي يتعشى، وإن في يده لعرقا، فأنزل عليه، فرفع عنه وهو يقول: «قد أذن لكن أن تخرجن لحوائجكن»[5].

فهذا إذْنٌ عام من الله سبحانه وتعالى للنساء أن يخرجن لحوائجهن، ولكن عليها أن تستأذن زوجها في خروجها لحاجتها، وقد أمر الرسول ﷺ الأزواج

---

(١) البخاري (١/٢٠) ومسلم (٢/٦٩٥).   (٢) مسلم (٢/٦٩٢).

(٣) أبو داود (٢/٦٠٦) وقال المحشى على جامع الأصول (٦/٥٠٥): وإسناده حسن. ومعنى هجرها في البيت: في المضجع وهي في بيتها.

(٤) المطلب الرابع من المبحث الثاني من هذا الفصل.   (٥) البخاري (٦/١٥٩).

بالإذن لهن ونهى عن منعهن من حضور الصلاة في المساجد[1].

وقد كان نساؤه ﷺ ونساء أصحابه يخرجن معهم في الغزو للقيام بالسقي والتمريض ونقل الجرحى وغيرها من أنواع الخدمة، كما هو معروف في كتب السيرة النبوية والحديث والفقه[2].

ويدخل في ذلك زيارة أقاربها وشراء حاجاتها من السوق إذا غاب عنها زوجها أو لم تجد من يحضرها لها.

الفرع الخامس:
أن لا يطرقها ليلا إذا أطال الغيبة

إذا طالت غيبة الزوج عن أهله فالسنة أن لا يفاجىء امرأته بدخول الدار دون أن يكون عندها علم سابق بقدومه، لما في ذلك من المحاذير، كوجودها على حالة غير مرضية من التهيؤ له واستقباله على حالة لائقة، ونحو ذلك.

قال الإمام البخاري، رحمه الله: «باب لا يطرق أهله ليلاً إذا طال الغيبة مخافة أن يخونهم أو يلتمس عثراتهم..» وقال بعد ذلك: «باب تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة» وساق في كلا البابين حديث جابر، رضي الله عنه، قال: كنا مع النبي ﷺ في غزوة...» إلى أن قال: «فلما قدمنا ذهبنا لندخل، فقال: «أمهلوا حتى تدخلوا ليلاً - أي عشاء - لكي تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة»[3].

والمقصود أن تتهيأ المرأة لاستقبال زوجها الذي طالت غيبته، وأن يدخل عليها وهي على حالة تسرّه، فإذا علم أنها على علم بوقت وصوله ولو طالت غيبته فلا ضرر في دخوله في أي وقت، وهذا الأمر متيسّر في هذا الزمان، لوجود وسائل الاتصال السريعة، كالهاتف والبرق والبريد.

وعلى كل حال فإن من أمن الأسرة عدم طروق الزوج أهله ليلاً إذا طالت غيبته إلاّ إذا علموا وقت قدومه بوقت كافٍ.

---

(١) المطلب الرابع المذكور آنفاً.

(٢) راجع صحيح البخاري (٣/٢٢٠) وما بعدها.

(٣) البخاري (٦/١٦١).

الفرع السادس:
عدم هجرها أو ضربها لغير سبب مشروع

لما كان المقصود من الزواج دوام العشرة الحسنة والمودة والسكن والرحمة، فإنه لا ينبغي للزوج أن يهجر امرأته ولا للمرأة أن تهجر زوجها مهما جرى بينهما من خلاف، لما في الهجر من القطيعة التي تؤثر على الأسرة كلها، وكذلك لا يجوز له أن يضربها بدون سبب مشروع. وقد ورد نهي الرسول ﷺ عن ضرب النساء صريحاً، مع بيان قبحه وبشاعته، حيث يضربها ثم يجامعها، كما روى عبد الله بن زمعة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد، ثم يجامعها في آخر اليوم»[1].

وقد أباح الله تعالى الهجر والضرب في حالة نشوز المرأة - أي عدم طاعتها إياه فيما أوجب الله عليها فيه طاعته، كما قال سبحانه وتعالى: **﴿واللائي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان عليّاً كبيراً﴾**[2].

فالواجب على الزوج إذا عصته امرأته أن يبدأ بوعظها - فإن لم تستجب هجرها في المضجع، أي يبتعد عنها فلا يضاجعها، فإن نفع الهجر وإلا انتقل إلى تأديبها بالضرب غير المبرح.

قال القرطبي، رحمه الله: «أمر الله أن يبدأ النساء بالموعظة أولاً، ثم بالهجر، فإن لم ينجعا فالضرب، فإنه هو الذي يصلحها له ويحملها على توفية حقه. والضرب في هذه الآية هو ضرب الأدب غير المبرح، وهو الذي لا يكسر عظماً ولا يشين جارحة كاللكزة ونحوها، فإن المقصود منه الصلاح لا غير.

وفي صحيح مسلم: «اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكن عليهن ألّا يوطئن فرشكم من تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح» الحديث، أخرجه من حديث جابر الطويل في الحج[3]، أي لا يدخلن منازلكم أحداً ممن تكرهونه من الأقارب

---

(١) البخاري (٦/١٥٣). (٢) سورة النساء: ٣٤. (٣) مسلم (٢/٨٨٩ - ٨٩٠).

والنساء الأجانب، وعلى هذا يحمل ما رواه الترمذي، وصححه عن عمر بن الأحوص أنه شهد حجة الوداع، فحمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ، فقال: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عوانٍ عندكم. ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك، إلاّ أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون ولا يأذنّ في بيوتكم من تكرهون، ألاَ وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن. قال: هذا حديث حسن صحيح[1].

فقوله: «بفاحشة مبينة» يريد لا يدخلن من يكرهه أزواجهن ولا يغضبنّهم، وليس المراد بذلك الزنى فإن ذلك محرم ويلزم عليه الحد...»[2].

وقد ذمّ الرسول ﷺ من شكا النساء من ضربه لهن، كما في حديث إياس بن عبد الله بن أبي ذباب، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تضربوا إماء الله»، فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ، فقال: ذئرن النساء على أزواجهن، فرخص في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ «لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم» ومعنى: «ذئرن»: نشزن واجترأن على أزواجهن[3].

وسبق حديث حكيم بن معاوية بن حيدة القشيري عن أبيه عن رسول الله ﷺ، وفيه: «ولا تضرب الوجه ولا تقبّح ولا تهجر إلاّ في البيت»[4].

الفرع السابع:
عدم إفشاء سرها

ومن حقوق المرأة أن لا يفشي الزوج سرها، ومما لا شك فيه أنه يطلع منها على ما لم يطلع عليه أقرب المقربين إليها، فلا يجوز أن يتخذ ذلك وسيلة لكشف

---

(١) الترمذي (٣/٤٥٨). (٢) الجامع لأحكام القرآن (٥/١٧٠ - ١٧٣).

(٣) أبو داود (٢/٦٠٨)، قال المحشي على جامع الأصول: وقد أورد الحافظ ابن حجر هذا الحديث في الإصابة في ترجمة إياس بن عبدالله بن أبي ذباب، وصحح إسناده. جامع الأصول (٦/٥٠٦ - ٥٠٧).

(٤) آخر الفرع الثالث من هذا المطلب.

أسرارها، وكذلك هي أيضاً لا يجوز لها كشف سر زوجها فإن الحكم واحد، روى أبو سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها»[1].

الفرع الثامن:
أن يبقيها في عصمته بدون قسم إذا طلبت منه ذلك بسبب كرهه لها وإرادته طلاقها.

إن الرجل قد يكره المرأة ولا يطيق الاستمرار معها، والمشروع إمساكها بالمعروف أو تسريحها بالمعروف، والإمساك بالمعروف مع الكراهة صعب، وقد يريد الزواج بغيرها لكبر سنها وعدم صلاحها للاستمتاع أو لمرض طرأ عليها ثم طال فأصبح مزمناً، أو لسوء خلق فيها أو غير ذلك من الأسباب، وقد تكون هي راغبة في بقاء عقدة نكاحها بيده، فتطلب منه إمساكها وتعفيه من القسم لها، فينبغي للرجل أن يقبل طلبها، لما في ذلك من تطييب خاطرها وعدم نسيان المعروف معها، ولا ضرر عليه في ذلك.

وقد نزل في مثل ذلك قوله تعالى: ﴿**وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جُناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً**﴾[2].

وقد روت عائشة رضي الله عنها أن الآية الكريمة نزلت في مثل هذا، قالت: «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً»: قالت هي المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها، يريد طلاقها ويتزوج غيرها، تقول له: أمسكني ولا تطلقني، ثم تزوج غيري، فأنت في حل من النفقة علي والقسمة لي، فذلك قوله تعالى: ﴿**فلا جناح عليهما أن يصلحا بنيهما صلحاً والصلح خير**﴾[3].

وقد ثبت ذلك من فعل النبي ﷺ، كما روى ابن عبّاس، رضي الله عنهما، قال: خشيت سودة أن يطلقها النبي ﷺ، فقالت: لا تطلقني، وأمسكني،

---

(١) مسلم (٢/١٠٦٠ - ١٠٦١). (٢) سورة النساء: ١٢٨. (٣) البخاري (٦/١٥٣).

واجعل يومي لعائشة، ففعل، فنزلت: ﴿فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير﴾ فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز، كأنه من قول ابن عباس»[1].

قال القرطبي في تفسير الآية، بعد أن ذكر حديث الترمذي هذا: «روى ابن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب أن رافع بن خديج كانت تحته خولة ابنة محمد بن مسلمة، فكره من أمرها إما كبراً وإما غيره، فأراد أن يطلقها، فقالت: لا تطلقني، واقسم لي ما شئت، فجرت السنة بذلك، ونزلت: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾. ـ إلى أن قال ـ: في هذه الآية من الفقه الرد على الرهن الجهال الذين يرون أن الرجل إذا أخذ شباب المرأة وأسنّت لا ينبغي أن يتبدل بها»[2].

وذكر القرطبي صوراً عديدة مما يدخل في هذا الصلح، فراجعه إن شئت[2].

وفي الآية الكريمة ذمّ الشح والحثّ على التقوى والإحسان من الجانبين.

الفرع التاسع:
حفظ يمينه عن هجرها وعدم إتيانها

ولا ينبغي له أن يحلف على هجرها وعدم غشيانها، فإن فعل فعليه أن يعود إليها خلال أربعة أشهر ولا يجوز أن يتجاوزها فإن أصرّ على التجاوز فلها الحق في مطالبته بالطلاق، فإن طلّق وإلّا تولى أمر طلاقها الحاكم.

وقد نزل في هذا الحكم، وهو ما يسمى بالإيلاء قوله سبحانه وتعالى: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربّص أربعة أشهر، فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم﴾[3].

والإيلاء هو الحلف، وذلك أن يحلف الزوج أن لا يقرب إمرأته أو نساءه مدة معينة، فإذا حلف على مدة لا تزيد عن أربعة أشهر فلا إشكال، وإن

---

(١) الترمذي (٥/ ٢٤٩) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٤٠٣ ـ ٤٠٥). (٣) سورة البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧.

حلف أن لا يقربها أكثر من أربعة أشهر أو مطلقاً، فله أن ينتظر أربعة أشهر، ويجب عليه في نهايتها الرجوع إلى امرأته، فإن أصرّ على الاستمرار فإنه يلزمه الطلاق، إذ لا يجوز له أن يمسكها بلا معاشرة وقسم.

وقد بوّب الإمام البخاري رحمه الله للآية الكريمة، وأورد في الباب ما يلي:

«عن أنس ابن مالك، يقول: آلى رسول الله ﷺ في نسائه، وكانت انفكت رجله، فأقام في مشربة له تسعا وعشرين، ثم نزل فقالوا: يا رسول الله، آليت شهراً، فقال: «الشهر تسع عشرون»[1].

وعن نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يقول في الإيلاء الذي سمي الله: لا يحلّ لأحد بعد الأجل إلا أن يمسك بالمعروف، أو يعزم على الطلاق، كما أمر الله عز وجل.. وعنه: إذا مضت أربعة أشهر يوقف حتى يطلق، ولا يقع عليه الطلاق حتى يطلق، ويذكر ذلك عن عثمان وعلي وأبي الدرداء وعائشة، واثني عشر رجلاً من أصحاب النبي ﷺ»[1].

وبهذا تأمن المرأة من المضارة والحبس العاري عن المعاشرة الزوجية.

الفرع العاشر:
عدم جواز مضارتها ليكرهها على الافتداء منه، إذا كان راغبا عنها.

إذا كره الرجل امرأته، ولم يعد يرغب في بقائها معه فإن عليه أن يطلقها، ولا يجوز له أن يأخذ منها شيئاً، لأن الكراهية صادرة منه، ولا يجوز له ـ كذلك ـ أن يضارها ويضايقها، حتى تطلب هي منه الطلاق ليطلب منها رد الصداق أو أكثر منه أو أقل، وفي هذا المعنى قال تعالى: ﴿**الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلاّ أن يخافا أن لا يقيما حدود الله، فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعدّ حدود الله**

---

(١) البخاري (٦/١٧٣، ١٧٤)، وراجع تفسير القرطبي للآية، وأقوال العلماء في تفاصيل أحكام الإيلاء (٣/١٠٢).

فأولئك هم الظالمون﴾[1].

دلّت الآية الكريمة على أن الزوجين إذا علما أنهما يقيمان حدود الله في العشرة بينهما وأداء كل واحد منهما حق الآخر، فعليهما الاستمرار في حياتهما الزوجية والمعاشرة بالمعروف، وإن ظهر للزوج أنه لا يقيم حدود الله في العشرة الحسنة مع امرأته وأداء حقوقها عليه فإنّ عليه أن يطلقها ويفارقها بإحسان، ولا يجوز له أن يضارها لتفتدي منه وهو الذي كرهها.

وإن علمت الزوجة أنها لا قدرة لها على إقامة حدود الله مع زوجها، أي لا تطيق البقاء معه مع القيام بحقوقه، فإن عليها أن تفتدي منه ليفارقها، لأن الكره جاء منها له.

قال القرطبي رحمه الله: «والجمهور على أن أخذ الفدية على الطلاق جائز، وأجمعوا على تحظير أخذ مالها إلّا أن يكون النشوز وفساد العشرة من قبلها. . . - إلى أن قال -: قوله تعالى: **﴿إلا أن يخافا ألّا يقيما حدود الله﴾**. حرّم الله تعالى في هذه الآية أن لا يأخذ إلّا بعد الخوف ألّا يقيما حدود الله، وأكد التحريم بالوعيد لمن تعدّى الحد، والمعنى أن يظن كل واحد منهما بنفسه ألّا يقيم حق النكاح لصاحبه حسب ما يجب عليه فيه لكراهة يعتقدها، فلا حرج على المرأة أن تفتدي، ولا حرج على الزوج أن يأخذ. . .»[2].

وقد أمر رسول الله ﷺ بعض أصحابه أن يقبل مالاً افتدت به امرأته منه لكراهتها البقاء معه وخوفها من الإثم بعدم إقامتها حدود الله في حقه، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما اعتب عليه في خلق ولا دين، ولكن أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أتردين عليه حديقته»؟ قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ: «اقبل الحديقة، وطلقها تطليقة»[3].

وبهذا تأمن المرأة من إكراهها على البقاء مع زوجها الذي تكرهه، كما يأمن هو من إكراهه على بقائه مع زوجته التي يكرهها، فإن له أن يطلقها متى شاء.

---

(١) سورة البقرة: ٢٢٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣/١٣٧).

(٣) البخاري (٦/١٧٠).

فإن لم يظهر النشوز من أحدهما واختلفا فإن الواجب على أهلهما أو على الحاكم أن يبعثوا لهما حكماً من أهل المرأة وحكماً من أهل الرجل ممن يتوسم فيهما الصلاح والعدل وحب الإصلاح، ليقوما بالصلح بينهما، فإن استطاعا التوفيق بينهما، على أن يقوم كل منهما بما يجب عليه لصاحبه فذاك، وإلاّ حكما على من تبين لهما نشوزه من الآخر، فإن كان النشوز من الزوج حكما عليه بالطلاق، وإن كان من المرأة حكما عليها أن تفتدي منه، كما قال تعالى: ﴿**وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما، إن الله كان عليماً خبيراً**﴾[1].

الفرع الحادي عشر:
أن يطلقها لعدتها المشروعة إذا أراد طلاقها

الطلاق من الأحكام المكروهة في شرع الله، لما فيه من انحلال عقدة النكاح الذي يحبه الله ورسوله، وهو ـ أي النكاح ـ ضرورة من ضرورات الحياة، وقد رغب الله تعالي فيه وحذّر من العزوف عنه[2].

فالمقصود بالنكاح الاستدامة لتحقيق أهدافه، والطلاق مضاد لذلك، وقد وردت نصوص دالّة على كراهته، منها حديث ابن عمر، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «أبغض الحلال إلى الله عز وجل الطلاق»[3].

والمقصود هنا بيان أن من عزم على الطلاق، فالواجب أن يطلق امرأته في الوقت الذي حدده الشارع ليكون بداية عدتها من زوجها، وهو الطهر الذي لم يجامعها فيه، أو أن تكون المرأة حاملاً قد استبان حملها، لأنه في الأول يعرف براءة رحمها، ويحسب الطهر الذي طلقها فيه من عدتها، فلا تظلم بطول مدة العدة، وفي الثاني تكون العدة معروفة بوضع الحمل، وقد عرف

---

(١) سورة النساء: ٣٥، وراجع الجامع لأحكام القرآن (١٧٤/٥).

(٢) راجع الفصل الثالث: حفظ النسل من كتابنا الإسلام وضرورات الحياة.

(٣) أبو داود (٦٣١/٢ ـ ٦٣٢) وابن ماجة (٦٥٠/١) والحديث، وان كان ضعيفاً، كما ذكر الشوكاني في نيل الأوطار (٢٤٨/٦) والألباني في إرواء الغليل (١٠٦/٧) فان مقصود النكاح يؤيد معناه.

ما اشتمل عليه حمها، فإذا طلقها وهي حائض طالت مدتها، لأن وقت الحيض الذي طلقها فيه لا يحسب من عدتها، لأنها تعتد بالاطهار وليس بالحيض[1] فيحسب الطهر الذي يلي تلك الحيضة، كما أنه إذا طلقها في طهر جامعها فيه، لم تعلم براءة رحمها منه. لذلك أمر الله تعالى أن تطلق المرأة لعدتها، وأمر بحفظ عدتها، لما في ذلك من حفظ حق الزوج وحق المرأة معاً، قال تعالى: ﴿**يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة**﴾.

قال القرطبي رحمه الله: «لعدتهن»: أي في عدتهن، أي في الزمان الذي يصلح لعدتهن، وحصل الإجماع على أن الطلاق في الحيض ممنوع، وفي الطهر مأذون فيه... ـ إلى ان قال ـ: قوله تعالى: ﴿**واحصوا العدة**﴾: معناه احفظوها، أي احفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق...»[2].

وقد أمر الرسول ﷺ من طلّق امرأته وهي حائض أن يراجعها ثم يطلقها في طهر لم يمسّها فيه، كما في حديث عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، أنه طلق امرأته وهي حائض في عهد رسول الله ﷺ، فسأل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «مره فليراجعها، ثم ليمسكها، حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم ان شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمسّ، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء».

ولو طلقها في الطهر الذي يلي الحيضة التي طلقها فيها جاز عند بعض العلماء، ولعلّ من الحكمة في الأمر بإمساكها إلى الطهر الثاني طول بقائها عند زوجها، لعله يذهب عنه كرهها ويرغب في بقائها، فلا يطلقها[3].

الفرع الثاني عشر:
وجوب الانفاق والسكنى لها إذا كان طلاقها رجعيا.

المطلقة التي يحق لزوجها أن يراجعها قبل انقضاء عدتها لا تزال زوجة

---

(١) على ما رجحه بعض العلماء. (٢) سورة الطلاق: ١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٨/١٥٣).

(٤) البخاري (٦/١٦٣) ومسلم (٢/١٠٩٣).

(٥) راجع فتح الباري لابن حجر (٩/٣٤٥ ـ ٣٥١).

له، أي لم يحصل الفراق الشرعي بينهما، لذلك يجب على زوجها أن ينفق عليها ويسكنها حتى تنتهي عدتها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن، ولا يخرجن إلّا أن يأتين بفاحشة مبينة، وتلك حدود الله، ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه، لا تدري لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً، فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾[1].

فقد أمر الله سبحانه أن تطلق المرأة لعدتها، أي في أول المدة التي تصلح لعدتها، كما مضى قريباً، وأمر بإحصاء العدة، أي ضبطها وحفظها ليعلم الزوج والزوجة حقوقهما وواجباتهما، فالزوج يعلم الوقت الذي له فيه حق الرجعة، ويعلم الوقت الذي لا تلزمه فيه النفقة والسكنى لها، ويعلم ما يلحقه منها من نسب، وهي تشترك معه في ذلك كله وتعلم الوقت الذي يحق لها فيه أن تستعد لخاطب غير زوجها الذي طلقها[2].

فقد شرع الله للمرأة المطلقة الرجعية أن ينفق عليها زوجها، حتى تبين منه بانتهاء عدتها، فإذا انتهت عدتها جعل الله لها مخرجاً ورزقها من حيث لا تحتسب.

أما إذا كانت المطلقة ليست رجعية، وهي التي تبين منه بمجرد طلاقه إياها، كالتي لم يدخل بها وهي لا عدة لها، والتي استكملت ثلاث تطليقات، أو طلقت ثلاثاً دفعة واحدة عند من يعتبر الثلاث في وقت واحد مبينة للمرأة، فلا نفقة لها ولا سكنى، إلا إذا كانت حاملاً، كما قال تعالى: ﴿**وإن كنّ أولات حملٍ فانفقوا عليهن حتى يضعن حملهن**﴾[3].

وهذا ما ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما وأحمد بن حنبل، وهو الذي روته فاطمة بنت قيس عن رسول الله ﷺ، قالت: إن أبا عمر بن حفص طلقها

---

(١) سورة الطلاق: ١ - ٣.
(٢) راجع الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٥٤).
(٣) سورة الطلاق: ٦.

البتة ـ وفي رواية ـ: ثلاثاً، وهو غائب، فأرسل إليها وكيله بشعير فسخطته، فقال: والله مالك علينا من شيء، فجاءت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فقال: «ليس لك عليه نفقة» فأمرها أن تعتد في بيت أم شريك... ـ وفي رواية ـ: «لا نفقة لك ولا سكنى» وقد خالفها في ذلك عمر رضي الله عنه، فقال: «لا نترك كتاب الله وسنة نبينا ﷺ لقول امرأة، لا ندري لعلها حفظت أو نسيت، لها السكنى والنفقة، قال الله عز وجل: ﴿**لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة**﴾ وكذلك خالفها مروان، فقال: لم نسمع هذا الحديث إلاّ من امرأة، سنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها، قال الله عز وجل: ﴿**لا تخرجوهن من بيوتهن**﴾ الآية. قالت ـ أي فاطمة رداً على من خالفها ـ: هذا لمن كانت له مراجعة، فأي أمر يحدث بعد الثلاث تشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿**لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً**﴾ أي مراجعة الزوج المرأة، وإذا لم يكن له حق المراجعة، فأي أمر يحدث؟ وكذلك أنكرت عليها عائشة، رضي الله عنها هذا الحديث، وذهب إلى ما ذهب إليه عمر وعائشة ومروان أبو حنيفة رحمه الله، فرأى لها السكنى والنفقة، وذهب مالك والشافعي إلى أن لها السكنى دون النفقة.

ولعلّ في قوله تعالى: ﴿**فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف**﴾ ما يؤيد ما روته فاطمة بنت قيس.

ورجح ابن القيم رحمه الله أنها لا سكنى لها ولا نفقة وأطال الردّ على من خالف فاطمة بنت قيس في هذا[1].

---

(١) انظر قصة فاطمة بنت قيس في البخاري (٦/١٨٣) ومسلم (٢/١١١٤) وما بعدها، وراجع أقوال العلماء ووجه دليل كل منهم في شرح النووي على مسلم (١٠/٩٥) وفتح الباري (٩/٤٧٧ ـ ٤٨١)، والمغني لابن قدامة (٨/٢٣٢) وزاد المعاد (٥/٥٢٢ ـ ٥٤٢).

المطلب الرابع:
في حقوق المرأة بعد الفراق

وفي هذا المطلب ثلاثة فروع:

الفرع الأول:
حقها في رضاع ولدها منه

لأنها أحن وأرقّ على ولدها من غيرها، ويجب أن يعطيها أجراً على رضاعه، كما ينبغي أن يحسن إليها ولا يبخل عليها بمزيد من الفضل، مراعاة للعشرة السابقة من جهة، ولقيامها برضاع ولده ورعايته من جهة.

قال تعالى في سياق عدة المطلقات: ﴿**وإن كن أولات حملٍ فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن، فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وائتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى**﴾[1].

قال القرطبي، رحمه الله: قوله تعالى: ﴿**فإن أرضعن لكم**﴾ - يعني المطلقات - أولادكم منهن، فعلى الآباء أن يعطوهن أجرة إرضاعهن وللرجل أن يستأجر امرأته للرضاع كما يستأجر أجنبية...[2].

وقال تعالى: ﴿**والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك، فإن أرادا فصالاً عن تراضٍ منهما وتشاور فلا جناح عليهما، وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير**﴾[3].

وهذه الآية شاملة للوالدات اللآتي ما زلن في عصمة الزوج، والمطلقات، قال الخرقي رحمه الله: «وعلى الأب أن يسترضع لولده إلاّ أن تشاء الأم أن ترضعه بأجرة مثلها فتكون أحق به من غيرها، سواء كانت في حبال الزوج أم مطلقة»[4].

---

(١) سورة الطلاق: ٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٨/١٦٨).

(٣) سورة البقرة: ٢٣٣.

(٤) المغني لابن قدامة (٨/٢٥٠).

الفرع الثاني:
حقها في حضانة ولدها ما لم تتزوج:

إن الخلاف الذي ينشأ بين الزوجين يجر وراءه مشكلات أسرية تهز الأسرة هزاً، وأكثر من يتضرر بذلك بعد الزوجين أولادهما كباراً وصغاراً، وإن كان تضرر الصغار أشد، وإذا اشتد الخلاف بين الزوجين وبلغ مبلغهُ لجآ إلى الفراق الذي هو آخر الدواء. وعندئذ يتشاكسان في الأولاد: الأب يريد إبقاءهم عنده بالقوة، إما حرصاً على مصلحتهم، لاعتقاده أن الأم غير صالحة لتربيتهم، وقد يكون محقاً، وقد يكوْن غير محق، وإما لإرادته النكاية بها والإضرار، والأم تستصرخ وتستغيث وقد تلجأ إلى وليّها لينجدها، وهنا ينتشر الشقاق بين أسرتي الأب والأم، فما الحكم في هذه المسألة التي يكون مرجعها القاضي في نهاية المطاف؟

إن الأطفال الصغار في حاجة إلى الرعاية بالغذاء والتنظيف والتمريض، وفي حاجة إلى الحنوّ والحنان والحب والعاطفة، ولا شك أن هذه الأمور لا توجد مكتملة إلا عند الأم، ثم عند من هي أقرب إليها من النساء، وأن الأب مهما بلغ حبه وحنانه واجتهاده في مصالح ولده لا يبلغ ما يجده الولد عند أمه.

وللأم المطلقة التي تطالب بكفالة ولدها ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن تكون خالية، ليست متزوجة، وهي في هذه الحالة أحق به، بنص رسول الله، ﷺ المنطوق، كما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ عبد الله بن عمرو ـ أن امرأة قالت: يا رسول الله، ان ابني هذا كان بطني له وعاء، وثدييّ له سقاء، وحجري له حواء، وإن أباه طلقني، وأراد أن ينتزعه مني، فقال لها رسول الله ﷺ: «أنت أحق به ما لم تنكحي»[1].

والذي يظهر أنه لا خلاف في هذا الحكم، إذا كانت الأم صالحة للتربية،

---

(١) أبو داود (٢/٧٠٧ ـ ٧٠٨) وأحمد (٢/١٨٢)، وقال شيخنا الألباني: «وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وإنما هو حسن فقط، للخلاف المعروف في عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده» ارواء الغليل (٧/٢٤٤).

قال ابن قدامة ـ بعد أن ذكر بعض العلماء الذين ذهبوا إلى ما ذكر في الحديث ـ: «ولا نعلم من خالفهم»[1].

ويروى أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه طلّق زوجة له من الأنصار فولدت له عاصم بن عمر، فجاء عمر إلى قباء، فوجد ابنه عاصماً يلعب بفناء المسجد، فأخذ بعضده، فوضعه بين يديه على الدابة، فأدركته جدة الغلام، فنازعته إياه، حتى أتيا أبا بكر الصديق، فقال عمر: «ابني» وقالت المرأة: ابني، فقال أبو بكر الصديق: خل بينها وبينه فما راجعه عمر في الكلام.

ويذكر أن أبا بكر قال لعمر، رضي الله عنهما: «ريحها وشمها ولطفها خير له منك»[2].

الحالة الثانية: أن تكون قد تزوجت من له قرابة بالزوج الأول وهو ـ أي زوجها السابق راضٍ للأم بكفالة ابنها. والذي يفهم من حديث عمرو بن شعيب السابق أن الأم في هذه الحالة ليست بأحق به، بل الأب أحق به منها، لأنها نكحت، والرسول ﷺ إنما جعل الأم أحق ما لم تنكح، ولكن جاء في حديث البراء، رضي الله عنه ما يعارض هذا المفهوم، وفيه: «فخرج النبي ﷺ، فتبعته ابنة حمزة تنادي: يا عم يا عم، فتناولها علي، وقال لفاطمة عليها السلام: دونك ابنة عمك احمليها، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر، قال علي: أنا أخذتها وهي ابنة عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم»[3].

فقد اختصم في الجارية ابنا عم أبيها، وهما بمنزلة الأب، لعدم وجود من يطالب بها ممن هو أقرب منهما، وكان تحت أحدهما خالة الجارية، فقضى بها رسول الله ﷺ لخالتها، وقوله في الخالة أنها «بمنزلة الأم» وهي متزوجة،

---

(١) المغني (٨/٢٣٨).
(٢) انظر جامع الأصول (٣/٦١٤).
(٣) المغني (٨/٢٣٨ ـ ٢٣٩).
(٤) البخاري (٥/٨٤ ـ ٨٥) وأبو داود من حديث علي (٢/٧٠٩ ـ ٧١٠) والترمذي من حديث البراء (٤/٣١٣) ورواية البخاري أطول.

دليل على أنها أحق من أبيها لو كان حياً، إذا كان زوج الأم قريباً للولد، راضياً لها بحضانة ابنها.

قال الحافظ ابن حجر، رحمه الله: وأن الحاضنة إذا تزوجت بقريب المحضونة لا تسقط حضانتها إذا كانت المحضونة أنثى، أخذاً بظاهر الحديث، قاله أحمد، وعنه لا فرق بين الأنثى والذكر ولا يشترط كونه محرماً، لكن يشترط أن يكون.. مأموناً، وأن الصغيرة لا تشتهى ولا تسقط إلاّ إذا تزوجت بأجنبي.

فالذي يظهر رجحانه أنه إذا تزوجت الحاضنة من هو من أقارب الولد المحضون، ورضي لها زوجها بحضانته إن حضانتها لا تسقط.

الحالة الثالثة: أن تتزوج بأجنبي

والذي يدل عليه حديث عمرو بن شعيب أن كفالتها تسقط، وتنتقل إلى الأب أو من هو أولى به بعد الأم[1] وعلى هذا جمهور العلماء، ولا يعلم فيه خلاف إلاّ ما حكي عن الحسن أن حقها في الكفالة لا يسقط بالتزويج، وهو قول شاذ إن صح عنه، وما نقل في رواية عن أحمد أنها لا تسقط حضانتها بالنسبة للجارية وتسقط بالنسبة للصبي، وهي رواية مرجوحة[2].

قال ابن القيم رحمه الله: «والذي دل عليه هذا الحكم النبوي أن الأم أحق بالطفل ما لم يوجد منها النكاح، فإذا نكحت زال ذلك الاستحقاق، وانتقل الحق إلى غيرها، فأما إذا طلبه من له الحق وجب على خصمه أن يبذله له، فإن امتنع أجرى الحاكم عليه، وإن أسقط حقه، أو لم يطالب به بقي على ما كان عليه أولاً، فهذه قاعدة مستفادة من غير هذا الحديث[3] يعني حديث عمرو بن شعيب.

---

(١) فتح الباري (٥٠٧/٧) وراجع المغني لابن قدامة (٢٤٣/٨ - ٢٤٤) ونيل الأوطار (٣٦٨/٦).

(٢) راجع لمعرفة الأولى زاد المعاد (٤٣٨/٥) وما بعدها.

(٣) راجع المغني (٢٤٣/٨)، وزاد المعاد (٤٥٤/٥)، وما بعدها.

(٤) زاد المعاد (٤٦٤/٥).

هذا بالنسبة للولد الصغير الذي لم يميز، أما المميز، وهو في الغالب من بلغ سبعاً، فقد ورد ما يدل أنه يخيّر بين أمه وبين أبيه، فأيهما اختار كان أحق بحضانته، فإن لم يختر أحدهما أجريت بينهما القرعة، فيكون مع من كانت القرعة بجانبه.

من ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه، جاءته إمرأة فارسية معها ابن لها، فادعياه وقد طلقها زوجها، فقالت: يا أبا هريرة، ورطنت له بالفارسية: زوجي يريد أن يذهب بابني، فقال أبو هريرة: استهما عليه، ورطن لها بذلك، فجاء زوجها، فقال: من يحاقني في ولدي؟ فقال أبو هريرة: اللهم إني لا أقول هذا إلاّ أني سمعت إمرأة جاءت إلى رسول الله وأنا قاعد عنده، فقالت: يا رسول الله، إن زوجي يريد أن يذهب بابني وقد سقاني من بئر أبي عنبة، وقد نفعني، فقال رسول الله ﷺ: «استهما عليه» فقال: من يحاقني في ولدي، فقال النبي ﷺ: «هذا أبوك، وهذه أمك، فخذ بيد من شئت فأخذ أمه فانطلقت به»[1].

قال الترمذي ـ بعد أن ساق الحديث ـ: «والعمل على هذا عند بعض أهل العلم، من أصحاب النبي ﷺ، وغيرهم، قالوا: يخيّر الغلام بين أبويه، إذا وقعت بينهما المنازعة في الولد، وهو قول أحمد وإسحاق، وقالا: ما كان الولد صغيراً فالأم أحق به، فإذا بلغ الغلام سبع سنين خيّر بين أبويه»[1].

وسرد ابن القيم رحمه الله ما نقل عن السلف مما يؤيد هذا، فنقل عن أبي بكر وعمر وعلي وأبي هريرة رضي الله عنهم القول بالتخيير، وقال: «فهذا ما ظفرت به عن الصحابة»[2].

ثم ذكر أقوال الأئمة في ذلك، وذكر عن شيخه ابن تيمية رحمه الله أن قواعد الاسلام تقضي بأن الاستهام أو التخيير إنما يكونان عندما لا يكون أحد الأبوين مفسداً لأخلاق الصبي، فإذا كان أحدهما مفسداً لأخلاقه فلا تخيير.

---

(١) ابو داود (٢/٧٠٨ ـ ٧٠٩) واورده الترمذي (٣/٦٣١) مختصراً وقال: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح.

(٢) زاد المعاد (٥/٤٦٤ ـ ٤٦٦).

قال رحمه الله: «وسمعت شيخنا، رحمه الله يقول: تنازع أبوان صبياً عند بعض الحكام، فخيّره بينهما، فاختار أباه، فقالت له أمه: سله لأي شيء يختار أباه؟ فسأله، فقال: أمي تبعثني كل يوم للكتاب والفقيه يضربني، وأبي يتركني للعب مع الصبيان، فقضى به للأم، قال: أنتِ أحق به. قال شيخنا: وإذا ترك أحد الأبوين تعليم الصبي وأمره الذي أوجبه الله عليه فهو عاصٍ ولا ولاية له عليه. بل كل من لم يقم بالواجب في ولايته، فلا ولاية له، بل إما أن ترفع يده عن الولاية ويقام من يفعل الواجب، وإما أن يضم إليه من يقوم معه بالواجب، إذ المقصود طاعة الله ورسوله بحسب الإمكان، قال شيخنا: وليس هذا الحق من جنس الميراث الذي يحصل بالرحم والنكاح والولاء، سواء كان الوارث فاسقاً أم صالحاً، بل هذا من جنس الولاية التي لا بد فيها من القدرة على الواجب والعلم به وفعله بحسب الإمكان، قال: فلو قدّر أن الأب تزوج امرأة لا تراعي مصلحة ابنته، وأمها أقوم بمصلحتها من تلك الضرّة، فالحضانة هنا للأم قطعاً، قال: ومما ينبغي أن يعلم أن الشارع ليس عنه نص عام في تقديم أحد الأبوين مطلقاً، ولا تخيير الولد بين الأبوين مطلقاً والعلماء متفقون على أنه لا يتعين أحدهما مطلقاً، بل لا يقدم ذو العدوان والتفريط على البر العادل المحسن...»[1].

وخلاصة القول: إنه يقرع بين الأبوين أو يخير الولد بينهما عندما يكونان متقاربين في مصلحة الولد، أما إذا كان أحدهما مصلحاً له والآخر مفسداً فإن الواجب تقديم المصلح على المفسد.

وقد فرّق بين هذا وبين عدم اشتراط عدالة الحاضن ـ أي أن العدالة ليست شرطاً، ولكن الإصلاح شرط ـ فإن اشتراط العدالة فيه ضياع لأطفال العالم، كما قال ابن القيم رحمه الله، لأن أكثر الناس بعيدون عنها، ولكن كثيراً من الفسّاق لا يحاولون إفساد محضونيهم، وإنما يرغبون في صلاح المحضون، ولو كانوا هم أنفسهم فساقاً[2].

---

(١) زاد المعاد (٥/٤٧٥).

(٢) راجع زاد المعاد (٥/٤٦١).

الفرع الثالث:
تمتيع المطلقة التي لم يدخل بها أو لم يسم لها صداق

قال تعالى: ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾.

فالمطلقة التي لم يسمّ لها صداق ولم يدخل بها الزوج لها حق التمتيع بحسب قدرة الزوج، والظاهر أن الذي يحدد به المقدار هو العرف، لقول تعالى: ﴿متاعا بالمعروف﴾ كما أن الظاهر من الأمر الوجوب، وإن قال بعضهم أنه للندب، ورجح كونه للوجوب القرطبي في تفسيره[1].

ولعل المطلع على هذه الحقوق التي شرعها الله للمرأة قبل الزواج وأثناءه وبعد الفراق، يتضح له أن في تطبيقها كما أراد الله ،يجعل المرأة في غاية من الأمن والسعادة للعناية الربانية بها، وأن نساء الأمم الكافرة ليتمنين أن يحصلن على شيء يسير من تلك الحقوق التي تنالها المرأة المسلمة بتنظيم إلهي وأمر عبادي، إن لم يعطها من لها عليه الحق أعطاها القائم على تنفيذ شرع الله.

وهذه الأمور التي ذكرت هنا هي أصول لحقوق المرأة بمنزلة الفهرس العام، أما جزئيات تلك الحقوق وتفريعاتها فقد احتوتها أسفار ومجلدات لعلماء الإسلام.

وبتحقيق هذه المطالب وما تفرع عنها يتحقق للركن الثاني من أركان الأسرة، وهي الزوجة الأمن وعلى الركنين تقوم الأسرة الآمنة المطمئنة.

---

(١) سورة البقرة: ٢٣٦. (٢) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٢٠٠).

المبحث الرابع:
حقوق الأولاد

وفيه ثلاثة عشر مطلباً:

المطلب الأول : السعي في تحصينهم من الشيطان قبل وجودهم.
المطلب الثاني : العناية بهم في أرحام الأمهات
المطلب الثالث : إظهار السرور بهم عند ولادتهم
المطلب الرابع : ذكر الله في آذانهم عند ولادتهم
المطلب الخامس : إشعارهم بالعناية بهم بغذائهم وتمرينهم عليه
المطلب السادس : اختيار الأسماء الحسنة لهم
المطلب السابع : إظهار شكر الله على وجودهم بالذبح عنهم والاحتفاء بهم.
المطلب الثامن : العناية بتنظيفهم وإزالة الأذى عنهم
المطلب التاسع : وجوب إرضاعهم حتى يستغنوا عن اللبن وكفالتهم حتى يكبروا
المطلب العاشر : تعليمهم العلم النافع وتربيهم على العمل الصالح
المطلب الحادي عشر: مراعاة أحوالهم واستعداداتهم وتوجيههم إلى ما يرغبون
المطلب الثاني عشر : تمرينهم على الحركة والعمل وتجنيبهم البطالة
المطلب الثالث عشر : إعفافهم بالنكاح عند الحاجة والمقدرة

تمهيد

إن حفظ النسل ضرورة من الضرورات التي اتفقت عليها الأمم وعنيت بها الشريعة الاسلامية عناية فائقة، فرغبت في النكاح، وحذّرت من الإعراض عنه والزهد فيه، وأحب الرسول ﷺ تكثير النسل، وحُرِّم الإجهاض وقتل الأولاد وحددت عقوبة في الاعتداء على الأجنّة في أرحام الأمهات، وبُيّن ما يعود على الآباء من الخير من أولادهم في الدنيا والآخرة، وذلك كله وغيره دليل على مدى الاهتمام بالأولاد ومحبتهم والاحتفاء بهم ويترتب على ذلك العناية بهم روحياً وعقلياً وبدنياً، وقد فصّل ذلك كله في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وسيرته المطهرة، كما فصل في كتب الفقه في أبواب خاصة، وأفردت له مؤلفات في القديم والحديث[1].

والمقصود هنا الإشارة إجمالاً إلى حقوق الأولاد التي يكونون بها أعضاء آمنين مأمونين يستقيم بهم كيان الأسرة وتقوى آصرتها ويكونون لَبِنَاتٍ متماسكة في بناء المجتمع الاسلامي الكبير.

المطلب الأول:
السعي في تحصينهم من الشيطان قبل ولادتهم

إن عداوة إبليس لابن آدم ممتدة من حين حسد أبا البشر آدم عليه السلام وتسبّب في إخراجه هو وزوجه حواء من الجنة، وهي مستمرة إلى أن تقوم الساعة، ولا يجد أي منفذ يلِج منه لإغواء الإنسان إلّا ولجه لذلك أمر الله الناس بالحذر منه والالتجاء إلى الله من خطواته، قال تعالى عن إصرار الشيطان على إغواء الإنسان بكل طريق: ﴿**قال فأنظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين، قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين**﴾[2].

---

(١) راجع الفصل الثالث من كتابنا: الإسلام وضرورات الحياة.

(٢) سورة الأعراف: ١٤ ـ ١٧.

وأخبر سبحانه وتعالى أن الشيطان لا سلطان له إلّا على من اتبعه ولم يعتصم بالله منه، أما من اعتصم بالله منه فإن الله يحصّنه منه، قال تعالى: **﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتوَلونه والذين هم به مشركون﴾**[1].

ومن فضل الله تعالى على المسلم أن بيّن له وسائل الاعتصام من الشيطان في الكتاب والسنة، في كل مجال من مجالات حياته: في أكله ومشربه ونومه ويقظته ودخوله وخروجه وكل تصرفاته، وأهم وسيلة هي ذكر الله تعالى، ومنه ما أرشد الرسول ﷺ الرجل إذا أراد أن يجامع أهله أن يسمي الله ويستعيذ بالله من الشيطان ويطلب من الله أن لا يجعل له سبيلاً إلى ما يرزقه الله من ولد في ذلك الجماع، وهي عناية من الله تعالى بالإنسان قبل خلقه أرشد إليها أباه حتى يخلق مولوداً سوياً سليماً من آفات الجسد وآفات القلب، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، قال: «أما إن أحدكم إذا أتى أهله، وقال: بسم الله، اللهمّ جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فرزقا ولداً لم يضره الشيطان»[2].

فعلى المسلم أن يبدأ في السعي في تحصين ولده من هذا الوقت المبكر الذي لا يدري أيرزق فيه ولداً أم لا، وهو دليل على أن العناية بالولد من قبل الوالدين تسبق وجوده.

المطلب الثاني:
العناية بالأولاد في أرحام أمهاتهم

إن المرأة التي يطلقها زوجها ثلاثاً تبين منه، وتصبح أجنبية عنه لا تجب لها عليه نفقة ولا سكنى على القول الراجح من أقوال العلماء رحمهم الله. إلّا

---

(١) سورة النحل: ٩٨ ـ ١٠٠، وراجع خطر الشيطان على الإنسان ووسائل مجاهدته في كتابنا: الجهاد في سبيل الله: حقيقته وغايته (١/٣٩٢ ـ ٤٢١).

(٢) البخاري (٤/٩١) ومسلم (٢/١٠٥٨).

إذا كانت حاملاً فإنها تجب لها النفقة بالإجماع[1] قال تعالى: ﴿**وإن كنّ أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن**﴾[2].

وإنما وجبت على الزوج النفقة للحامل التي بانت منه من أجل ولده الذي لا سبيل إلى الإنفاق عليه إلاّ عن طريق الإنفاق على أمه التي يتغذى منها، كما قال ابن قدامة، رحمه الله: «ولأن الحمل ولده، فيلزمه الإنفاق عليه، ولا يمكنه النفقة عليه إلاّ بالإنفاق عليها، فوجب كما وجبت أجرة الرضاع. . »[3] هذا في العناية به من حيث النفقة.

ومن العناية به وقايته مما قد يؤثر على صحته، وهو في رحم أمه ولذا أبيح للحامل إذا خافت على جنينها أن تفطر في رمضان، كالمريض والمسافر وقد أعفاها بعض العلماء من الكفارة دون المرضع، قالوا: «لأن الحمل متصل بالحامل فالخوف عليه كالخوف على بعض أعضائها»، أما المرضع فـ«يمكنها أن تسترضع لولدها»[4] وأدخلوها في قوله تعالى: ﴿**وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين**﴾[5] وقال ابن قدامة، رحمه الله مؤيداً رأي من رأى أن عليها الكفارة كغيرها من ذوي الأعذار: ولنا قوله تعالى: ﴿**وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين**﴾، وهما ـ أي الحامل والمرضع ـ داخلتان في عموم الآية، قال ابن عباس: «كانت رخصة للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة، وهما يطيقان الصيام أن يفطرا ويطعما مكان كل يوم مسكيناً، والحبلى والمرضع إذا خافتا على أولادهما أفطرتا وأطعمتا» رواه أبو داود وروى ذلك عن أبي عمر، ولا مخالف لهما من الصحابة. . . »[6].

ومن العناية بالطفل وهو في رحم أمه تأجيل العقوبة التي تستحقها إذا كان ذلك قد يؤثر على الولد أو تحقق أن العقوبة ستقضي عليه. فقد روى عمران بن حصين، رضي الله عنه، أن امرأة من جهينة، أتت نبي الله ﷺ، وهي حبلى من الزنى، فقالت: يا نبي الله أصبت حداً، فأقمه عليّ، فدعا

---

(١) راجع المغني لابن قدامة (٨/٢٣٢ ـ ٢٣٣). (٢) سورة الطلاق: ٦.

(٣) المغني، كما مضى، وراجع الجامع لأحكام القرآن (١٨/١٦٦ ـ ١٦٧).

(٤) المغنى (٣/١٤٩ ـ ١٥٠). (٥) سورة البقرة: ١٨٤.

(٦) المغنى (٦/١٥٠) والجامع لأحكام القرآن (٢/٢٨٨).

نبي الله ﷺ وليّها، فقال: «أحسن إليها، فإذا وضعت فائتنى بها ففعل، فأمر بها نبي الله ﷺ فَشُكّت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرجمت، ثم صلّى عليها...»[1].

وفي حديث آخر ـ في قصة الغامدية التي اعترفت بالزنى وطلبت منه أن يقيم عليها الحدّ ـ قال لها: «فاذهبي حتى تلدي» فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال: «اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه» فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز، قالت: هذا يا رسول الله قد فطمته وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها...»[2].

المطلب الثالث:
طلبهم وإظهار السرور بهم

إن الأولاد نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى، يهبها ـ كغيرها من النعم ـ لمن يشاء ويمسكها عمن يشاء، ولولا إرادته تعالى وجوده، لما رُزق ذلك أحد، فإن الأسباب لا تنشىء مسبباتها استقلالاً، قال تعالى: ﴿**لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء، يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً، ويجعل من يشاء عقيماً، إنه عليم قدير**﴾[3].

ولما كان الأولاد من نعم الله التي تسرّ الوالدين، بشّر بهم رسل الله من الملائكة رسل الله من البشر، قال تعالى: ﴿**ولقد جاءت رسلنا إبراهيم قالوا سلاماً، قال سلام، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة، قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط، وامرأته قائمة فضحكت فبشّرناها بإسحاق ومن وراءاسحاق يعقوب، قالت يا**

---

(١) مسلم (١٣٢٤/٣).

(٢) مسلم (١٣٢٣/٣)، وراجع كتاب: الجنين والأحكام المتعلقة به في الفقه الإسلامي لمحمد سلام مذكور ص ١٦٥، ٢١٤، ٢٣٢.

(٣) سورة الشورى: ٤٩، ٥٠.

ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب، قالوا أتعجبين من أمر الله، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾[1].

وقال تعالى: ﴿**ونبئهم عن ضيف ابراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً، قال إنّا منكم وجلون، قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم قال أبشرتموني على أن مسّني الكبر فبم تبشرون، قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين، قال ومن يقنط من رحمة ربه إلاّ الضالون**﴾[2].

واستغاث نبي الله زكريا عليه السلام أن يرزقه من يرثه فبشّره الله بغلام، كما قال تعالى: ﴿**قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً، وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهبْ لي من لدنك ولياً، يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً، يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً، قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً، قال كذلك قال ربك هو عليَّ هيّن وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً**﴾[3].

تأمل كيف يتطلع عباد الله الصالحون من الأنبياء والرسل وأهليهم إلى نعمة الأولاد، وكيف ينزل رسل الله من الملائكة بالتبشير بهم ويسمي الله بعضهم من عنده: «اسمه يحيى».

ومن هنا كان الاستبشار بالولد والتبشير به من السنن الإلهية، ولا زال الناس ـ إلاّ من فسدت فطرهم ـ يستبشرون بالأولاد ويسرون بهم،والتبشير إنما يكون بما يسرّ، فمن حق الولد أن يسرّ به أبواه وأسرته، فهو ضيف عزيز جدير بالاحتفاء والترحيب، وفرق بعيد بين ضيف يسرّ به ويحتفى به، وضيف يحس أهل الدار أنه ثقيل عليهم مكروه عندهم يتمنون عدم نزوله بهم، فإذا نزل تمنوا رحيله عنهم، ولهذا ذم الله تعالى من تبرم من الأنثى واستثقلها، لأنه تعالى هو الذي وهبها، كما وهب الذكر، والحياة لا تستمر إلاّ بالذكر والأنثى معاً، كما سبق في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن**

---

(١) سورة هود: ٦٩ ـ ٧٣.   (٢) سورة الحجر: ٥١ ـ ٥٦.

(٣) سورة مريم: ٤ ـ ٩.

يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً﴾[1].

قال تعالى: **﴿وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًّا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألاَ ساء ما يحكمون﴾**[2].

قال ابن القيم رحمه الله: «فقسم سبحانه حال الزوجين إلى أربعة أقسام، اشتمل عليها الوجود، وأخبر أن ما قدره بينهما من الولد فقد وهبهما إياه، وكفى بالعبد تعرضاً لمقته أن يتسخط ما وهبه وبدأ سبحانه بذكر الإناث، فقيل جبراً لهن، لأجل استقبال الوالدين لمكانهما، وقيل [و][3] هو أحسن إنما قدمهن لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء لاما يشاء الأبوان، فإن الأبوين لا يريدان إلاّ الذكور غالباً، وهو سبحانه قد أخبر أنه يفعل ما يشاء، فبدأ بذكر الصنف الذي يشاء ولا يريد الأبوان.

وعندي وجه آخر، وهو أنه تعالى قدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات، حتى كانوا يئدوهن[4] أي هذا النوع المؤخر الحقير عندكم مقدم عندي في الذكر... - إلى أن قال -: والمقصود أن التسخط بالإناث من أخلاق الجاهلية الذين ذمهم الله سبحانه في قوله: **﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشربه أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألاَساء ما يحكمون﴾**[5] وقال: **﴿وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾**[6].

ومن دعاء عباد الرحمن الذين أثنى الله عليهم بعدة صفات: **﴿والذين يقولون ربنا هَبْ لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً﴾**[7].

فإذا كان واهب الولد هو الله إنعاماً على أبويه به، وإذا كان رسل الله في

---

(١) سبقت قريباً في هذا المطلب. (٢) سورة النحل: ٥٨، ٥٩.

(٣) ليست موجودة في الأصل، ولكن السياق يقتضيها.

(٤) هكذا والصواب «يئدونهن» لانه لا يوجد ما يوجب حذف النون من ناصب أو جازم.

(٥) سبق ترقيمها قريباً.

(٦) سورة الزخرف: ١٧، تحفة المودود في أحكام المولود.

(٧) سورة الفرقان: ٧٤.

السماء يبشرون بـه رسله في الأرض فيفرحـون ويستبشرن، وإذا كان عباد الله الصالحون يتطلعون إلى أن يهب الله لهـم الأولاد والـذرية ويسـرون بذلـك، وإذا كان لا يكتئب من بعض الأولاد ـ وهن الإناث ـ إلّا أهل الجاهليـة قديمـاً وحديثاً، فإن هذا كله يثبت انشراح الصدور وابتهاجها وسرورها عند أولياء الله المؤمنين بمـا يهب لهم من الأولاد نعمة منـه وتفضلاً. وعلى هـذا فإن الـولـد الجديد يولد في أمن وطمأنينة لسرور أهله وعنايتهم به.

المطلب الرابع:
ذكر الله في آذانهم عند ولادتهم

شـرع الله تعالى على لسـان رسولـه ﷺ أن يكـون أول صـوت يقـرع آذان الأولاد عنـد ولادتهم هو ذكـر الله الذي يغيظ عدو الله ابليس ويحصّنهم منه، ويطمئنهم أن الذي خلقهم في أرحام أمهاتهم وحفظهم فيها بالغذاء وغيره وهو الله تعالى هو معهم يرعاهم ويحفظهم وهو أكبر من كل شيء وهـو الإله الحق الذي لا يعبد سواه، فالسنة أن يؤذن في آذانهم، كما فعل الرسول ﷺ مع ابن بنتـه الحسن بن علي بن أبي طـالب، رضي الله عنهم، كمـا روى أبـو رافـع رضي الله عنــه، قـال: «رأيت رســول الله ﷺ، أذن في أذن الحسن بن علي حين ولدته فاطمة بالصلاة»[1].

قـال ابن القيم، رحمه الله: «وسـر التأذين، والله أعلم، أن يكـون أول مـا يقرع سمع الإنسان كلماتـه المتضمنة لكبـرياء الـرب وعظمتـه، والشهادة التي أول مـا يدخـل بها في الإسـلام، فكان ذلـك كالتلقين لـه شعار الإسـلام عند دخوله إلى الدنيا، كما يلقن كلمة التـوحيد عنـد خروجـه منها، وغيـر مستنكر وصول أثر التأذين إلى قلبه وتأثره به وإن لـم يشعر، مع ما في ذلـك من فائـدة أخرى، وهي هروب الشيطان من كلمات الأذان، وهو كان يرصده حتى يولد، فيقارنه للمحنة التي قدرهـا وشاءهـا، فيسمع شيـطانه مـا يضعفه ويغيـظه أول أوقات تعلقه به.

وفيـه معنى آخر، وهـو أن تكـون دعـوتـه إلى الله وإلى دين الإسـلام وإلى

(١) أبو داود (٥/٣٣٣) والترمذي (٤/٩٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد (٦/٩).

عبادته سابقة على دعوة الشيطان، كما كانت فطرة الله التي فطر الناس عليها سابقة على تغيير الشيطان لها ونقله عنها ولغير ذلك من الحكم»[1].

قلت: وقد صح أن الشيطان يهرب من الأذان، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى النداء أقبل، حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر، حتى إذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى»[2].

وقد مضى أنه يشرع للرجل إذا أتى أهله أن يذكر الله ويدعوه ليجنبهما الشيطان ويجنب الشيطان ما رزقهما وأن ذلك لا يضره أبداً[3].

المطلب الخامس:
إشعارهم باستمرار العناية بغذائهم وتمرينهم عليه

إن الولد لما كان في رحم أمه، كان يأتيه غذاؤه في دمائها عن طريق الحبل السري، وما كان في حاجة إلى شيء يدخل في جوفه من فمه، وإذا خرج من رحم أمه انقطع عنه هذا الطريق السهل المنظم بالتنظيم الدقيق بقدرة خالقه، فأصبح في حاجة إلى وسيلة أخرى غير الحبل السري الذي يقطع من سرته فور خروجه من رحم أمه، والوسيلة الجديدة هي عن طريق فمه، ولهذا يتحول غذاؤه إلى ثديي أمه اللذين صممهما الله له تصميماً يناسب مصهما بفمه، وليس المقصود هنا بيان هذا الأمر، وإنما المقصود ما شرع الله تعالى بهدي رسوله ﷺ من تحنيك الطفل عند ولادته بشيء من التمر بعد مضغه وترطيبه، ولعلّ في ذلك ـ مع كونه سنة ـ ما يطمئن الطفل ويجعله آمناً على استمرار غذائه، والعناية به، وبخاصة تحنيكه بالتمر الذي ترتفع فيه نسبة الحلاوة التي يتلذذ بها الطفل، وفيه كذلك تمرين له على استعمال وسيلة غذائه الجديدة، وهي المص بالفم ليألفها.

---

(١) تحفة المودود في أحكام المولود ص ١٦. (٢) البخاري (١/١٥١) ومسلم (١/٢٩١).
(٣) راجع المطلب الأول من هذا المبحث.

روت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، أنها حملت بعبدالله ابن الزبير بمكة، قالت: فخرجت وأنا متم، فأتيت المدينة فنزلت قباء، فولدت بقباء، ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها، ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بالتمرة، ثم دعا له وبرك عليه[1]. وكذلك حنك ﷺ غلاماً لأبي طلحة وسمّاه عبدالله[2].

قال الحافظ بن حجر، رحمه الله: «والتحنيك مضغ الشيء ووضعه في فم الصبي، ودلك حنكه به، يصنع ذلك بالصبي ليتمرن على الأكل ويقوى عليه»[3].

المطلب السادس: اختيار الاسم الحسن له

إن اللفظ الحسن ترتاح له النفس ويستسيغه السمع، واللفظ السيء لا يحب الإنسان أن يطرق سمعه ولا أن ينطق به.

وإن الاسم الذي يختاره أبو المولود وأسرته له يلتصق به ويصبح علماً عليه، وقد يصعب تغييره في كبره، فإن كان الإسم حسناً محبباً سُرّ به المسمّى عند كبره وأحب أن يدعى به، وسرّ به غيره - أيضاً - ممن يناديه به أو يسمعه، وإن كان قبيحاً ساءه سماعه حين يدعى به، وساء من يدعوه ومن يسمع النداء به، والمسمّى لا ذنب له في ذلك، لأنه لم يختره لنفسه، لذلك كان المشروع أن يختار له أهله الاسم الحسن الذي يسره ويسرّ غيره، وقد ظهر ذلك في عناية الله بتسمية بعض أنبيائه وفي اهتمام رسول الله ﷺ بتسمية بعض الأطفال عند ولادتهم أو تغيير بعض الأسماء المكروهة.

قال تعالى لزكريا عليه السلام: ﴿**إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً**﴾[4] وسمّى الله تعالى الرسول ﷺ أحمد وبشّر به عيسى عليه

---

(١) البخاري (٦/٢١٦) ومسلم (٣/١٦٩٠). (٢) البخاري (٦/٢١٦) ومسلم (٣/١٦٨٩).
(٣) الفتح: (٩/٥٨٨). (٤) راجع المطلب الثالث من هذا المبحث.

السلام بهذا الاسم، كما قال تعالى: ﴿**وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد**﴾[1].

وكان رسول الله ﷺ يجاء إليه بالمولود فيحنكه ويدعو له ويسمّيه ويسأله عن اسمه، فإن رآه حسناً تركه، وإن لم يعجبه سمّاه كما كان يغير أسماء الكبار إذا كانت قبيحة.

فقد ولدت أسماء بنت أبي بكر، فأخذ رسول الله ﷺ ابنها وحنكه، وصلى عليه (أي دعا له) وسمّاه عبد الله[2].

وكذلك فعل ﷺ بابن أبي طلحة رضي الله عنهما، حنكه وسمّاه عبدالله[3].

وجاء أبو اسيد رضي الله عنه بمولود له إلى النبي ﷺ، فقال: «ما اسمه؟» قال: فلان، قال: «ولكن اسمه المنذر»[4].

وقدم جد سعيد بن المسيب إلى رسول الله ﷺ، فقال له: «ما اسمك؟» قال: اسمي حزن، قال: «بل أنت سهل» قال: ما أنا بمغير اسماً سمّانيه أبي، قال ابن المسيب: فما زالت فينا الحزونة بعد»[5]. وغيّر اسم «عاصية» إلى جميلة»[6] وأمر بعض أصحابه أن يسمي ابنه عبد الرحمن[7]، وروى ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحبّ أسمائكم إلى الله: عبدالله وعبدالرحمن»[8]. وروى أبو الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم، فأحسنوا أسماءكم»[9].

---

(١) سورة الصف: ٦. (٢) راجع صحيح مسلم (١٦٩٠/٣) وما بعدها.

(٣) سبق قريباً في آخر المطلب الخامس.

(٤) البخاري (١١٧/٧) ومسلم (١٦٩٢/٣).

(٥) البخاري (١١٧/٧). (٦) راجع صحيح مسلم (١٦٨٦/٣).

(٧) البخاري (١١٦/٧ ـ ١١٧) ومسلم (١٦٨٤/٣).

(٨) مسلم (١٦٨٢/٣) والترمذي (١٣٢/٥).

(٩) أبو داود (٢٣٦/٥) وحسّنه ابن القيم في تحفة المودود في أحكام المولود (ص ٦٦). وقد بسط في هذا الكتاب الكلام في هذا الباب فراجعه من ص ٦٦ ـ ٨٧.

المطلب السابع:
إظهار شكر الله على هبتهم بالذبح عنهم والاحتفاء بهم

جرت عادة الناس أن يحتفوا بالضيف، وكلما كان أكرم عندهم وأحب إليهم زادوا في إكرامه، وهي سنّة قديمة، ظهرت في كرم إبراهيم عليه السلام حين قدم عجله المحنوذ السمين لضيفه، كما قال تعالى: ﴿**هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً، قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين، فقربه إليهم قال ألا تأكلون**﴾[1].
وقال تعالى: ﴿**ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام، فما لبث أن جاء بعجل** حنيذ﴾[2].

وجاء في نصوص كثيرة الحثّ على إكرام الضيف، بل منها ما دل على وجوب الضيافة وما زال الناس يثنون على الكريم المضياف[3].

وإن هذا الطفل الذي مرّ برحلة طويلة في عالم الرحم، في ظلمات ثلاث لا يرى نور الشمس ولا يرى أمه وهو في بطنها ولا أحد من أسرته، وهم كذلك يعيش بينهم ويأكل من طعامهم ويشرب من شرابهم وهم لا يرونه، لمدة تسعة أشهر في الغالب وقد تزيد وقد تنقص، إن مجيئه لينضم إلى الأسرة التي طال انتظارها له لأحقّ بالإكرام من غيره من الضيف الزائرين الذين قد ألفوا الحياة وألفتهم، لأنه جاء ليكثر سواد الأسرة ويكون لبنة في بنائها، يقوّيها ويتعاون معها على تحقيق أهدافها التي من أهمها تكثير النسل الذي يحبه الله ورسوله ﷺ.

وقد حث الرسول ﷺ على إكرام هذا الضيف شكراً لله على قدمه، كما في حديث سلمان بن عامر الضبي، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مع الغلام عقيقة، فأهريقوا عنه دماً وأميطوا عنه الأذى»[4].

---

(١) سورة الذاريات: ٢٤ ـ ٢٧. (٢) سورة هود: ٦٩.

(٣) راجع كتابنا: الإسلام وضرورات الحياة، الفصل الخامس المبحث السابع، المثال الخامس: حق الضيافة.

(٤) البخاري (٦/٢١٧)، وأبو داود (٣/٢٦١)، والترمذي (٤/٩٧ ـ ٩٨).

وعن يوسف بن ماهك أنهم دخلوا على حفصة بنت عبدالرحمن فسألوها عن العقيقة؟ فأخبرتهم أن عائشة رضي الله عنها أخبرتها أن رسول الله ﷺ أمرهم: عن الغلام شاتان متكافئتان وعن الجارية شاة»[1].

وعن أم كرز الكعبية، رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «عن الغلام شاتان، وعن الجارية شاة»[2].

وعن سمرة، قال: قال رسول الله، ﷺ: «**الغلام مرتهن بعقيقته، يذبح عنه يوم سابعه، ويسمّى، ويحلق رأسه**»[3].

وقد استدل بهذا الحديث من يرى وجوب الذبح عن الطفل. قال ابن القيم، رحمه الله: «فالذبح عن الولد فيه معنى القربان والشكران والغذاء والصدقة وإطعام الطعام عند حوادث السرور العظام شكراً لله وإظهاراً لنعمته التي هي غاية المقصود من النكاح، فإذا شرع الإطعام للنكاح الذي هو وسيلة إلى حصول هذه النعمة، فلأن يشرع عند الغاية المطلوبة أوْلى وأحرى، وشرع بوصف الذبح المتضمن لما ذكرناه من الحكم، فلا أحسن ولا أحلى في القلوب من مثل هذه الشريعة في المولود، وعلى نحو هذا جرت سنّة الولائم في المناكح وغيرها، فإنها إظهار للفرح والسرور بإقامة شرائع الإسلام، وخروج نسمة مسلمة يكاثر بها رسول الله ﷺ الأمم يوم القيامة تعبد الله ويراغم عدوه»[4].

المطلب الثامن:
العناية بتنظيفهم وإزالة الأذى عنهم

شرع أن يحلق رأس الطفل يوم سابعه إيذاناً بالعناية به وإزالة ما يؤذيه، بل

---

(١) الترمذي: (٤/٩٦ ـ ٩٧) وقال: حديث عائشة حديث حسن صحيح.

(٢) أبو داود (٣/٢٥٧) والترمذي (٤/٩٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود (٣/٢٥٩ ـ ٢٦٠).

(٤) تحفة المودود في أحكام المولود ص ٤٠ وهو بيان لما ظهر له رحمه الله من حكمة الشارع في الأمر بالذبح عن الطفل.

وشرع التصدق عنه بوزن شعر رأسه ذهباً أو فضة[1]. وكأنّ في ذلك إشارة إلى فدائه بالمال وعدم التفريط فيه، وأن شعر رأسه الذي يؤذيه بقاؤه فيحلقونه ليس رخيصاً عند أسرته، بل يوزن بالذهب الذي يحرص عليه الناس، كما شرع ختانه، وهو من خصال الفطرة التي حثّ عليها رسول الله ﷺ.

قال ابن القيّم، رحمه الله ـ بعد أن ذكر نصوص خصال الفطرة ـ: «وقد اشتركت خصال الفطرة في الطهارة والنظافة وأخذ الفضلات المستقذرة، التي يألفها الشيطان ويجاورها من بني آدم، وله بالغرلة اتصال واختصاص»[2].

وقال في موضع آخر ـ بعد أن بيّن ان الختان من محاسن الشرائع التي شرعها الله لعباده ـ: «هذا مع ما في الختان من الطهارة والنظافة والتزيين وتحسين الخلقة وتعديل الشهوة التي إذا أفرطت ألحقت الإنسان بالحيوانات وإن عدمت بالكلية ألحقته بالجمادات، فالختان يُعَدِّلُها، ولهذا تجد الأقلف من الرجال والقلفاء من النساء لا يشبع من الجماع... ولا يخفى على ذي الحسّ السليم قبح الغرلة، وما في إزالتها من التحسين والتنظيف والتزيين»[3].

وفي هذا إشارة إلى العناية بنظافة الصبي وإزالة كل الأقذار والفضلات المؤذية له، ما دام غير قادر على قيامه بإزالته بنفسه. وبهذا يأمن الطفل من الأوساخ وما ينتج عنها من أوبئة وأمراض قد تودي بحياته.

المطلب التاسع:
وجوب إرضاعه وكفالته، حتى يستغني بنفسه

قال تعالى: **﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف، لا تكلّف نفس إلاّ وسعها، لا تضارّ والدة بولدها ولا مولود له بولده، وعلى الوارث مثل ذلك، فإن أرادا فصالاً عن تراضٍ منهما وتشاورٍ فلا جُناح عليهما، وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جُناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف، واتقوا**

(١) راجع تحفة المودود ص ٥٧ ـ ٥٩. (٢) تحفة المودود ص ٩٤.
(٣) الكتاب نفسه ص ١١١، والمراد بالغرلة: قلفة الذكر من الجلدة التي تغطي الحشفة.

الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾[1].

لقد كان غذاء الطفل في رحم أمه يأتيه بلا اختيار منها ولا اختيار منه، عن طريق سرّته التي ربط الله له بها حبلاً يوصل إليه به ذلك الغذاء، وإذا كان على أمه حق له في فترة الحمل فهو أن تتناول الغذاء المناسب ولا تهمل نفسها إهمالاً يؤدي إلى الإضرار به، كما أن على أبيه أن ينفق عليها نفقة تكفيها.

ولكنه عندما يتيسر سبيله فيخرج من رحلة الرحم ليبدأ رحلة الأرض ينقطع عنه ذلك الغذاء الاضطراري، ويجب على أبويه أن يقوما بإرضاعه: الأم ترضعه من لبنها الذي حوّله الله إلى ثدييها ليسهل على الطفل تناوله، والأب ينفق عليها ويكفيها بما تحتاج إليه، فإن فقد أبويه أو أحدهما وجب ذلك على من يقوم مقامهما، إما من الأقارب، وإما من ولاة أمور المسلمين.

قال ابن حزم، رحمه الله: «والواجب على كل والدة، حرة كانت أو أَمَة، في عصمة زوج أو في ملك سيد، أو كانت خلواً منهما، لحق ولدها بالذي تولد من مائه أو لم يلحق، أن ترضع ولدها، أحبّت أم كرهت، ولو أنها بنت الخليفة، وتجبر على ذلك، إلاّ أن تكون مطلقة. فإن كانت مطلقة لم تجبر على إرضاع ولدها من الذي طلقها، إلاّ أن تشاء هي، فلها ذلك، أحبّ أبوه أم كره، أحبّ الذي تزوجها بعده أم كره، فإن تعاسرت هي وأبو الرضيع أمر الوالد أن يسترضع لولده امرأة ولا بدّ إلاّ أن لا يقبل الطفل غير ثديها فتجبر حينئذ أحبّت أم كرهت، أحب زوجها إن كان لها أم كره، فإن مات أبو الرضيع أو أفلس، أو غاب بحيث لا يقدر عليه أجبرت الأم على إرضاعه، إلاّ أن لا يكون لها لبن، أو كان لها لبن يضرّ به، فإنه يسترضع له غيرها ويتبع الأب بذلك إن كان حيًّا وله مال...»[2].

---

(١) سورة البقرة: ٢٣٣.

(٢) المحلى (١/٣٣٥) وما بعدها، وقد أطال في ذكر مذاهب الأئمة في وجوب رضاع الطفل على الأم وبين أوجه استدلالهم ورد ما خالف ما ذهب اليه.

وتجب كفالة الطفل حتى يبلغ أشدّه ويقدر على القيام بمصالحه، قال ابن قدامة، رحمه الله: «كفالة الطفل وحضانته واجبة، لأنه يهلك بتركه، فيجب حفظه عن الهلاك، كما يجب الإنفاق عليه وإنجاؤه من المهالك»[1].

المطلب العاشر:
تعليمهم العلم النافع وتربيتهم على العمل الصالح

سبق في مباحث الفصل الأول، والفصل الثاني من الباب الأول ما يغني عن إعادة مباحثهما هنا، وهي صالحة لهذا المطلب، فليراجعها من أراد.

لكننا هنا نشير إلى بعض الخلال التي يجب الحرص عليها في تربية الأطفال، إضافة إلى ما مضى.

فمن ذلك تمرينه الدائم ومتابعته المستمرة على اختيار الجليس الصالح وملازمته، وبعده عن جليس السوء ومخالطته، لما في صحبة الصالحين من قدوة حسنة تجعله يزداد حباً للخير وتعاطيه، ونفوراً عن إتيان الشر ومقاربته، ولما في مجالسة أهل السوء من محبتهم وتقليدهم في شرهم وفسقهم، والعادة جارية على سرعة التأثر بأهل الشر أكثر من التأثر بأهل الخير، وبخاصة الأطفال، فإنهم سرعان ما يحاكون من هو أكثر منهم في الشر.

وقد بيّن الله سبحانه وتعالى شدة ندم من يجالسون أهل السوء ويخالُّونهم ويسيرون في ركابهم، ويتركون مجالسة أهل الخير والسير في صراطهم المستقيم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**ويوم يعضّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً، ويا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً، قد أضلني عن الذكر بعد أن جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً**﴾[2].

وذكر سبحانه وتعالى أن رؤساء الضلال والإضلال يتبرأون يوم القيامة من أتباعهم، وأن أتباعهم يتمنون لو يعودون إلى الحياة الدنيا فيتبرأون من رؤسائهم الذين أضلّوهم، كما تبرأ رؤساؤهم منهم، كما قال تعالى: ﴿**إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب، وقال الذين**

---

(١) المغني (٨/٢٣٧).
(٢) سورة الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩.

اتّبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا، كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم وما هم بخارجين من النار﴾[١].

وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلاً لجليس الصالح وجليس السوء للحثّ على مجالسة الصالحين، والتحذير من مجالسة أهل الشر، كما روى أبو موسى الأشعري، رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «مثل جليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد فيه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً خبيثة»[٢].

ومن ذلك العناية بتعليمهم قراءة القرآن الكريم وتحفيظهم إياه كله إن كانوا قادرين على ذلك، وإلاّ فما تيسر منه، وترغيبهم في المداومة على قراءته وتدبّره وحبه، وأنه كلام الله تعالى يجب امتثال أوامره واجتناب زواجره، والعمل بما فيه والإيمان بما أخبر به من الغيب في الماضي والمستقبل وأن ما وافقه فهو حق، وما خالفه فهو باطل.

وكذلك يعنى بتعليمهم سنّة نبيّهم ﷺ وتحبيبها إليهم، وأن سنته ﷺ كالقرآن يجب الإيمان بما أخبرت به والعمل بما شرعته، وأن كل رأي خالفها فهو باطل، وأن الكتاب والسنّة معصومان عن الزلل بعيدان عن الزيغ والضلال.

وأن الأئمة المجتهدين قاموا بخدمة هذا الدين، علماً وعملاً ودعوة وتعليماً وجهاداً، وعلى رأسهم أصحاب رسول الله ﷺ الذين يجب حبهم واحترامهم وبغض من أبغضهم، وأنه لا يبغض أصحاب رسول الله ﷺ إلاّ أهل الزيغ والضلال، وهكذا أتباع الصحابة من أئمة الإسلام الذين نصروا هذا الدين وحفظوه بتعلمه، وتعليمه، والدعوة إليه، والذبّ عن سنته، ونشرها صحيحة نقيّة من طعن الطاعنين وكذب المفترين، يجب حبهم وموالاتهم والاستعانة بعلومهم ومؤلفاتهم على فهم مراد الله ورسوله وأن صوابهم يغمر ما قد يحصل منهم من خطأ قليل، وهم مثابون على كل حال: على الصواب لهم أجران، وعلى اجتهادهم الذي أخطأوا فيه أجر.

---

(١) سورة البقرة: ١٦٦ - ١٦٧.

(٢) البخاري (٦/٢٣١) ومسلم (٤/٢٠٢٦).

ومن أهم ما يجب أن يُعنى به في تربية الأولاد: تعويدهم على الصدق في القول، واجتناب الكذب، فإن الصدق يُؤْمَن صاحبه، والكذب يلقي من اتصف به في المهالك، ولا يؤتمن على كبير أو حقير، وكيف يأمن الناس الكاذب وفيه خصلة من خصال النفاق؟!

ويجب أن يبين لهم مزايا الصدق وفضائله في الدنيا والآخرة، كما يبيّن لهم مضارّ الكذب كذلك في الدنيا والآخرة.

وقد روى عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إن الصدق يهدي إلى البرّ، وإن البِرّ يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[1].

وروى أبو هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤْتمن خان»[2].

ومن ذلك تمرينهم على أداء الشعائر الدينية من صغرهم، حتى ينشأوا عليها ويعتادوها، فلا يكونون مقصّرين فيها إذا بلغوا أشدّهم، وأصبحوا مكلفين بالخطاب مباشرة يعاقبون على تركها.

فقد أمر الرسول ﷺ وليّ الصبى أن يعلمه الصلاة لسبعٍ ويضربَه عليها لعشرٍ، كما روى عبد الملك بن الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «علّموا الصبيّ الصلاة ابن سبع سنين، واضربوه عليها ابن عشر»[3].

وقد رفعت امرأة صبياً إلى رسول الله ﷺ، فقالت: ألهذا حج؟ قال: «نعم، ولك أجر»[4].

وهكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ يمرنون أبناءهم على الصوم وهم

---

(١) البخاري (٧/٩٥) ومسلم (٤/٢٠١٢). (٢) البخاري (٧/٩٥) ومسلم (١/٧٨).

(٣) الترمذي: (٢/٢٥٩) وقال: . . . حديث حسن صحيح، وأبو داود (١/٣٣٢ - ٣٣٣). وقال المحشى عليه: «وفي المجموع النووي (٣/١٠): حديث سبره صحيح . . .».

(٤) مسلم (٢/٩٧٤) وراجع التمهيد لابن عبد البر (١/٩٤).

صغار، كما في حديث الربيع بنت معوذ بن عفراء، قالت: «أرسل رسول الله ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حول المدينة: «من كان أصبح صائماً فليتم صومه، ومن كان أصبح مفطراً، فليتم بقية يومه» فكنا بعد ذلك نصوم ونصوّم صبياننا الصغار منهم إن شاء الله، ونذهب إلى المسجد، فنجعل لهم اللعبة من العهن، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناها إياه عند الإفطار» وفي رواية: «ونضع لهم اللّعبة من العهن فنذهب به معنا، فإذا سألونا الطعام أعطيناهم اللّعبة تلهيهم حتى يتمّوا صومهم»[1].

ولا شك أن تنشئة الصبيّ بالتعليم والتربية الإيمانية والعبادية تعده ليكون إنساناً صالحاً يقوم بحق الله وحق نفسه وحقوق أسرته وحقوق المجتمع كله، وبذلك يأمنه الناس على أنفسهم ودمائهم وأموالهم وأعراضهم، لأن نشأته على طاعة الله وطاعة رسوله وقيامه بالعبادات التي يقدر على أدائها من صغره تورثه التقوى، والتقوى هي سبيل الأمن.

ومن ذلك تدريبه على الإيثار وأن يحب لغيره ما يحب لنفسه من الخير وأن يعطي ولا يأخذ، وأن يستشعر مسؤوليته في تصرفاته بحيث يجعله ذلك يقدم على ما ينفعه أو ينفع غيره، ويحجم عمّا يضرّه أو يضر غيره.

ولو أن الأسر اهتمت بتربية أبنائها وتعليمهم وتنشئتهم على طاعة الله وطاعة رسوله، مع الإخلاص والتجرّد لله لكان لأولاد المسلمين شأن في نشر الخير والطمأنينة بين البشر في مشارق الأرض ومغاربها، كما كان لأسلافهم في العصور المفضلة.

المطلب الحادي عشر:
مراعاة أحوالهم واستعداداتهم وتوجيههم إلى ما يرغبون فيه من أوجه الاكتساب والأعمال المباحة

إن الواجب الأساس الذي لا يجوز التفريط فيه هو تعليم الأولاد أولاً

(١) مسلم (٢/٧٩٨) والرواية الثانية تبين المعنى المراد من الأولى، أي أعطيناهم إياها يلهون بها حتى يحين الافطار.

فروض العين التي لا يُعذر أحد بتركها، وتلك هي أصول الإيمان وأركان الإسلام، وواجباته، كالطهارة والصلاة والصيام والحج وبر الوالدين ونحوها، فإذا ما علم الصبي ذلك وربّي عليه، نظر وليّه في تصرفاته ورغباته، فإن وجده مقبلاً على علوم الإسلام راغباً في حفظها والتضلع منها، فعليه أن يهيىء له الفرصة بالمعلم الكفء والكتاب والكفاية لكل حاجاته ليفرغه لهذا الغرض العظيم، حتى يصبح من علماء الإسلام ودعاة الحق.

وإن وجده مقبلاً على غير ذلك من الصناعات والمهن الأخرى المباحة غير الدنيئة، وجهّه إلى ما يراه راغباً فيه وأعانه بسبلها التي يتمكن بها من تحصيلها، ولا ينبغي أن يجبره على علم لا رغبة له فيه ولا يرى عنده استعداداً له، فإن ذلك يعوقه ويحرمه من سلوك الطريق الذي خلق مهيّئاً له.

قال ابن القيم، رحمه الله: «ومما ينبغي أن يعتمد حال الصبي وما هو مستعد له من الأعمال ومهيأ له منها، فيعلم أنه مخلوق له، فلا يحمله على غيره، ما كان مأذوناً فيه شرعاً، فإنه إن حمل على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه، وفاته ما هو مهيأ له، فإذا رآه حسن الفهم صحيح الإدراك، جيد الحفظ راعياً، فهذه من علامات قبوله وتهيؤه للعلم، لينقشه في لوح قلبه، ما دام خالياً، فإنه يتمكن فيه ويستقر ويزكو معه، وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه، وهو مستعد للفروسية وأسبابها، من الركوب والرمي واللعب بالرمح، وأنه لا نفاذ له في العلم ولم يخلق له، مكّنه من أسباب الفروسية والتمرن عليها، فإنها أنفع له وللمسلمين، وإن رآه بخلاف ذلك وأنه لم يخلق لذلك، ورأى عينه مفتوحة إلى صنعة من الصنائع مستعداً لها قابلاً لها، وهي صناعة مباحة نافعة للناس، فليمكّنه منها.

هذا كله بعد تعليمه ما يحتاج إليه في دينه، فإن ذلك ميسّر على كل أحد، لتقوم حجة الله على العبد، فإن له على عباده الحجة البالغة، كما له عليهم النعمة السابغة[1].

---

(١) تحفة المودود ص ١٤٤ ـ ١٤٥، وراجع كتاب تنظيم الإسلام للمجتمع، لأبي زهرة ص ١٨٢ طبع دار الفكر العربي.

المطلب الثاني عشر:
تمرينهم على الحركة والعمل وتجنيبهم البطالة والكسل

إنّ خلو وقت الإنسان من الحركة النافعة والعمل المفيد من أعظم الخسران، إذ يضيع عمره أو جزء منه في غير ما خلق له، إما بعدم قيامه بشيء مفيد، كأن يخلد إلى الراحة دون حراك، وإما أن يتحرك فيما يعود عليه وعلى المجتمع بالضرر، وهذا هو الغالب، ولذا حذر الله تعالى من إضاعة العمر في غير فائدة، وأخبر تعالى عن غبن وندم من أضاع عمره في غير عمل صالح، كما قال جلّ وعلا: ﴿**والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور، وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير**﴾[1].

وأخبر النبي ﷺ أن كثيراً من الناس مغبونون في نعمتين عظيمتين إحداهما: الفراغ، كما روى ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[2].

كما أخبر ﷺ أن الله تعالى يسأل ابن آدم عن عمره فيم أفناه يوم القيامة، كما في حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»[3].

وقال ابن القيم رحمه الله: «ويجنبه الكسل والبطالة والدعة والراحة، بل يأخذه بأضدادها، ولا يريحه إلاّ بما يجم نفسه وبدنه للشغل، فإن للكسل والبطالة عواقب سوء ومعبة ندم، وللجد والتعب عواقب حميدة، إما في الدنيا، وإما في العقبى، وإما فيهما، فأروح الناس أتعب الناس، وأتعب الناس أروح الناس، فالسيادة في الدنيا والسعادة في العقبى لا يوصل إليها إلاّ على جسر من التعب»[4].

---

(١) سورة فاطر: ٣٦، ٣٧ (٢) البخاري (٧/١٧٠).

(٣) الترمذي (٤/٦١٢). وقال: هذا حديث حسن صحيح. (٤) تحفة المودود ص ١٤٣.

وإن الذي يتأمل حال شباب المسلمين في هذا الزمان، وما منوا به من البطالة والكسل والراحة الجالبة للميوعة والترهل، بسبب الفراغ الذي أنعم الله به عليهم، فلم يشكروا نعمته بملئه بما يعود عليهم وعلى مجتمعاتهم بالخير في الدنيا والآخرة، وإنما ملؤه باللهو واللعب والمتع المباحة أو المحرمة، حتى أصبح كثير منهم مثل القطعان الحيوانية الضارة لأمن الناس على أموالهم ودمائهم وأعراضهم، الذي يتأمل ذلك يبدو له جليًّا ما عنته نصوص القرآن والسنّة وأقوال العلماء من التحذير من الفراغ والبطالة والكسل، فلا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم.

المطلب الثالث عشر:
إعفافهم بالنكاح عند الحاجة والمقدرة

وإذا كان الولد محتاجاً إلى النكاح، والأب أو من يقوم مقامه قادر على تزويجه، لزمه ذلك، لما فيه من تحصينه وإعفافه عن الوقوع في الحرام، قال ابن قدامة رحمه الله: «ويلزم الرجل إعفاف ابنه، إذا احتاج إلى النكاح، وهذا ظاهر مذهب الشافعي...»[1].

وكذلك يجب أن يزوج ابنته التي بلغت سناً تحتاج فيه إلى النكاح لإعفافها، وأن يلتمس لها الزوج الصالح، فلا فرق بين الابن والبنت في وجوب إعفافهما.

وبهذا يتبين عناية الإسلام بحقوق الأولاد التي إذا قام بها الآباء كانوا بها صالحين آمنين مأمونين يحققون مع الأسرة مجتمعاً صغيراً متماسكاً، ومن الأسر يتكون المجتمع المسلم كله.

---

(١) المغني (٨/٢١٦).

المبحث الخامس:
حقوق السيد والمستأجر على العبد والأجير

اقتضت مشيئة الله وحكمته أن يكون بعض عباده أغنياء وسادة مخدومين، وأن يكون بعضهم فقراء عبيداً أو خادمين، وشرع تعالى للسادة والأغنياء المخدومين حقوقاً على العبيد والخدم، كما شرع للعبيد والخدم حقوقاً على السادة والأغنياء المخدومين.

وفي هذا البحث مطلبان:

المطلب الأول:
طاعة العبد سيده والأجير مستأجره في غير معصية

فالعبد مع سيده شبيه بالولد مع والده، يجب عليه أن يطيع سيده في المعروف، ولا يجوز له أن يعصيه، فإذا عصاه، كان عصيانه نوعاً من الإباق الذي حذر منه الرسول ﷺ، كما في حديث جرير رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيّما عبد أبق فقد برئت منه الذمة»[1].

وفي رواية: «إذا أبق العبد لم تقبل له صلاة»[1]. ووجه الاستدلال من الحديث أن في إباق العبد عن سيده عصياناً له، وقد توعده الرسول ﷺ على هذا الإباق بهذا الوعيد الشديد، وعلى هذا فعصيانه لسيده لا يجوز له وهو معاقب عليه، ولو لم يكن آبقاً، إلاّ أن درجة عقابه تختلف باختلاف معصيته.

المطلب الثاني:
أن يكون العبد والأجير أمينين ناصحين العبد لسيده والأجير لمستأجره، في أهله وماله وعرضه، لا يخونه في شيء من ذلك

فإذا خانه فقد اتصف بصفات المنافقين كما مضى في حديث أبي هريرة،

---

(١) مسلم (١/ ٨٣).

رضي الله عنه[1] بخلاف، ما إذا نصح لسيده أو مستأجره وأدّى ما له عليه بأمانه، فإنه يؤجر أجرين الأول على طاعته ربه، والثاني على نصحه لسيده، وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «للعبد المملوك المصلح أجران» ثم قال أبو هريرة: والذي نفس أبي هريرة بيده لولا الجهاد في سبيل الله والحج وبرّ أمي لأحببت أن أموت وأنا مملوك»[2].

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «إذا نصح العبد سيده، وأحسن عبادة ربه كان له أجره مرتين»[3].

وهكذا يجب أن يكون الخادم مطيعاً لمخدومه في غير معصية، وأن يقوم بما أوجب الله عليه من عمل تعاقد عليه الخادم والمخدوم بإتقان وأمانة واضعاً نصب عينيه أن إتقان عمله إحسان يحبّه الله ورسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿**وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**﴾[4].

وروى شداد بن أوس، رضي الله عنه، قال: «اثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته فلْيُرِحْ ذبيحته»[5].

وفي حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، في روايته حديث جبريل المشهور، قول الرسول ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[6].

وقد حكى الله تعالى عن بنت الرجل الصالح التي طلبت من أبيها استئجار موسى عليه السلام أنها وصفته بصفتين إذا وجدتا في الأجير اطمأن المستأجر على حقوقه كلها، وهما: القوة التي يقدر بها على أداء العمل، والأمانة التي

---

(١) تقدم في المطلب العاشر من المبحث الرابع. (٢) مسلم (١٢٨٤/٣).
(٣) البخاري (١٢٤/٣) ومسلم (١٢٨٤/٣).
(٤) سورة البقرة: ١٩٥. (٥) مسلم: (١٥٤٨/٣).
(٦) البخاري (١٨/١) ومسلم (٣٦/١).

تكون حافزاً له على الوفاء بما اتفقا عليه، كما قال تعالى: ﴿**يا أبت استأجره إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين**﴾[1].

وبأداء العبد والخادم حقوق السيد والمستأجر يتم أمن الأسرة بأداء بعضها حقوق بعض.

---

(1) سورة القصص: ٢٦.

المبحث السادس:
حقوق العبد على السيد وحقوق المستأجر على المؤجر

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول:
تواضع السيد والمستأجر وعدم تكبرهما

إن تواضع السيد مع عبده والمستأجر مع أجيره يشعرهما بالطمأنينة وعدم الحرج من العسر والفقر والرقّ، والتكبر عليهما يوحشهما ويجعلهما يشعران بالاحتقار والسخرية، فتضطرب حياتهما ويعيشان كئيبين حزينين، وقد ذمّ الله تعالى المتكبرين، كما مدح المتواضعين ووعدهم الجزاء الحسن، قال تعالى: ﴿**واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين**﴾[1] وقال في وصف المؤمنين: ﴿**أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين**﴾[2] وقال: ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين**﴾[3].

وفي حديث عياض بن حمار، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال في إحدى خطبه: «وإن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد»[4].

وروى حارثة بن وهب الخزاعي، رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبرّه، ألاَ أخبركم بأهل النار؟ كل عتلّ جوّاظ مستكبر»[5].

وفي حديث أنس رضي الله عنه، قال: كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت»[6].

---

(١) سورة الشعراء: ٢١٥. (٢) سورة المائدة: ٥٤. (٣) سورة القصص: ٨٣.

(٤) مسلم (٤/٢١٩٨). (٥) البخاري (٦/٧٢) ومسلم (٤/٢١٩٠) والجواض الشديد الغليظ.

(٦) البخاري (٧/٩٠).

المطلب الثاني:
أداء المستأجر حق الأجير وعدم ظلمه

إن الظلم محرّم، كما أن العدل واجب، وقد تواتر النهي عن الظلم في الكتاب والسنّة، وإذا كان الظالم يظلم لقوته في الدنيا وقدرته على الظلم، فإن الله تعالى، وهو القادر المطلق الذي لا أقوى منه يأخذ حق الضعيف المظلوم من القوي الظالم إما في الدنيا وإما في الآخرة ولا يجد ذلك الظالم من ينصره من دون الله ﴿**وما للظالمين من نصر**﴾[1].

وقد حذّر الرسول ﷺ من دعوة المظلوم على الظالم وأن تلك الدعوة لا يحجبها عن الله شيء، كما في حديث ابن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: «واتّق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[2].

وفي حديث أبي أمامة الحارثي، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة» فقال له رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: «وإن كان قضيباً من أراك»[3].

وحذّر الله تعالى من لم يعط الأجير أجره تحذيراً شديداً، فجعل نفسه خصماً له، كالغادر وبائع الحر. كما في حديث أبى هريرة الذي يرويه الرسول ﷺ عن ربه، قال: «قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً ولم يعطه أجره»[4].

المطلب الثالث:
العفو عن الخادم، إذا أخطأ وعدم تأنيبه

وقد سنّ رسول الله ﷺ ذلك مع خادمه في أعلى صورة من صور العفو

---

(١) سورة الحج: ٧١.

(٢) البخاري (٢/١٣٦) ومسلم (١/٥٠).

(٣) مسلم (١/١٢٢).

(٤) البخاري (٣/٤١).

والتغاضي، حيث لم يكن يسأل خادمه: لم فعلت أو لمَ لمْ تفعل؟ كما في حديث أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي أفًّا قط، ولا قال لشيء: لم فعلت كذا، وهلاّ فعلت كذا»[1].

وفي حديث عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله، كم تعفو عن الخادم؟ فصمت، ثم أعاد عليه الكلام فصمت، فلما كان في الثالثة، قال: «أعفو عنه في كل يوم سبعين مرة»[2].

المطلب الرابع:
ان ينفق على العبد أو الخادم ويطعمه مما يطعم ويكسوه مما يكتسي

وقد حثّ على ذلك رسول الله ﷺ، كما حثّ على إعانتهم وعدم تكليفهم ما لا يطيقون، كما روى المعرور بن سويد، قال: رأيت أبا ذرّ وعليه حلّة، وعلى غلامه مثلها، فسألته عن ذلك؟ فذكر أنه سابّ رجلاً على عهد رسول الله ﷺ، فعيّره بأمه، فأتى الرجل النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال له النبي ﷺ: «إنك امرؤ فيك جاهلية» قلت: على ساعتي هذه من كبر السن؟ قال: «نعم هم إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليكسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه»[3].

وفي حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صنع لأحدكم خادمه طعامه ثم جاءه به وقد ولّى حره ودخانه فليقعده معه فليأكل، فإن كان الطعام مشفوهاً قليلاً فليضع في يده منه أكلة أو أكلتين»[4].

---

(١) مسلم (١٨٠٤/٤).

(٢) أبو داود (٣٦٢/٥ - ٣٦٣) والترمذي (٣٣٦/٤) وقال: هذا حديث حسن غريب، وقال المحشى على جامع الأصول (٤٨/٨): واسناده حسن، ورواه أبو يعلى باسناد جيد.

(٣) البخاري (٨٠/١ - ٨١) ومسلم (١٢٨٢/٣ - ١٢٨٣).

(٤) مسلم (١٢٨٤/٣) وهو شامل للخادم والعبد.

ومعنى مشفوهاً: كثرت عليه الشفاه، وأكلة أو أكلتين: لقمة أو لقمتين.

وحذّر رسول الله ﷺ من حبس العبد وعدم الإنفاق عليه، كما روى خيثمة رضي الله عنه قال: كنا جلوساً، مع عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، إذ جاءه قهرمان[1] فدخل، فقال: أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال: لا، قال: فانطلق فأعطهم، قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمّن يملك قوته»[2] بل لقد أوجب بعض علماء المسلمين على السيد إعفاف العبد بتزويجه إذا احتاج إلى ذلك لئلا يقع في الحرام»[3].

المطلب الخامس:
بذل السيد جهده في عتق عبيده

قضت سنّة الله الكونية أن يختلف الناس، وأن يتبع ذلك حروب، وأن يغنم المنتصر الأموال ويسبي النساء والذرية ويأسر الرجال ويسترقّ الجميع، وهذا ما كان الناس يفعلونه قبل الإسلام، بل كانت طرق الاسترقاق متعددة، فمن الناس من يسترقّ المرأة، ومنهم من يسترقّ الأجير، ومنهم من يسترقّ ذا لون معين، فلما جاء الإسلام أبطل تلك الطرق كلها، ما عدا طريق الحرب، فقد أبقى جواز استرقاق أسرى الحرب، لأن الكفار كانوا يسترقّون المسلمين إذا أسروهم، فأعطى الله المسلمين حق استرقاق عدوهم معاملة بالمثل.

وقد فتح الشرع الإسلامي أبواباً كثيرة لتحرير الرقيق، ومن ذلك حثّ الرسول ﷺ على العتق ووعده عليه بالجزاء العظيم، كما روى أبو هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجه»[4].

وأوجب الله عتق الرقبة كفارة للقتل الخطأ في ثلاث حالات، لا ينتقل منه إلى غيره إلّا إذا تعذر، تضمنتها الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودية**

---

(1) أي خازنه ووكيله.
(2) مسلم (٢/٦٩٢).
(3) راجع المغني (٨/٢٥٤) لابن قدامة.
(4) مسلم (٢/١١٤٧).

مسلَّمة إلى أهله إلاّ أن يصدقوا، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلَّمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً﴾[1].

وخير من حلف فحنث أن يكفّر بواحدة من ثلاث، منها تحرير رقبة، كما قال تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام﴾[2]. خير في الإطعام والكسوة والعتق ولا ينتقل إلى الصيام إلاّ إذا لم يجد واحدة مما ذكر.

وأوجب سبحانه على من ظاهر من امرأته، ثم أراد إبقاءها زوجة له أن يعتق رقبة، ولا ينتقل منها إلى غيرها إلاّ إذا لم يجدها، قال تعالى: ﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا﴾ الآية[3].

وشرع ﷺ عتق من لطمه سيده كفّارة لتلك اللطمة، كما في حديث ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه»[4].

وفي حديث معاوية بن سويد، قال: لطمتُ مولى لنا فهربتُ، ثم جئت قبيل الظهر، فصلّيت خلف أبي، فدعاه ودعاني، ثم قال: امتثل منه فعفا، ثم قال: كنّا بني مقرن على عهد رسول الله ﷺ، ليس لنا إلاّ خادم واحدة، فلطمها أحدنا، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «اعتقوها»، قالوا: ليس لهم خادم غيرها، قال: «فليستخدموها فإذا استغنوا عنها فليخلّوا سبيلها»[5].

وهذان الحديثان يدلان على أن العبد يجب أن يعيش لدى سيده آمناً من الاعتداء فإن لم يجد لدى سيده الأمن فينبغي للسيد أن يعتقه لينجو من الخوف الذي أصيب به بسبب رقه عنده.

---

(١) سورة النساء: ٩٢.
(٢) سورة المائدة: ٨٩.
(٣) سورة المجادلة: ٣.
(٤) مسلم (١٢٧٨/٣).
(٥) مسلم (١٢٧٩/٣).

وإذا كان العبد مشتركاً بين جماعة، فأعتق أحدهم نصيبه منه عتق سائره، ووجب على المعتق أن يعوض من ماله شركاءه نصيبهم منه، فإن لم يكن للمعتق نصيبه مال، طلب من العبد أن يسعى في تحصيل نصيبهم من غير أن يُشق عليه في ذلك، كما في حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «من أعتق شِقصاً في عبد أعتق كله، إن كان له مال، وإلاّ يستسع غير مشقوق عليه»[1]، أي إن كان للمعتق نصيبهُ مال، فعليه أن يعطي شركاءه نصيبهم، لأن العبد قد تحرر كله بسبب عتقه نصيبه وإن لم يكن للمعتق مال، طلب من العبد أن يسعى في مال الآخرين من الشركاء، وروايات مسلم عن أبي هريرة وغيره توضح هذا المعنى.

وأمر الله تعالى المالكين أن يلبّوا طلب العبيد مكاتبتهم إن علموا فيهم خيراً، والمكاتبة عقد بين العبد والسيد على مال يدفعه العبد منجماً أو دفعة واحدة إن قدر، يعتبر العبد بعد دفع المال حراً، وأُمر السيد أن يعين عبده بإعطائه شيئاً من مال الكتابة أو إنقاص شيء ليتمكن من تحرير نفسه، قال تعالى: ﴿**والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيديكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم**﴾[2].

والظاهر أن الخير المشروط علمه في العبد المكاتب يشمل صلاحه في دينه وأخلاقه، وفي قدرته على الكسب واستغنائه عن الناس به.

ورغب النبي ﷺ في عتق الأمة وتزوجها لرفع قدرها وجعلها ركناً في بناء الأسرة المسلمة، كما روى أبو موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما رجل كانت عنده وليدة فعلّمها فأحسن تعليمها، وأدّبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»[3].

وشرع ﷺ ذلك بفعله، كما شرعه بقوله، كما روى أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ أعتق صفية وجعل عتقها صداقها»[4].

ولقد كان ﷺ لشدة اهتمامه بالرقيق أن أوصى به في آخر لحظات حياته،

---

(١) البخاري (١١٣/٣ ـ ١١٤).
(٢) سورة النور: ٣٣.
(٣) البخاري (١١٣/٣ ـ ١١٤).
(٤) البخاري (١٢١/٦) ومسلم (١٠٤٥/٢).

مع الصلاة، كما في حديث علي رضي الله عنه قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»[1].

تنبيه:

قد يقال: ما الحاجة إلى نقل هذه النصوص للاستدلال بها على أن الإسلام عني بتحرير الرقيق، في عصر لم يعد فيه للرقيق مكان، إذ جاء عصر الحرية وحقوق الإنسان وتحرير الرقيق؟!

والجواب من وجهين:

الوجه الأول: إن الاستعباد في هذا العصر أخذ صوراً أخرى، والمستضعفون فيه أشد ذلاًّ من العبيد الأرقّاء، عصر استعْبَدَتْ فيه دول دولاً وشعوباً، وشركاتٌ قطعاناً من البشر، وأغنياءُ عدداً من الفقراء، وإن لم يسم المستعبد سيداً ولا المستَعبَد عبداً، فالرقّ المذلّ موجود وإن لم يسمّ رقًّا، وهذا الرق أوْلى بالرحمة ومنحه الحرية، لأنه مستعبد بغير وجه مشروع.

الوجه الثاني: أن الرق في الإسلام ما زال مشروعاً إذا وجد سببه وهو الجهاد في سبيل الله، وإذا كان الجهاد في سبيل الله الآن غائباً في أغلب المعمورة فإنه آتٍ بإذن الله على رغم أنف الأعداء الكفار الصرحاء الذين يهاجمون الإسلام من قبل شرعه الجهاد واتهامه بشتى الاتهامات، وعلى رغم أنف أبناء المسلمين الذين نصبوا أنفسهم سدوداً ضد الجهاد في سبيل الله، وإذا جاء الجهاد في سبيل الله وجد الرقيق وإذا وجد الرقيق احتاج إلى تلك التوجيهات الشرعية لتحريره ورحمته والإشفاق عليه.

---

(1) أحمد (١/٧٨) وأبو داود (٥/٣٥٩)، وابن ماجة (٢/٩٠١) قال الشوكاني في نيل الأوطار (٧/٣)، وهو يعلّق على حديث انس الذي بمعناه: حديث أنس اخرجه ايضاً النسائي وابن سعد، وله عند النسائي أسانيد، منها ما رجاله رجال الصحيح.

المبحث السابع:
العدل الأسري

وفيه مطلبان:

المطلب الأول:
العدل بين الأزواج

وفيه ثلاثة فروع:

الفرع الأول:
العدل في المبيت

إن أهم الأمور التي تعتبر أساساً لأمن الأسرة واستقرارها وإبعاد أسباب القلق والاضطراب عنها العدل بين أفرادها، وعدم تفضيل بعضها على بعض، لما في العدل من الإحساس بالرضا، ولما في الجور من جلب الإحن، والشحناء، ولقد عني الكتاب والسنّة وسيرة الرسول ﷺ بالعدل الأسري عناية فائقة.

أمر الله سبحانه وتعالى بالعدل عموماً بين النساء، كما قال سبحانه وتعالى: **﴿فانكحوا ما طالب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم، ذلك أدنى ألّا تعولوا﴾**[1] والعدل المذكور شامل لكل ما يقدر عليه الزوج من مبيت ومعاشرة ونفقة وكسوة وغيرها.

وقد ورد في معنى الآية أحاديث دالّة على وجوب العدل عموماً كما في حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «من كانت له امرأتان، فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل»[2].

---

(١) سورة النساء: ٣.

(٢) أبو داود (٢/٦٠٠) والترمذي (٣/٤٣٨) وقال المحشى على جامع الأصول (١١/٥١٣): وهو حديث صحيح.

وكان الرسول ﷺ يعدل بين نسائه، فلا يفضل إحداهن على الأخرى كما روت عائشة، رضي الله عنها، أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»[1].

وكان ﷺ يقسم لكل امرأة منهن يومها وليلَها، وإذا أراد سفراً أقرع بينهن، فيأخذ من خرج سهمها، كما روت عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها، وكان يقسم لكل إمرأة منهن يومها وليلتها، غير أن سودة بنت زمعة وهبت يومها وليلتها لعائشة زوج النبي ﷺ، تبتغي بذلك رضا رسول الله ﷺ»[2].

وقصة سودة هذه تدل على سقوط حق المرأة في القسمة، إذ رضيت بذلك، وأن للزوج أن يعطي قسمها لمن وهبته من أزواجه، وقد روت عائشة، رضي الله عنها، أن سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة، وكان النبي ﷺ يقسم لعائشة بيومها ويوم سودة»[3].

وكان ﷺ لحبّه لعائشة، أكثر من غيرها يسأل وهو مريض عن أيامه المقبلة رغبة في يومها، ولم يبق عندها على الرغم من مرضه إلاّ بعد أن أذن له أزواجه، كما روت عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان يسأل في مرضه الذي مات فيه: «أين أنا غداً أين أنا غداً؟»: يريد يوم عائشة، فأذن له أزواجه يكون حيث شاء، فكان في بيت عائشة، حتى مات عندها، قالت عائشة: فمات في اليوم الذي كان يدور على فيه في بيتي، فقبضه الله، وإن رأسه لبين نحري وسحري وخالط ريقه ريقي»[4].

وقالت عائشة، رضي الله عنها في قوله تعالى: «وإن إمرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً» قالت: هي المرأة تكون عند الرجل ولا يستكثر منها، فيريد طلاقها ويتزوج غيرها، تقول له: امسكني ولا تطلقني، ثم تزوج غيري، فأنت

---

(١) الترمذي (٤٣٧/٣) وأبو داود (٦٠١/٢) وقال المحشى على جامع الأصول (٥١٤/١١): وهو حديث صحيح.

(٢) البخاري (١٣٥/٣ - ١٣٦)

(٣) البخاري (١٥٤/٦) ومسلم (١٠٨٥/٢). (٤) البخاري (١٥٥/٦) ومسلم (١٨٩٣/٤).

في حلّ من النفقة والقسمة لي، فذلك قوله تعالى: ﴿فلا جناح عليهما أن يصّالحا بينهما صلحاً والصلح خير﴾[1].

الفرع الثاني
العدل بينهن في النفقة والكسوة

وهل يجب أن يسوي بينهن في كل شيء من الكسوة والنفقة ونحوهما بحيث إذا أعطى إحداهن شيئاً من المال أو الكسوة لحاجتها إليه يجب أن يعطي غيرها مثل ذلك ولو لم تكن محتاجة إلى ذلك؟

قد يستدل على أن ذلك واجب بعموم النصوص، إلاّ أن في ذلك مشقة قد لا يقدر عليها الزوج، وتعليق الوجوب بالحاجة أوْلى، بل ذهب بعض الفقهاء إلى أن التسوية الواجبة إنما هي في الكفاية، لكل واحدة منهن ولا تضر بعد ذلك المفاضلة، قال ابن قدامة، رحمه الله: «وليس عليه التسوية بين نسائه في النفقة والكسوة، إذا قام بالواجب لكل واحدة منهن، قال أحمد في الرجل له امرأتان، له أن يفضّل إحداهما على الأخرى في النفقة والشهوات والسكنى إذا كانت الأخرى في كفاية، ويشتري لهذه أرفع من ثوب هذه وتكون تلك في كفاية، وهذا لأن التسوية في هذا كله تشق، فلو وجب لم يمكنه القيام به إلاّ بحرج، فسقط وجوبه، كالتسوية في الوطء»[2].

قلت: الذي يظهر من هذا النص أن الرجل قد تكون إحدى نسائه ساكنة في منزل يكفيها، فيحتاج إلى منزل للأخرى، فلا يتمكن بسهولة من إيجاد منزل مساوٍ لمنزل الساكنة من كل وجه، بل قد يجد منزلاً أحسن منه أو أقل، فلا يجب عليه البحث عن منزل مساوٍ، بل يشتري المنزل الذي تيسّر له أو يستأجره، لما في تكليفه البحث عن منزل مساوٍ من المشقة والحرج، وكذلك قد تكون إحدى نسائه عندها ما يكفيها من اللباس وتكون الأخرى في حاجة إلى لباس، فلا يجب عليه أن يبحث عن نوع اللباس الذي يوجد عند التي لا حاجة لها الآن في اللباس ليشتري منه للمرأة المحتاجة، بل يشتري لها من

---

(١) البخاري (٦/١٥٣).
(٢) المغني (٧/٣٠٥ ـ ٣٠٦).

النوع المتيسر، وقد يكون أجود أو أردأ، وهكذا ما يحصل للأخرى عند حاجتها، وبذلك تحصل التسوية بينهن في الجملة، وليس في كل شيء بالتفصيل.

ومثل السكنى النفقة، فقد يكون عند إحداهن ما يكفيها من أنواع الأطعمة، والأخرى محتاجة، فله أن يشتري لها ما أراد من الطعام ولو لم يكن مثل طعام ضرتها، والمهم أن يراعي حاجة كل منهن.

ومع ذلك ينبغي أن يحاول أن لا يكون الفرق بين ما يعطي هذه أو تلك كبيراً ملفتاً للنظر، خشية من الحزازات والضغائن التي قد تحدث بسبب ذلك بين الضرات أو بينهن وبين الزوج، وليسدد ويقارب حسب استطاعته.

هذا الذي ينبغي أن يفهم من كلام ابن قدامة رحمه الله ومن النص الذي استشهد به للإمام أحمد رحمه الله، ولا ينبغي أن يفهم من ذلك أن للزوج تفضيل إحدى نسائه على الأخريات باستمرار وبدون سبب، فإن ذلك يخالف النصوص الواردة في العدل بين الأزواج.

الفرع الثالث:
العدل بين الأزواج في الحكم

وقد سنَّ ذلك رسول الله ﷺ في قصة طريفة وقعت بين اثنتين من نسائه، كما رواها أنس رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي ﷺ في بيتها يد الخادم فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبي ﷺ فلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها لاطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: غارت أمكم، ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت فيها»[1].

(١) البخاري (٦/١٥٧) والترمذي (٣/٦٣١) وفيه، فقال النبي ﷺ: «طعام بطعام وإناء بإناء» وأبو داود (٣/٨٢٦..).

وفي رواية عائشة رضي الله عنها بيان بأن صاحبة الصفحة المكسورة هي صفية، وأن عائشة هي التي كسرتها، قالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت صانعاً طعاماً مثل صفية، صنعت لرسول الله ﷺ طعاماً فبعثت به، فأخذني أفكل[1] فكسرت الإناء فقلت: يا رسول الله ما كفارة ما صنعت؟ قال: «إناء بإناء وطعام مثل طعام»[2].

هذا وليعلم أن الأسرة في الفقه الاسلامي شاملة للزوجين ولجميع الأقارب الذين يعيشون في منزل واحد أو منازل متقاربة أو متباعدة، وليست خاصة بالآباء والأولاد المباشرين كما قد يظن ذلك، فهي تشمل الأبوين وآباءهم وأجدادهم وجداتهم كما تشمل الأولاد وأولادهم، وإخوان الآباء وإخوانهم، وإخوان الأم وأخواتها، وأبناءهم وبناتهم، وكل ذلك مفصل في كتب الفقه في النفقات والولايات والمواريث وغيرها[3].

وقال محمد أبو زهرة، رحمه الله: «كلمة الأسرة في الإسلام أوسع مدى من الأسرة في القوانين الأخرى، فإن الأسرة في الإسلام تشمل الزوجين والأولاد الذين هم ثمرة الزواج وفروعهم، كما تشمل الأصول من الآباء والأمهات، فيدخل في هذا الأجداد والجدات، وتشمل أيضاً فروع الأبوين، وهم الإخوة والأخوات وأولادهم، وتشمل أيضاً فروع الأجداد والجدات، فيشمل العم والعمة وفروعهما، والخال والخالة وفروعهما، وهكذا كلمة الأسرة تشمل الزوجين وتشمل الأقارب جميعاً، سواء منها الأدنون وغير الأدنين، وهي حيثما سارت أوجدت حقوقاً وأثبتت واجبات، وتتفاوت مراتب هذه الحقوق بمقدار قربها من الشخص وبعدها عنه، فالحقوق التي للأقارب الأقربين أقوى من الحقوق التي تكون لمن هم أبعد منهم، وهكذا. . .»[4].

وبهذا المفهوم للأسرة يمكن أن تكون بعض القبائل أسرة واحدة على كل فرد منها حقوق لمن قرب منه؛ وله حقوق كذلك.

---

(١) رعدة شديدة بسبب الغيرة، راجع النهاية في غريب الحديث.

(٢) أبو داود (٣/٨٢٧ ـ ٨٢٨).

(٣) راجع كتاب المغني لابن قدامة: (٨/٢١٢) وما بعدها.

(٤) تنظيم الاسلام للمجتمع ص ٦٣.

المطلب الثاني:
العدل بين الأولاد

العدل بين الأولاد يجعلهم يطمئنون إلى آبائهم ويقوي رابطتهم بهم، كما يمرّنهم على مراعاة حقوق بعضهم على بعض وعدم الاعتداء من بعضهم على بعض، لأن الوالدين هما القدوة الأولى للأولاد، فإذا رأى الأولاد من الآباء الاتصاف بالعدل دفعهم ذلك إلى الاقتداء بهم فاتصفوا به.

والمفاضلة بين الأولاد بغير سبب تجعل المفضول يحقد على والده وعلى أخيه الذي فضّل عليه، كما تجعل الأولاد كلهم يقلدون والدهم في ذلك، ويطمعون في المفاضلة باستمرار.

ولقد حسم الرسول ﷺ هذا الأمر وشدّد فيه، فأنكر على من فضّل بعض أولاده على بعض، وأمر بالعدل، وسمّى التفضيل جوراً.

كما في حديث النعمان بن بشير، رضي الله عنهما، أن أباه أعطاه عطية، فقالت عمرة بنت رواحة (أم النعمان بن بشير): لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطيّة، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله، قال: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟» قال: لا قال: «فاتقوا الله، واعدلوا بين أولادكم» فرجع فرد عطيته.

وفي رواية: فقال رسول الله ﷺ: «فارجعه».

وفي رواية: «فلا تشهدني إذاً، فإني لا أشهد على جور».

وفي رواية: «فأشهد على هذا غيري» ثم قال: «أيسرك أن يكونوا إليك في البرّ سواء؟» قال: بلى، قال: «فلا إذاً».

وفي رواية: «فلا يصلح هذا، وإني لا أشهد إلّا على حق»[1].

وألفاظ الحديث واضحة في وجوب التسوية بين الأولاد، وفي أن المفاضلة بينهم بدون سبب مشروع، ظلم وباطل، وقد أكد ذلك بالأمر بالتقوى والعدل، والأمر بردّ العطية، وبأنه لا يشهد إلّا على حق وأنه لا يشهد على

---

(١) البخاري (٣/١٣٤) ومسلم (٣/١٢٤١) والروايات الأربع المذكور له.

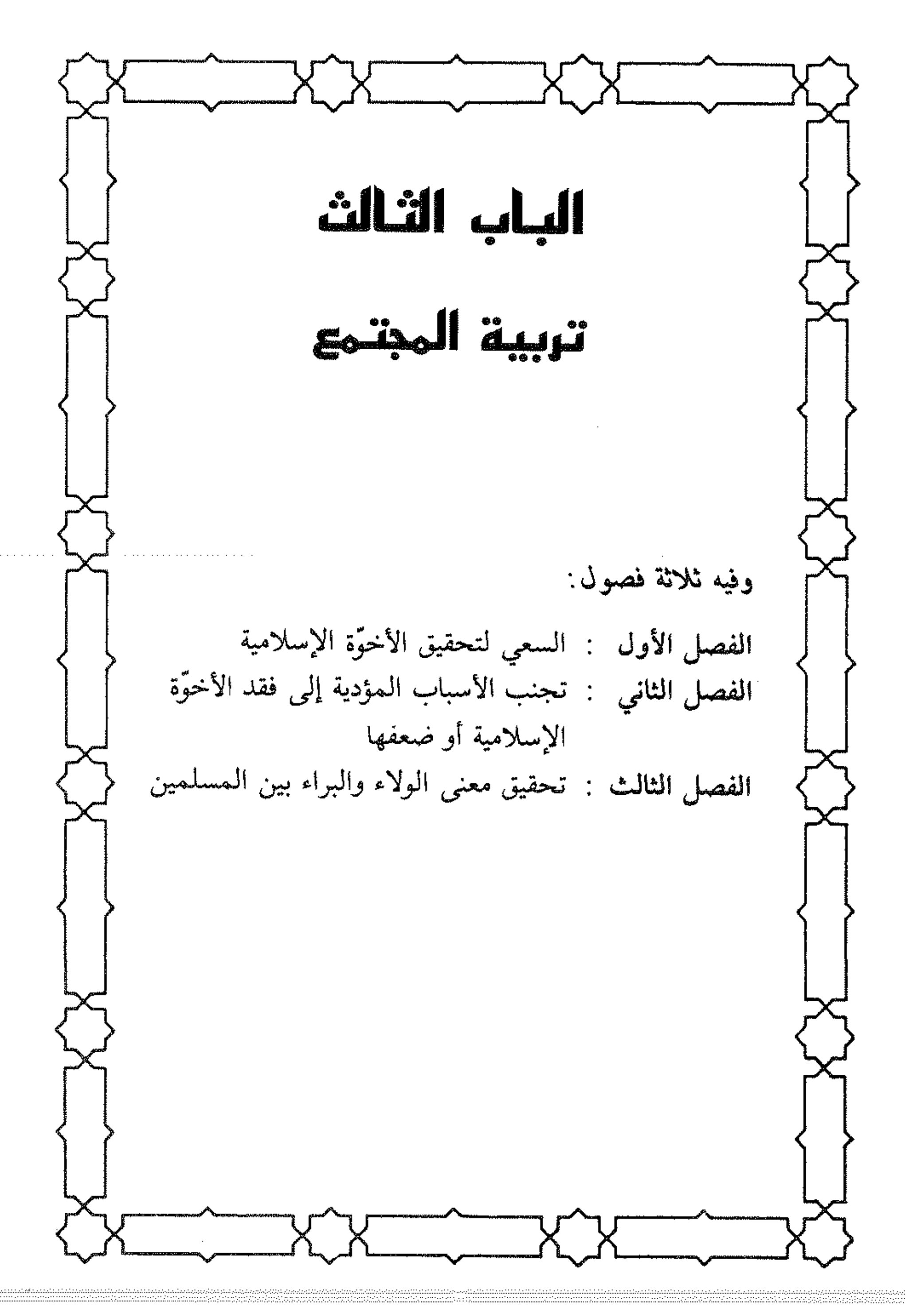
جور، وهذه الأمور لو فرضنا أن الأمر بإطلاقه لا يدل على الوجوب ـ وإن كان ذلك مرجوحاً ـ فإنها قرائن تمحض الأمر هنا للوجوب بدون أدنى شك، وهذا يرد قول من ذهب إلى أن المفاضلة مكروهة فقط، وليست بحرام[1].

وبهذا ينتهي هذا الباب المتعلق بتربية الأسرة، وقد حاولت الاختصار ما استطعت، كما حاولت الاكتفاء ببعض الأمور المتعلقة بذلك ولم أتعرض للتفريعات خشية الإطالة.

وذلك ـ كما ترى ـ جدير بتثبيت الأمن والاستقرار في حياة الأسرة لو طبق حق التطبيق، لما فيه من قيام كل فرد من أفراد الأسرة بحقوق الآخرين وعدم الاعتداء من بعضهم على حقوق بعض.

---

(١) راجع شرح النووي على مسلم (١١/٦٦).



الباب الثالث

تربية المجتمع

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول : السعي لتحقيق الأخوّة الإسلامية

الفصل الثاني : تجنب الأسباب المؤدية إلى فقد الأخوّة الإسلامية أو ضعفها

الفصل الثالث : تحقيق معنى الولاء والبراء بين المسلمين

الفصل الأول:
السعي لتحقيق الأخوّة الاسلامية

وفيه تمهيد وثمانية عشر مبحثاً:

المبحث الأول : المحبة في الله
المبحث الثاني : التزاور والتواصل
المبحث الثالث : الدعوة إلى الطعام وإجابتها
المبحث الرابع : إعانة المحتاجين والضعفاء
المبحث الخامس : إفشاء السلام
المبحث السادس : طلاقة الوجه وطيب الكلمة
المبحث السابع : التواضع وقبول الحق
المبحث الثامن : العفو والسماحة، ودفع السيئة بالحسنة
المبحث التاسع : الإيثار
المبحث العاشر : حسن الظن
المبحث الحادي عشر : نصر المظلوم
المبحث الثاني عشر : ستر المسلم
المبحث الثالث عشر : تعليم الجاهل والرفق به
المبحث الرابع عشر : الإحسان إلى الجار
المبحث الخامس عشر : حب الطاعات وبغض الفواحش
المبحث السادس عشر : أداء الواجبات والحقوق
المبحث السابع عشر : الصدقة الجارية
المبحث الثامن عشر : النصح لكل مسلم



تـمـهـيـد:

إن الأسـر تتكون من الأفـراد، والمجتمع يتكـون من الأسر، وقـد سبق في البابين الأول والثاني، تربية كل من الفرد والأسرة. وفي هذا الباب إيجاز لبيان تربية المجتمع.

وممـا لا شك فيـه أن المجتمع الـذي يتكون أفـراده وأسره ممن رُبّـوا على الإسلام تربية سليمة يكون مجتمع خير وصلاح وتعـاون، لأن كل فـرد فيه قـد علم ما له وما عليه، وزكّى نفسه بطاعـة ربه حتى أصبحت تؤدي مـا عليها من واجبات عن رضا واطمئنان، وأصبح كل فرد آمنـاً على نفسه ومـاله وعـرضه، وبذلك يكون المجتمع كله مجتمع أمن واستقرار.

والمقصـود هنا بيـان الأمور التي يـزداد بهـا المجتمـع تمـاسكـاً واطمئنـانـاً لاشتراك أعضائه في التعامل بفروعها.

وأساس ذلك أن يحققوا فيما بينهم الأخوة الإسلامية التي عدها الله سبحانه وتعالى من أعظم نعمه التي امتن بها على عباده، وهي نعمة لا تضاهيها نعمـة الأخوة النسبية إذا فقدت أخوة الإسلام من ذويها.

قال تعالى: **﴿يـا أيها الـذين آمنوا اتقـوا الله حق تقاتـه ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفـرقوا واذكـروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فـأصبحتم بنعمته اخـواناً وكنتم على شفـا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾**[1].

أمـر الله سبحـانـه المؤمنين في هـاتين الآيتين أن يحـرصـوا على دينهم ويحفظوه حتى يموتـوا عليه، كمـا أمرهم بـالاجتماع عليـه وعدم التفرق فيه، وأمرهم أن يذكروا نعمته عليهم بهذا الدين الذي جمعهم به بعد فرقـة، وألّف

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٢، ١٠٣.

بـه بين قلوبهم بعد نفـرة، وحقق لهم به الأخـوة الإيمانيـة التي أثمـرت بينهم المحبة والود، بعد أن فشلت أخوة النسب وحدها عن تحقيق ذلك.

قال ابن جرير الطبري، رحمه الله: «قـال ابن إسحاق: كـانت الحرب بين الأوس والخـزرج عشرين ومـائـة سنـة، حتى قـام الإسـلام وهم على ذلـك، فكـانت حربهم بينهم، وهم إخـوان لأب وأم، فلم يسمع بقـوم كان بينهم من العداوة والحرب ما كان بينهم، ثم إن الله عز وجل أطفـأ ذلك بـالإسلام وألّف بينهم برسوله محمد ﷺ، فذكّرهم جـل ثناؤه إذ وعـظهم، عظيم مـا كانـوا فيه في جاهليتهم من البلاء والشقاء، بمعاداة بعضهم بعضاً وقتل بعضهم بعضـاً، وخـوف بعضهم من بعض، وما صـاروا إليه بـالإسـلام واتبـاع الـرسـول ﷺ، والإيمان به، وبما جاء به من الائتلاف والاجتمـاع، وأمن بعضهم من بعض، ومصير بعضهم لبعض إخواناً»[1].

وذكر رحمه الله ـ قبل هذا ـ عن قتادة قوله: (قولـه تعالى: **﴿واذكـروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعـداء فألف بين قلوبكم﴾**: كنتم تـذابحون فيهـا، يـأكـل شديدكم ضعيفكم، حتى جاء الله بالإسـلام فآخى بـه بينكم وألّف به بينكم، أما والله الذي لا إله إلاّ هو، إن الألفة لرحمة، وإن الفرقة لعذاب»[2].

يظهر من الآية الكريمـة وما قيـل فيها أن الأمن الحق في الأخـوة الإيمانيـة والخـوف والقلق في فقدهـا، فإذا أراد المسلمـون أن يحققوا الأمن فليحققـوا الاخوة الإيمانية، على هدى من الله ونور.

وقـال تعـالى: **﴿إنمـا المؤمنـون إخـوة فـأصلحـوا بين أخـويكم لعلكم ترحمون﴾**[3]. قال القرطبي رحمه الله: قولـه تعالى: **﴿إنما المؤمنون إخـوة﴾** أي في الدين والحرمة، لا في النسب، ولهذا قيل: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فـإن أخوة النسب تنقـطع بمخالفـة الـدين، وأخـوة الـدين لا تنقـطع بمخالفة النسب...»[4].

وقـال سيد قـطب، رحمه الله: «وممـا يترتب على هـذه الأخـوة أن يكـون

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤/٣٣ ـ ٣٤). (٢) المصدر نفسه.
(٣) سورة الحجرات: ١٠. (٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦/٣٢٢).

الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة، وأن يكون الخلاف أو القتال، هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه، وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف، وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة، وهو إجراء صارم وحازم كذلك»[1].

فلا بد هنا من بيان ما يترتب على الأخوة الإسلامية من مصالح تحقق للمجتمع الإسلامي أمنه وتماسكه وسعادته في الدنيا والآخرة، وبيان ما يناقض ذلك، مما تفقد معه الأخوة الإسلامية أو تضعف، وما يجلبه فقدها من فرقة وخوف وهوان.

فلنبدأ بمباحث هذا الفصل، وهو تعاطي الأسباب التي تحقق الأخوة الإسلامية، وهي ثمانية عشر مبحثاً.

---

(٣) في ظلال القرآن (٢٦/٣٣٤٣).

المبحث الأول:
المحبة في الله

وذلك أن يظلل أفراد المجتمع حب بعضهم لبعض، حباً يقصد به وجه الله تعالى، لا لغرض من أغراض الدنيا الزائلة، فإن الحب في الله يدوم، لدوام سببه، بخلاف الحب من أجل غرض مادي، فإنه يزول بزوال ذلك الغرض.

ولقد جعل النبي ﷺ الحب من أجل الله وحده إحدى الخصال التي توجد بها حلاوة الإيمان، كما روى أنس، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «ثلاث من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلاّ لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[1].

فمحبة المؤمن لأخيه المؤمن هي في حقيقتها ناشئة من حبه لله ولرسوله ﷺ ولدينه، كما يفهم من حديث أنس السابق الذي جمع بين تلك الأمور: حب الله ورسوله، وتقديمه على كل محبوب وحب المسلم أخاه المسلم لله تعالى، وكراهة الكفر المتضمنة لحب دين الإسلام.

وقد جعل الرسول ﷺ المتحابين في الله من السبعة الذين يُظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «سبعة يظلّهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه» وذكر منهم «ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه»[2].

وينال المتحابون في الله كرامة ربهم وعنايته بهم، فيناديهم أمام الأشهاد لبيان ارتفاع درجاتهم وعظم شأنهم، ويمنحهم ظلّه الظليل الذي يكون الناس في أشدّ الحاجة إليه، جزاءً وفاقاً استظلوا بحبه وحب رسوله وعباده المؤمنين في الدنيا، فأظلّهم بظلّه في الآخرة، كما في حديث أبي هريرة رضي الله

---

(١) البخاري (١/٩ - ١٠) ومسلم (١/٦٦).
(٢) البخاري (١/١٦٠ - ١٦١) ومسلم (٢/٧١٥).

عنـه، قال: قـال رسول الله ﷺ: «إن الله يقـول يوم القيـامة: أين المتحـابـون بجلالي؟ اليوم أظلّهم في ظلّي يوم لا ظلّ إلا ظلّي»[1].

والمؤمن الذي يحب أخاه المؤمن في الله قد بشّر بحب الله له وهو حي في الدنيا قبل أن ينتقل إلى الدار الآخرة، كمـا روى أبو هـريرة، رضي الله عنـه، عن النبي ﷺ: «أن رجلاً زار أخاً له في قرية، فأرصـد الله له على مـدرجته[2] ملكاً، فلما أتى عليه، قال: أين تـريد؟ قـال: أريد أخـاً لي في هذه القـرية، قـال: هل لـك عليه من نعمـة تربهـا؟ قال: لا، غيـر أني أحببتـه في الله عـزّ وجلّ، قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك، كما أحببته فيه»[3].

والمحبة الخالصة في الله سبحانه وتعالى عزيزة نـادرة لا توجـد إلاّ لأولياء الله المتقين الـذين أخلصوا النيـة لله تعـالى في القـول والعمـل وجعلوه نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، وإلاّ فأغلب الناس لا يحب أخاه إلاّ لما يـرجوه منـه من نفـع، وأفضل المحبين من أحب أخـاه المؤمن لمصلحة دينيـة، كتعليم العلم والإرشاد إلى طاعة الله ونحوها، وأفضل هؤلاء من جـرد محبته لأخيـه المؤمن لوجه الله الكريم، وإذا تمكنت محبة المؤمنين بعضهم لبعض من قلوبهم سـاد بينهم الأمن والاطمئنان ورفرفت على ربـوعهم السعادة لأن المحب يسعى في صلاح من يحب وجلب الخير له، ودفع مـا يضره عنـه، كل واحـد منهم آمن ومأمون.

ولما كان الأحبّـة يأمن بعضهم بعضـاً شرع للمـرء إذا أحب أخاه أن يخبـره بذلك، لتزداد الألفة ويتمكن الأمن في قلب أخيه، فقد روى أنس بن مـالك، رضي الله عنـه، أن رجـلاً كـان عنـد النبي ﷺ، فمـر به رجـل، فقـال: يارسول الله، إني لأحبّ هذا، فقال له النبي ﷺ: «أعلمته؟» قـال: لا، قال: «أعلمه» قال: فلحقه، فقال: إني أحبك في الله، فقال: أَحَبَّك الذي أحببتني له»[4].

---

(١) مسلم (١٩٨٨/٤). (٢) أي أقعد له على طريقه ملكا.

(٣) مسلم (١٩٨٨/٤).

(٤) أبـو داود (٣٤٤/٥) وهو في شرح السنـة للبغوي (٦٦/١٣ ـ ٦٧) قـال المحشي عليه: أسناده حسن.

المبحث الثاني:
التزاور والتواصل

إن زيارة المسلم لأخيه المسلم قاصداً بها وجه الله من القرب التي يحبها الله ويحب فاعلها، وقد سبق قريباً قصة الرجل الذي أرصد الله له ملكاً على مدرجته عندما زار أخاً له في الله.

وروى معاذ بن جبل رضي الله عنه للرجل الذي قال له: «والله إني لأحبك في الله» فقال له ـ بعد أن استحلفه: أبشر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ»[1].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إذا عاد المسلم أخاه أو زاره، قال الله تبارك وتعالى: طبت وطاب ممشاك وتبوأت في الجنة منزلاً»[2].

وقال الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، رحمه الله: «قلت: زيارة الأخوان مستحبة، وينظر الزائر في ذلك، فإن رأى أخاه يحب زيارته ويأنس به، أكثر زيارته والجلوس عنده، وإن رآه مشتغلاً بعمل، أو رآه يحب الخلوة، يقلّ زيارته، حتى لا يشغله عن عمله، وكذلك عائد المريض، لا يطيل الجلوس عنده، إلاّ أن يكون المريض يستأنس به»[3].

وزيارة المريض قد حثّ عليها الرسول ﷺ، وهي من الزيارات التي تزيد في المحبة بين الزائر والمزور وأهله، لما فيها من المواساة وإشعار المريض

---

(١) الموطأ (٢/٩٥٣ ـ ٩٥٤) وقال محققه: محمد فؤاد عبدالباقي: هذا الحديث صحيح، قال الحاكم على شرط الشيخين، وقال ابن عبدالبر: هذا اسناد صحيح.

(٢) المسند (٢/٣٢٦) والترمذي (٤/٣٦٥) وقال: هذا حديث حسن غريب وابن ماجه (١/٤٦٤) وقال محقق شرح السنة للبغوي: وفي سنده أبو سنان عيسى بن سنان، وهو لين الحديث، ومع ذلك فقد صححه ابن حبان.

(٣) شرح السنة (١٣/٥٩).

بالعناية به ومتابعة أحواله وتمني زوال ما به، وقد أمر بعيادة المريض الرسول ﷺ وعدّها من حقوق المسلم على أخيه كما روى البراء رضي الله عنه، قال: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع: أمرنا باتّباع الجنائز وعيادة المريض. . . » الحديث[1].

وروى أبو هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «حق المسلم على المسلم خمس: «ردّ السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس»[2].

وروى ثوبان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من عاد مريضاً لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع»[3].

وقد كان رسول الله ﷺ يعود المرضى مع أصحابه، ليكون قدوة بفعله، مع أمره بذلك، كما روى عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ، إذ جاءه رجل من الأنصار، فسلّم عليه، ثم أدبر الأنصاري، فقال رسول الله ﷺ: «يا أخا الأنصار كيف أخي سعد بن عبادة؟» فقال: صالح، فقال رسول الله ﷺ: «من يعوده منكم؟» فقام وقمنا معه، ونحن بضعة عشر، ما علينا نعال ولاخفاف ولا قلانس ولا قمص، نمشي في تلك السباخ، حتى جئناه، فاستأخر قومه من حوله حتى دنا رسول الله ﷺوأصحابه الذين معه»[4].

ولا يعلم قيمة الزيارة وعيادة المريض إلّا من كابد الوحشة في صحته أو مرضه، فبقي وحيداً لا يسأل عنه أحد. وما أكثر هذا في بلاد الكفر وفي بعض البلدان الإسلامية التي ابتعد أهلها عن آداب الإسلام.

---

(١) البخاري (٧٠/٢) ومسلم (١٦٣٥/٣).
(٢) البخاري (٧٠/٢) ومسلم (١٧٠٤/٤).
(٣) مسلم (١٩٨٩/٤) والمراد بخرفة الجنة ما يخترف من ثمارها كما يخترف من النخل حين يدرك، راجع الحاشية على الحديث في مسلم.
(٤) مسلم (٦٣٧/٢).

المبحث الثالث:
الدعوة إلى الطعام وإجابتها

ومن السنن المشروعة الجالبة للمحبة أن يصنع المسلم طعاماً ويدعو إليه من قدر على دعوته من إخوانه لتناوله، وبخاصة في المناسبات، كوليمة العرس، والذبح عن المولود، وهو ما يسمى بالعقيقة أو عند الحاجات، كالسنة المجدبة التي يحتاج فيها الناس إلى الطعام أكثر من غيرها، وليقدم في مثلها من هم أكثر حاجة من سواهم.

فقد كان رسول الله ﷺ يأمر من تزوج من أصحابه أن يولم، كما روى أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: سأل النبي ﷺ عبد الرحمن بن عوف، وتزوج امرأة من الأنصار: «كم أصدقتها؟» قال: وزن نواة من ذهب... ـ وقال له ـ: «أَوْلِم ولو بشاة»[1].

وكان هو ﷺ إذا تزوج أولم ودعا أصحابه لتناول الطعام، كما روى أنس ـ أيضاً ـ: ما أولم رسول الله ﷺ على شيء من نسائه ما أولم على زينب، أَوْلم بشاة»[2].

وفي رواية: أَوْلم رسول الله ﷺ، حين بنى بزينب ابنة جحش، فأشبع الناس خبزاً ولحماً»[3].

وأمر ﷺ بإجابة الدعوة، كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله : «إذا دعي أحدكم إلى الوليمة فليأتها» وكان ابن عمر رضي الله عنهما يأتي الدعوة في العرس وغير العرس ويأتيها وهو صائم»[4].

ووصف أبو هريرة، رضي الله عنه من دعى فلم يجب إلى طعام الوليمة بالعصيان، فكان يقول: بئس الطعام طعام الوليمة، يدعى إليه الأغنياء ويترك

---

(١) البخاري (١٤٢/٦) ومسلم (١٠٤٢/٢ ـ ١٠٤٣).

(٢) البخاري (١٤٢/٦) ومسلم (١٠٤٨/٢ ـ ١٠٤٩).

(٣) البخاري (٢٦/٦) ومسلم (١٠٤٦/٢). (٤) البخاري (١٤٣/٦ ـ ١٤٤).

المساكين، فمن لم يأت الدعوة فقد عصى الله ورسوله»[1].

ويؤخذ من هذا أن ينبغي لمن أولم أن يدعو لوليمته المحتاجين لما في ذلك من إشباع الجائع، وقد كان أبو هريرة رضي الله عنه من فقراء الصحابة الذين يحتاجون إلى الرعاية وسد الحاجة، ولذلك كان يشعر بما في دعوة الأغنياء وترك الفقراء.

وكان الصحابة، رضي الله عنهم، إذا علم أحدهم أن رسول الله ﷺ جائع صنعوا له الطعام ودعوه، فيجيب ويدعو أصحابه الذين يعلم أنهم محتاجون إلى الطعام مثله، كما في قصة الخندق، إذ رآه جابر رضي الله عنه وهو جائع، فعاد إلى امرأته، فأمرها أن تصنع له طعاماً، ليدعوه، وكان عنده صاع من شعير وشاة صغيرة، فأخذت هي في صنع الطعام، وذهب جابر، فسار رسول الله ﷺ، ليأتي مع نفر قليل معه لتناول الطعام، فنادى رسول الله ﷺ أهل الخندق، وهم ألف، وبارك الله في شاة جابر، فكانت كما قال جابر رضي الله عنه: «فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو»[2].

ففي أمره ﷺ بالوليمة وإجابة الدعوة وكونه هو ﷺ كان يولم ويدعو للناس فيأكلون حتى يشبعوا، وإذا صنع أصحابه طعاماً دعوه فأجاب ودعا معه غيره ما يدلّ أن السنة أن يكون ذلك دأب المسلمين، لما فيه من إطعام الجائع وإدخال السرور على الداعي والمدعو معاً.

وقد جعل ﷺ إطعام الطعام من الأمور المفضلة في الإسلام. روى عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما، أن رجلاً سأل رسول الله : أيّ الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[3].

وينبغي أن يدعو المسلم أخاه المسلم دعوة خاصة به لتناول الطعام عنده إذا أحسّ أن في نفسه عليه شيئاً، لإزالة ما في نفسه.

---

(١) البخاري (٦/١٤٤) ومسلم (٢/١٠٥٤).
(٢) البخاري (٥/٤٥ ـ ٤٧) ومسلم (١٦١٠ ـ ١٦١١).
(٣) البخاري (١/٩) ومسلم (١/٦٥٩).

المبحث الرابع:
إعانة المحتاجين والضعفاء

إن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق متفاوتين في القوة والضعف وفاضل بينهم في الرزق، والعادة أن الضعيف يحتاج إلى القوي، والفقير يحتاج إلى الغني، والمريض يحتاج إلى الصحيح، والجاهل بصنعةٍ ما يحتاج إلى العالم بها، وهكذا...

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالتعاون على البر والتقوى، ونهى عن التعاون على الإثم والعدوان، والذي يحتاج أخوه إلى إعانته اليوم قد يحتاج هو إلى إعانة أخيه غداً، وإعانة كل واحد أخاه في قضاء حاجته تعد من شكر الله تعالى على نعمه، إذ جعله قادراً على ذلك، فعلى البدن زكاة كالمال، وكذلك العلم.

روى أبو بردة عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «على كل مسلم صدقة» فقالوا: يا نبي الله، فمن لم يجد؟ قال: «يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق» قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «يعين ذا الحاجة الملهوف» قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «فليعمل بالمعروف، ويمسك عن الشر، فإنها له صدقة»[1].

والذي يقضي حاجة أخيه في الدنيا يقضي الله حاجته يوم القيامة، عندما يكون أحوج إليها من حاجة أخيه في الدنيا.

وقضاء الحاجات هو مقتضى الأخوة الإسلامية، روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[2].

---

(١) البخاري (٢/١٢١) ومسلم (٢/٦٩٩). (٢) البخاري (٣/٩٨) ومسلم (٤/١٩٩٦).

وعد رسول الله ﷺ إعانة الصانع في صنعته أو الصناعة لمن لا يتقن الصنعة من أفضل الأعمال التي يتقرب بها إلى الله، كما روى أبو ذرّ رضي الله عنه، قال: سألت النبي ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله وجهاد في سبيله» قلت: فأي الرقاب أفضل؟ قال: «أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها» قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «تعين صانعاً، أو تصنع لأخرق» قال: فإن لم أفعل؟ قال: «تدع الناس من الشر، فإنها صدقة تصدق بها على نفسك»[1].

وهذا الحديث يوضح أن تربية المجتمع في الإسلام تقوم على فعل الخير وترك الشر، وهذا هو الأمن الذي ينشده العالم كله، ولا يمكن أن يجده إلّا في التربية الإسلامية.

ولقد أشار ﷺ إلى قرب كافل اليتيم منه في الجنة، كما روى سهل بن سعد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وقال بأصبعيه السبابة والوسطى[2].

وكفالة اليتيم شاملة لتربيته والقيام بتعليمه وإصلاحه، وإصلاح أمواله وحفظها وعدم الاعتداء عليها أو التفريط فيها، وشامله كذلك للإنفاق عليه إذا لم يكن له مال، ولطف معاملته والرفق به، وقد أبرز الله العناية به في كتابه، فقال تعالى في حفظ ماله: **﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً﴾**[3]. وقال تعالى: **﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف، فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً﴾**[4].

وقال تعالى في اطعامه والإنفاق عليه: **﴿فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة﴾**[5].

---

(١) البخاري (١١٧/٣) ومسلم (٨٨/١ ـ ٨٩).

(٢) البخاري (٧٦/٧) ومسلم (٢٢٨٧/٤).

(٣) سورة النساء: ٢. (٤) سورة النساء: ٦. (٥) سورة البلد: ١١ ـ ١٥.

جعل تعالى الانفاق على اليتيم وإطعامه في وقت المجاعة من أسباب قطع الطريق الصعب إلى الله تعالى[1].

ومثل اليتيم المسكين والأرملة ونحوهما، كما قال تعالى: **﴿أو إطعام في يوم ذي مسخبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة﴾**[2].

والسعي على الأرملة والمسكين وسدّ حاجتهما نوعٌ من الجهاد في سبيل الله ومن العبادة التي يتقرب بها المسلم إلى الله تعالى، كالصلاة والصيام، كما روى صفوان بن سليم عن النبي ﷺ، قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل»[3].

وفي رواية من حديث أبي هريرة: «كالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر»[4].

والمقصود أن إعانة المحتاج من الأمور التي يجب أن يربّى عليها المجتمع، وهي غير منحصرة، فقد يحتاج المريض إلى الإسعاف، ويحتاج من ضعفت دابته، أو تعطل مركوبه من سيارة أو غيرها إلى إعانة بنقله أو بإصلاح مركوبه، وقد يحتاج حامل الشيء الثقيل إلى حمله له، وقد يحتاج من فقد ماله إلى إعانة وهكذا. . . فالحاجات غير متناهية، والإعانة مطلوبة في كل حال، والناس يختلفون في القدرة على الإعانة، فقد يكون بعضهم قادراً على شيء، والأخر قادراً على شيء آخر، فعلى كل واحد أن يعين المحتاجين حسب طاقته.

وتأمل حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: كل سلامي من الناس عليه صدقة، كل يوم يعين الرجل في دابته، يحامله عليها أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة، وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، وَدَلُّ الطريق صدقة»[5].

---

(١) راجع الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٦٦). (٢) سورة البلد: ١٥ ـ ١٦.

(٣) البخاري (٧/٧٦). (٤) البخاري (٧/٧٧) ومسلم (٤/٢٢٨٦).

(٥) البخاري (٣/٢٢٤) ومسلم (٢/٦٩٩).

المبحث الخامس:
إفشاء السلام

السلام تحية المؤمنين، وأفضلها أن يقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ويجوز أن يقال: السلام عليكم ورحمة الله، أو السلام عليكم، والثانية أفضل من الثالثة.

قال تعالى: ﴿**وإذا حُيِّيتُم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها، إن الله كان على كل شيء حسيباً**﴾[1].

وروى ابن جرير عن سلمان الفارسي، رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: السلام عليك يا رسول الله فقال: «وعليك ورحمة الله» ثم جاء آخر، فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، فقال له رسول الله ﷺ: «وعليك ورحمة الله وبركاته» ثم جاء آخر، فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فقال له: «وعَليك» فقال له الرجل: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي أتاك فلان وفلان، فسَلّما عليك، فرددت عليهما أكثر مما رددت عليّ؟ فقال: «إنك لم تدع لنا شيئاً، قال الله: «وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أوردوها «فرددناها عليك»»[2].

وقال ابن كثير، رحمه الله ـ بعد أن ذكر ما أورده ابن جرير عن سلمان ـ: «وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا زيادة في السلام على هذه الصفة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، إذ لو شرع أكثر من ذلك لزاده رسول الله ﷺ، ثم ذكر ما رواه الإمام أحمد بسنده عن عمران بن حصين أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «السلام عليكم يا رسول لله، فرد عليه ثم جلس، فقال: «عشر» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله يارسول الله، فرد عليه، ثم جلس، فقال: «عشرون» ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه، ثم جلس، فقال: «ثلاثون» وكذا رواه أبو داود عن محمد

---

(١) سورة النساء: ٨٦. (٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/١٩٠).

بن كثير، وأخرجه الترمذي والنسائي والبزار من حديثه»[1].

والسلام اسم من أسماء الله الحسنى، كما قال تعالى: **﴿هو الله الذي لا إله إلّا هو الملك القدوس السلام المؤمن﴾** الآية[2].

قال الإمام البخاري رضي الله عنه: «باب السلام اسم من أسماء الله تعالى **﴿وإذا حييتم بتحية فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها﴾** ثم ساق بسنده حديث عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: كنا إذا صلينا مع النبي ﷺ، قلنا: السلام على الله قبل عباده، السلام على جبريل، السلام على ميكائيل، السلام على فلان، فلما انصرف النبي ﷺ أقبل علينا بوجهه، فقال: «إن الله هو السلام، فإذا جلس أحدكم في الصلاة فليقل: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنه إذا قال ذلك أصاب كل عبد صالح في السماء والأرض، أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ثم يتخيّر بعد من الكلام ما شاء»[3].

والذي يستعرض آيات القرآن الكريم التي ورد فيها ذكر السلام يوقن بأنه أعظم تحية منحها الله عباده الصالحين في الدنيا والآخرة، فهي التحية التي أسبغها الله على رسله الكرام، كما قال تعالى: **﴿سلام على نوح في العالمين﴾**[4]، **﴿سلام على موسى وهارون﴾**[5]، **﴿سلام على آل يس﴾**[6]، **﴿وسلام على المرسلين﴾**[7].

وهي تحية رسل الله في السماوات ورسله في الأرض، كما قال تعالى: **﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى، قالوا سلاماً قال سلام، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾**[8]، **﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون﴾**[9].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٥٣١)، وأبو داود (٥/٣٧٩ - ٣٨٠) والترمذي (٥/٥٢ - ٥٣). وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

(٢) سورة الحشر: ٢٣. (٣) البخاري (٧/١٢٧) مسلم (١/٣٠١ - ٣٠٢).

(٤) سورة الصافات: ٧٩. (٥) سورة الصافات: ١٢٠. (٦) سورة الصافات: ١٣٠.

(٧) سورة الصافات: ١٨١. (٨) سورة هود: ٦٩. (٩) الذاريات: ٢٤، ٢٥.

وهي تحية رسل الله في الأرض وأتباعهم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم**﴾[1].

وهي تحية أصحاب الأعراف لأهل الجنة: ﴿**ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم**﴾[2].

وهي تحية الملائكة في الآخرة لأهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿**جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**﴾[3]، ﴿**الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلامٌ عليكمٍ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون**﴾[4]. ﴿**وسيق الذين اتقوا إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين**﴾[5].

وفي الجنة يكرّم الله عباده المؤمنين، فلا يسمعون لغو الكلام الذي كانوا يسمعونه في الدنيا فيؤذيهم، وإنما يسمعون هذه الكلمة المحبوبة: ﴿**لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلاّ قيلاً سلاماً سلاماً**﴾[6].

وهي تحيتهم التي لزموها في الدنيا فكانت تحيتهم في الجنة: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين**﴾[7]، ﴿**وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيّتهم فيها سلام**﴾[8]، ﴿**تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعدّ لهم أجراً كريماً**﴾[9].

وإن تحية أكرم الله تعالى بها عباده من الملائكة والرسل وأتباعهم في الحياة الدنيا والآخرة، وجعلها تحية المصلين لأنفسهم ولإخوانهم من عباد الله الصالحين، إن هذه التحية التي هذه منزلتها عند الله وعند أوليائه لجديرة بالالتزام والنشر ولا يليق بالمؤمن أن يستبدل بها غرها، وهي من الأسباب

---

(١) سورة الأنعام: ٥٤.
(٢) سورة الأعراف: ٤٦.
(٣) سورة الرعد: ٢٣، ٢٤.
(٤) سورة النحل: ٣٢.
(٥) سورة الزمر: ٨٣.
(٦) سورة الواقعة: ٢٥، ٢٦.
(٧) سورة يونس: ٩، ١٠.
(٨) سورة إبراهيم: ٢٣.
(٩) سورة الأحزاب: ٤٤.

العظيمة الجالبة للمحبة والألفة والأمن والاطمئنان، كما روى أبو هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[1].

فإذا كان دخول الجنة مربوطاً بالإيمان، ومن لوازم الإيمان المحبة، وإفشاء السلام من أسبابها، فهل يليق بالمسلم أن يفرط في السلام.

وقد شرع رسول الله ﷺ إفشاء السلام بين المؤمنين، بحيث لا يلتقي اثنان أو أكثر على أي حال من الأحوال التي يشرع فيها ذكر الله إلّا حيّا بعضهم بعضا، فالماشي يسلم على القاعد، والراكب يسلّم على الماشي، والقليل يسلّم على الكثير، والصغير يسلّم على الكبير، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «يسلّم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقلي على الكثير»[2] وفي رواية من حديث له: «يسلّم الصغير على الكبير»[3].

ويسنّ أيضاً أن يسلّم الكبير على الصغير، لأنه قد يغفل هو عن البدء بالسلام، وفي ذلك قدوة له وتربية، تأمّل كيف أثّر سلام رسول الله ﷺ على بعض صبيان المدينة، فما كان ينسى ذلك، بل كان يفعله كما حفظه من رسول الله ﷺ، روى ثابت البناني رحمه الله عن أنس رضي الله عنه أنه مرّ على صبيان فسلّم عليهم وقال: كان النبي ﷺ يفعله»[4].

وإن المسلم حين يلقى المسلم فيسلّم عليه ليزيل بذلك الوحشة من بينهما ويفتح باب إقبال أحدهما على الآخر وشعوره بالألفة والمحبة، بل يشعر كل منهما بالأمن مع أخيه، ولذلك ترى ـ غالباً ـ الابتسامة والبشر على وجوه من بدأوا بالسلام أو ردّوه، بخلاف ما إذا التقى اثنان فأكثر فلم يسلّم أحد على أحد، فإنك ترى وجوههم عابسة غير طلقة، وكل منهم لا يشعر بذلك الأمن والاطمئنان الذي يشعر به المسلِّم والمسلَّم عليه.

---

(1) مسلم (1/74). (2) البخاري (7/127) ومسلم (4/703). (3) البخاري (7/127).

(4) البخاري (7/131) ومسلم (4/1708) وكان أنس من صغار الصحابة في عهد الرسول ﷺ وهو الذي خدمه عشر سنين.

ولقد أهمل كثير من المسلمين هذه التحية، إذ تجد الرجل يمر بأخيه وجهاً لوجه، فلا يحييه بها، وترى الإبن يلتقي بأبيه فلا يسلّم عليه، بل الأدهى من ذلك أن تسمع المسلم يفشي تحية أعداء الله من الكفار بلغتهم ويهمل تحية الإسلام، وقد ابتلى الله المسلمين بالعداوة والبغضاء ونزع من نفوسهم محبة بعضهم بعضاً وجعلهم يعيشون عيشة خوف بعضهم من بعضٍ بدلاً من عيشة الأمن والسلام التي تضمنتها تحية الإسلام، فلا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

المبحث السادس:
طلاقة الوجه وطيب الكلمة

إن الوجه العبوس لا يألف الناس صاحبه ولا يقبلون عليه، ولو كان ذا خلق حسن في أمور أخرى، لأن وجه الإنسان هو الذي يواجه به الناس بادىء ذي بدء، فإذا رأى الناس امرأً عابس الوجه اشمأزت نفوسهم منه لأول وهلة، واتهموه بأنه سيىء الخلق، وقد يتهمونه بالكبر، فإذا خالطوه قد يجدون منه الكلمة الطيبة وأخلاقاً حسنة تجعلهم يتركون سوء الظن به، كأن يكون كريماً، وفياً بالعهد، صادقاً، عادلاً، أمّا إذا وجدوه فظّاً غليظ القلب في كلامه، إضافة إلى عبوس وجهه وتقطيبه، فإن ذلك يؤكد لهم سوء خلقه، وذلك داعٍ إلى عدم الاختلاط به، لأن عبوس الوجه وخشونة الكلام قلّما يخالط الناسُ من اتصف بهما إلّا لضرورة.

وهذا بخلاف الإنسان البشوش، طلق الوجه الذي يقابل الناس بالابتسام والانبساط وطيب الكلام، فإنهم يقتربون منه ويألفونه ويحادثونه ويحبونه، ولو لم يدروا شيئاً عن أخلاقه الأخرى.

والغالب أن الذي يكون طلق الوجه، طيب الكلام، يكون حسن المعاملة مع الناس، إلّا إذا كانت طلاقة وجهه وطيب كلامه صادرين عن تكلّف ليتخذهما مصيدة لأغراض معينة، كما هي عادة المنافقين والغادرين، ولكن هؤلاء تكشف أحوالهم بالمخالطة والمعاملة.

هذا، ولمّا كانت طلاقة الوجه وطيب الكلمة من الأخلاق الفاضلة التي تقرّب المسلم من أخيه المسلم وتحببه إليه، بل تقرب غير المسلم إلى المسلم، فيتأثر به وقد يسلم على يديه، فقد حثّ عليهما القرآن الكريم والسنة النبوية، وكان الرسول ﷺ هو قدوة الأمة الإسلامية فيهما.

وقد كان القول الحسن والكلمة الطيبة من الأمور التي أخذ الميثاق عليها من بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق بني إسرائيل لا**

تعبدون إلّا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلّا قليلاً منكم وأنتم معرضون﴾[1].

قال الفخر الرازي، رحمه الله: «قال أهل التحقيق: كلام الناس مع الناس، إما أن يكون في الأمور الدينية، أو في الأمور الدنيوية، فإن كان في الأمور الدينية، فإمّا أن يكون في الدعوة إلى الإيمان وهو مع الكفار، أو في الدعوة إلى الطاعة، وهو مع الفاسق.

أمّا الدعوة إلى الإيمان فلا بدّ وأن تكون بالقول الحسن، كما قال الله تعالى لموسى وهارون: **﴿فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾**[2] أمرهما الله تعالى بالرفق مع فرعون، مع جلالتهما، ونهاية كفر فرعون وتمرده وعتوه على الله تعالى، وقال لمحمد ﷺ: **﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك﴾** الآية[3].

وأمّا دعوة الفساق فالقول الحسن فيه معتبر، قال تعالى: **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾**[4]، وقال: **﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾**[5].

وأمّا الأمور الدنيوية، فمن المعلوم بالضرورة أنه إذا أمكن التوصل إلى الغرض بالتلطف من القول لم يحسن سواه، فثبت أن جميع آداب الدين والدنيا داخلة تحت قوله تعالى: **﴿وقولوا للناس حسنا﴾**[6].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يحب القول السيىء والجهر به، إلا إذا كان صاحبه مظلوماً مضطر للجهر به بسبب ظلمه، فقال عزّ وجلّ، **﴿إنّ الله لا يحب الجهر بالسوء إلاّ من ظلم وكان الله سميعاً بصيراً﴾**[7].

فكل قول سيىء لا يجوز الجهر به، لأن الله لا يحبه، إلاّ في حالة الضرورة وهي أن يظلم المرء فيضطر إلى ذكر ما ظلم به من ظالمه.

---

(١) سورة البقرة: ٨٣. (٢) سورة طه: ٤٣، ٤٤. (٣) سورة آل عمران: ١٥٩.
(٤) سورة النحل: ١٢٥. (٥) سورة فصلت: ٣٤.
(٦) التفسير الكبير (١٦٩/٣). (٧) سورة النساء: ١٤٨.

ودلّ القرآن الكريم أن تجهّم الوجوه من صفات أعداء الله الكافرين، كما قال تعالى: **﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾**[1].

إن تجهّم وجوههم حصل بسبب سماعهم الحق الذي يتلى عليهم في آيات الله فلا تنبسط وجوههم إلاّ للباطل، بخلاف المؤمن، فإنه ينبسط وجهه ويأنس بالناس وبخاصة أهل الحق، ولا يمتعض ويتجهّم وجهه إلاّ إذا انتهكت محارم الله.

أما السنّة فقد ورد فيها الكثير من النصوص الدالة على حسن طلاقة الوجه وبشاشته وطيب الكلام وجماله.

فمن ذلك حديث أبي ذرّ، رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[2].

وحديث جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك»[3].

وكان الرسول ﷺ يتبسط مع أصحابه ويلاطف صغارهم، قال البخاري رحمه الله: «باب الانبساط إلى الناس، وساق بسنده حديث أنس بن مالك، رضي الله عنه يقول: «إن كان النبي ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخٍ لي صغير: «يا أبا عمير ما فعل النُّغير»[4].

كما ساق بسنده عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ، وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمّعن منه، فيسرِّبهن إليّ فيلعبن معي»[5].

---

(١) سورة الحج: ٧٢. (٢) مسلم (٤/٢٠٢٦).

(٣) الترمذي (٤/٣٤٧) وقال: هذا حديث حسن.

(٤) البخاري (٢/١٠٢) ومسلم (٣/١٦٩٢) والنُّغير طائر صغير كان يلعب به الصبي.

(٥) البخاري (٧/١٠٢) ومسلم (٤/١٨٩٠) ومعنى: يتقمعن ينعزلن عنه حياء وهيبة ومعنى: يُسرّبهُن: يرسلهن.

وفي حديث أبي جُرَيّ جابر بن سليم - مما عهد إليه رسول الله ﷺ «ولا تحقرن شيئاً من المعروف، وأن تكلّم أخاك وأنت منبسط إليه وجهُك، إن ذلك من المعروف»[1].

وحثّ رسول الله ﷺ على فعل الخير اتقاء نار جهنم به، وذكر من ذلك الكلمة الطيبة، كما روى عدي بن حاتم، قال: ذكر النبي ﷺ النار، فتعوّذ منها وأشاح بوجهه، ثم ذكر النار، فتعوذ منها، وأشاح بوجهه... ثم قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة»[2].

وعد ﷺ تبسم المسلم في وجه أخيه المسلم صدقة، كما في حديث أبي ذرّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تبسّمك في وجه أخيك صدقة...» الحديث[3].

وكان من خلقه ﷺ التبسّم في وجوه أصحابه، حتى قال عبد الله بن الحارث بن حزم، رضي الله عنه: ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ»[4].

ومن ذلك حديث جرير، رضي الله عنه، قال: ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلّا تبسّم في وجهي»[5].

بل إنه ﷺ تبسّط في وجه من يكره ابتعاداً عن الفحش وتحذيراً من الخلق لسيىء الذي يترك الناس صاحبه من أجله، كما روت عائشة رضي الله عنها، أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ، فلما رآه قال: «بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة» فلّما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط، قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، متى عهدتني فحاشاً، إن شرّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره»[6].

---

(١) أبو داود (٤/٣٤٤ - ٣٤٥)

(٢) البخاري (٧/٧٩ - ٨٠) ومسلم (٢/٧٠٣ - ٧٠٤).

(٣) الترمذي (٤/٣٤٠). وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٤) الترمذي (٥/٦٠١) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٥) الترمذي (٥/٦٧٨ - ٦٧٩) وقال حديث حسن صحيح.

(٦) البخاري (٧/٨١) ومسلم (٤/٢٠٠٢ - ٢٠٠٣).

وبطلاقة الوجه وانبساطه والتبسّم في وجه الأخ المسلم، والكلمة الطيبة تتأكد المحبة ويحصل الوئام بين المسلمين ويثبت الأمن والاطمئنان.

لقد أكثرت من النصوص في هذا المبحث ـ نسبياً ـ وتركت نصوصاً كثيرة، وسبب الإكثار أن ما يشاهد من أحوال المسلمين الآن من الصدود وعبوس الوجوه مع بعضهم البعض، وبخاصة إذا لم يكن الملتقون يعرف بعضهم بعضاً، أو كان بينهم تنافس على حطام الدنيا ومناصبها، إن ذلك لممّا يؤسف له وينذر بشرٍ وبعدٍ عن آداب الإسلام، إنك لترى الرجل يتكلّف الانبساط والبشاشة لصديق له ويضحك معه ويسلّم عليه ويصافحه أو يعانقه بحرارة، وبجانبه أخ مسلم لا يعرفه فلا يلتفت إليه وقد لا يمد له يده بالمصافحة، فإذا قال له صديقه: هذا فلان من أصدقائنا أظهر الندم وحاول الاعتذار بأنه لم يعرفه من قبل، ولو أنه تأدب بأدب الإسلام لأراه ابتسامة خفيفة وصافحه وحصل المقصود.

إن المسلمين لو تمسكوا بهذه الآداب الإسلامية لأزالوا بها الوحشة والنفرة وخوف بعضهم من بعض، ولا يلزم من البشاشة والانبساط والكلمة الطيبة ترك الحق والمداهنة فيه، بل يمكن أخذ الحق مع ذلك.

وليضرب لذلك مثال يكثر وقوعه بين الناس وبعض رجال الأمن في كل دول العالم.

إن كثيراً من الناس يخالفون بعض أنظمة المرور، وبعض تلك المخالفات خطير لا يجوز السكوت عنه، لما يحدثه من أضرار، ولكن المخالفين ليسوا سواء، فقد يكون منهم المتعمّد وقد يكون منهم الغافل، وقد يكون منهم الجاهل ـ وكلهم لا يعذرون في الجملة ـ والمطلوب من رجل المرور كبرت رتبته أم صغرت أن يحسم الأمر في أي مخالفة، والمطلوب منه كذلك أن يكون ذا خلق حسن، فإذا قابل المخالف فليباشره بالتحية وليتلطّف في قوله عندما يخاطبه، كأن يقول: ألا تعلم أن ما فعلته مخالف لقواعد المرور، أو أعلمت أنك أخطأت، فإن اعترف بخطئه، فليسأله عن سبب المخالفة، فقد يبدي له عذراً، وقد يكون العذر مقبولاً، وإن لم يعترف أفهمه خطأه بالقول الحسن، فإن رأى بعد ذلك أن يعذره فليفعل وينصحه بعدم تكرار ذلك منه،

وإن أراد أن يجازيه فليفعل مع القول الحسن كأن يقول له: أرجو أن تعذرني في تطبيق النظام، فأنا موظف أقوم بعملي بأمانة ولا أستطيع التساهل فيما أسند إليه تطبيقه.

وهكذا ينبغي أن يتعامل كل الموظفين مع الناس: طلاقة وجه وكلمة طيبة، شعارهم الحب والودّ والائتلاف، وليس الفحش والتجهّم وإغلاظ القول، فإن ذلك ليس من صفات المؤمنين.

المبحث السابع:
التواضع وقبول الحق

إن التواضع يكسب صاحبه احترام الناس له، ويرفع منزلته عندهم وهو خلق يحبّه الله ورسوله ﷺ، بخلاف الكبر، فإن صاحبه يطلب به التعالي على الناس، فينال الاحتقار والازدراء، وهو صفة يبغضها الله ورسوله ﷺ.

وتواضع المؤمنين بعضهم لبعض إحدى صفاتهم التي يحبهم الله تعالى عليها وبها يكونون أهلاً للكون من حزبه، الذين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، كما قال تعالى: **﴿ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم. إنما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون. ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإنّ حزب الله هم الغالبون﴾**[1].

فتواضع المؤمنين بعضهم لبعض هو أول صفة وصف الله بها حزبه الغالب ـ بعد حبه تعالى ـ وكونه أول الصفات بعد حبهم له، وهو تعالى يحبهم على تلك الصفات يدل على شرف هذه الصفة.

وجاء الأمر بالتواضع في القرآن الكريم، كما قال تعالى آمراً رسوله ﷺ ـ وأمره أمر لأمته ـ: **﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾**[2]. وقال تعالى: **﴿واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين﴾**[3].

ووصف تعالى عباده الصالحين بالتواضع، فقال: **﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوْناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾**[4].

وذمّ تعالى الكبر بنفي محبته لأهله ـ وقد سبق أنه يحب المتواضعين ـ قال

---

(١) سورة المائدة/٥٤ ـ ٥٦. (٢) سورة الحجر/٨٨. (٣) سورة الشعراء/٢٥.
(٤) سورة الفرقان/٦٣.

تعالى: ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾[1].

واستعاذ عباد الله الصالحون المتواضعون من أهل الكبر، كما قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾[2].

والمتكبرون الذين يباهون بكبريائهم في الدنيا يذلّهم الله يوم القيامة بإسكانهم في نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾[3].

وورد في السنة ذم الكبر والمتكبرين، مع بيان الوعيد الشديد الذي أعده الله لهم يوم القيامة، فالمتكبرون في الدنيا هم أحقر الناس يوم القيامة ولهذا يناديهم الله تعالى أمام الأشهاد محقراً لهم، كما في حديث ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله عزّ وجلّ السماوات يوم القيامة، ثم يأخذها بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرض بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟»[4].

وأخبر ﷺ أن المتواضعين هم أهل الجنة، وأن المتكبرين هم أهل النار، كما روى حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبرّه، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل جواظ مستكبر»[5].

وفي حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تحاجّت الجنة والنار، فقالت النار: أُثِرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلّا ضعفاء الناس وسقطهم؟ قال الله تبارك وتعالى للجنّة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار: إنما أنت عذاب، أعذّب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها»... الحديث[6].

---

(١) النساء/٣٦. (٢) غافر: ٢٧. (٣) النحل: ٢٩. (٤) مسلم (٢١٤٨/٤).
(٥) البخاري (٨٩/٧ ـ ٩٠) ومسلم (٢١٩٠/٤). (٦) البخاري (٤٨/٦) ومسلم (٢١٨٦/٤).

وبيّن ﷺ أنه ما ارتفع شيء من هذه الدنيا إلّا وضعه الله تعالى، كما روى أنس رضي الله عنه، قال: كان للنبيّ ﷺ ناقة تسمى العضباء لا تسبق فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فشقّ ذلك على المسلمين حتى عرفه، فقال ﷺ: «حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلّا وضعه»[1].

فأصحاب رسول الله ﷺ حزنوا لسبق ناقة الأعرابي ناقته التي لم تكن تسبق، فعلمهم ﷺ أن ميزان التكريم عند الله ليس هو الرفعة في الدنيا، لأن الرفعة في الدنيا لا تدوم، بل من شأن الناس فيها أن يرتفعوا تارة وينخفضوا أخرى، فترى الرجل يوماً عزيز قوم ويوماً ذليل آخرين، وهكذا... بخلاف الرفعة في الآخرة، فإنها رفعة دائمة، وكان ﷺ يؤدبهم على هذا المعنى ويغرس في نفوسهم التواضع، ويقتلع منها جذور الترفع بالدنيا.

وفي حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله رجلاً بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[2].

ومن الأسباب الواضحة التي تقتضي ذمّ الكبر والمتكبرين أن الكبر يجريء صاحبه على رفض الحق وعدم قبوله، فإذا تكبر الناس بعضهم على بعض ضاع الحق وأعقب ذلك البغي والعدوان وفقد الأمن في المجتمع، لأن صاحب الحق يشق عليه أن يرى الحق مهدراً غير مقبول والمتكبر ينأى بجانبه عن قبوله، ويحاول تثبيت الباطل بدل الحق وهذا ما كان من أعداء الله الكافرين مع رسله الكرام، كما هو بيّن من قصصهم في القرآن الكريم، كما قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿**وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكباراً**﴾[3]. وقال عن قوم صالح عليه السلام: ﴿**قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسلٌ من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون، قال الذين استكبروا إنّا بالذي آمنتم به كافرون**﴾[4]، وقد بيّن ذلك رسول الله ﷺ بياناً واضحاً كما في حديث عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه

---

(١) البخاري (٣/ ٢٢٠). (٢) مسلم (٤/ ٢٠٠١) والترمذي (٤/ ٣٧٦).
(٣) سورة نوح/ ٧. (٤) سورة الأعراف/ ٧٥، ٧٦.

عن النبي ﷺ، قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً»؟ قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بَطَرُ الحق وغمط الناس»[1].

وبطر الحق رده وعدم قبوله، وغمط الناس احتقارهم وازدراؤهم. وفي حديث عياض بن حمار، رضي الله عنه، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفتخر»[2].

فالتواضع من الأسباب المانعة للبغي والفخر، كما أن الكبر من الأسباب الجالبة لهما.

قال الغزالي، رحمه الله: «الوجه الثاني الذي تعظم به رذيلة الكبر أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباده استنكف عن قبوله وتشمّر لجحده...»[3].

وبتواضع المؤمنين بعضهم لبعض تـأتلف قلوبهم ويقبل بعضهم الحق من بعض، فلا يخاف أحد من أن يُعتدى عليه بالباطل ولا يبغي أحد على أحد.

(١) مسلم (٩٣/١) والترمذي (٣٦١/٤).
(٢) مسلم (٢١٩٩/٤) وأبو داود (٢٠٣/٥).
(٣) إحياء علوم الدين (٣٤٧/٣).

المبحث الثامن:
العفو والسماحة، ودفع السيئة بالحسنة

للناس في تعامل بعضهم مع بعض ثلاث حالات:

الحالة الأولى: التزام العدل، بحيث يأخذ كل منهم حقه كاملاً، بلا زيادة ولا نقص، وهي مأمور بها أمر إيجاب، بالنسبة لمن عنده الحق إذا طلب صاحبه منه ذلك ولم يتنازل عن شيء منه، وإذا لم يؤد ذلك كاملاً، بل نقص منه شيئاً يكون ظالماً.

الحالة الثانية: أن يأخذ بعضهم أكثر من حقه، بدون رضا صاحبه وهذا ظلم نهى الله تعالى عنه، والنصوص الواردة فيه من الكتاب والسنة كثيرة جداً.

الحالة الثالثة: أن يتنازل بعضهم لبعض عن حقه برضا واختيار، وهذه الحالة هي حالة الإحسان، التي أمر الله بها مع العدل الذي هو الحالة الأولى، إلا أن الاحسان بهذا المعنى مأمور به أمر استحباب وليس أمر ايجاب، وهذا هو المراد بهذا المبحث.

ذكر بعض الآيات الواردة في العفو والسماحة:

قال تعالى: **﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون، وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله، إنه لا يحبّ الظالمين، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم، ولمن صبر وغفر إن ذلك لَمِنْ عزم الأمور﴾**[1].

أثنى الله تعالى في هذه الآيات على من انتصر بعد ظلمه، أي بعد ظلم الظالم إياه، وقيّد ذلك الانتصار الذي أثنى على صاحبه بأن يكون متلبساً بالعدل: **﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾** وذكر سبحانه أن المنتصر من ظالمه لا

(١) سورة الشورى/٣٩ ـ ٤٣.

سبيل لظالمه عليه، لأنه أخذ حقه منه، وهذا هو العدل وهو يبيّن الحالة الأولى، أي حالة التزام العدل.

وذمّ سبحانه وتعالى الظالمين البغاة الذين يعتدون على حقوق غيرهم رتوعدهم بعذابه الأليم في الآخرة، كما أباح لمن ظلموه أن يأخذ حقه ﴿**إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق**﴾ وهذا هو الظلم، وهو يبين الحالة الثانية.

وأثنى سبحانه وتعالى على من عفا وأصلح وغفر، فقال: ﴿**فمن عفا وأصلح فأجره على الله**﴾ ﴿**ولمن صبر وغفر إن ذلك لَمِنْ عزم الأمور**﴾.

وهذه تعني الحالة الثالثة

وقد أورد بعض المفسرين إشكالاً في هذه الآيات من وجهين:

الوجه الأول: أنه سبحانه ذكر قبل هذه الآيات ثناءه على من يغفر لغيره إذا ظلم: ﴿**وإذا ما غضبوا هم يغفرون**﴾[1]. وفي هذه الآيات أثنى على المنتصرين بقوله: ﴿**والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون**﴾. وظاهره أن فيه تناقضاً.

الوجه الثاني: أن النصوص الكثيرة دالة على أن العفو أفضل من الانتصار. وأجاب[2] بما حاصله: أن الانتصار ممدوح إذا كان الجاني جريئاً مصرًّا على ذنبه، لأن في العفو عنه حينئذ إعانة له على الاستمرار في الذنب وإذلال المسلم، فلا بد من ردعه، وأن العفو فيما عدا ذلك، كأن يصدر الذنب هفوة منه، ويكون في العفو عنه تسكين لفتنة الجاني وسبب لرجوعه عن ذنبه[3].

والظاهر أن الانتصار والعفو المذكورين في الآيات عامّان في الناس كلهم: المؤمنين منهم والكافرين، ما دام الحق الذي ينتصر له أو يعفى عن المعتدى فيه يتعلق بالشخص المعتدى عليه ولم تنتهك فيه حرمات الله، وقد رجح هذا العموم ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره»[4].

---

(١) الشورى: ٣٧. (٢) يعني مورد الإشكال.
(٣) راجع التفسير الكبير للرازي (٢٧/١٧٧) والجامع لأحكام القرآن (١٦/٣٩).
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٥/٣٧ ـ ٤١).

وأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالعفو عن أصحابه والاستغفار لهم، كما قال تعالى: **﴿فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾**[1].

وأثنى سبحانه على المتصفين بالعفو عن الناس وكظم الغيظ وجعل تلك الصفة من الصفات التي يستحقون بها مغفرة الله وعفوه ودخول جنته، كما قال تعالى: **﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾**[2].

وحذّر سبحانه وتعالى من بعض الأزواج والأولاد الذين يدأبون على معصية الله سبحانه وتعالى ويجتهدون في إيقاع أزواجهم وآبائهم في معصية الله، بسبب قرابتهم والتصاقهم بهم والشفقة والمحبة الطبيعية التي يستغلونها، فصاروا بذلك أعداء كغيرهم ممن ليسوا بأزواج ولا أولاد، بل إن عداوتهم أشد، من عداوة غيرهم من الأجانب، ومع ذلك حثّ الله تعالى على العفو عنهم والصفح ورتّب على ذلك مغفرته ورحمته لمن عفا وصفح جزاءً وِفاقاً، فالتحذير من طاعتهم في معصية الله، والعفو عما يبدر منهم من إساءة على الزوج والأب أو الأم، قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم فاحذروهم، وإن تعفُوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾[3].

ومن الآيات القرآنية الكريمة التي أنزلها الله تعالى لتسمو بالمؤمن إلى أعلى درجات العفو والتسامح تلك الآية التي نزلت في شأن أبي بكر الصديق وابن خالته مسطح بن أثاثة الذي شارك في حديث الإفك الباطل، فقد كان مسطح منْ فقراء المهاجرين، وكان أبو بكر، رضي الله عنه ينفق عليه لقرابته منه، فلما وقع حديث الإفك وعلم أن مسطحاً كان من المتورطين فيه حلف

---

(١) سورة آل عمران: ١٥٩. (٢) سورة آل عمران/١٣٣، ١٣٤.
(٣) سورة التغابن: ١٤.

أن لا ينفق عليه أبد الدهر لظلمه لابنته ووقوعه في عرضها، فأنزل الله تعالى في ذلك: **﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألاَ تحبون أن يغفر الله لكم، والله غفور رحيم﴾**[1].

لقد كان أبو بكر، رضي الله عنه رفيقاً رحيماً كثير الشفقة والرحمة ولم يكن من عادته الشدة والقسوة، كما هو معروف عنه وعن سيرته رضي الله عنه، ولكن شأن هذه الحادثة المفتراة كان لا يحتمل، فقد كان يتناول عرض ابنته أعف نساء العالم وامرأة أفضل الأنبياء والرسل، ينزل جبريل في بيتها فيتلو وحي الله على نبيه، فلم يكن غضب أبي بكر رضي الله عنه متمحضاً لنفسه وإنما كان لله ـ وإن كانت نفسه البشرية لا ترضى بالضيم الواقع عليها ـ وكان ما ينفقه على مسطح فضلاً منه وإحساناً، فرأى أنه لا يستحق ذلك الفضل والإحسان لعظم مساءته التي اقترفها، فقطع عنه النفقة ومع ذلك يؤكد الله تعالى عليه تلك التأكيدات المتوالية ليعفو ويصفح عن مرتكب ذلك الذنب العظيم ويعيد إليه فضله:

فقد نهاه في الآية الأولى عن الاستمرار في حلفه: **﴿ولا يأتل﴾** وذكّره بالقرابة التي شرع الله وصلها، وبالمسكنة التي يستحق صاحبها الرحمة والإحسان، وبالهجرة التي هي من أعظم ما يتقرب به المسلم إلى ربه في سبيل دينه، ثم أمره بالعفو والصفح، ثم أتبع ذلك بالتشويق الذي لا يقدر المؤمن العادي على عدم الاستجابة له، فضلاً عن أفضل هذه الأمة بعد نبيها: أبي بكر الصديق رضي الله عنه: **﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾** وكأن الله تعالى يذكر المؤمن بأنه إذا اعتدى عليه أخوه المؤمن أن يغضب لانتهاك حرمة الله المتعلقة به، ولكن عليه أن يتجاوز عن زلّة أخيه ويعفو كما يحب أن يعفو الله عنه إذا عصاه.

وهكذا يجب أن يكون تصور المسلم: التفريق بين ما يجب الغضب فيه وعدم التساهل فيه، وبين ما ينبغي العفو والصفح عنه، فالغضب يكون فيما تنتهك فيه حرمات الله، والعفو والصفح فيما يتعلق بالشخص المظلوم أو فيه

---

(١) سورة النور/٢٢ وراجع الجامع لأحكام القرآن (١٢/٢٠٧ ـ ٢٠٩) في تفسير الآية.

صرر بالظالم، والضرر في قصة أبي بكر مع مسطح هـو قطع النفقـة التي هي من ضرورات الحياة.

وحثّ الرسول ﷺ على العفو والسماحة حثًا عاماً وذكر ما يترتب على ذلك عند الله سبحانه وتعالى.

روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلّا عزًا، وما تواضع أحد لله إلّا رفعه الله»[1].

كثير من الناس إذا ظلمه أحدٌ ونـاله بـأذى ثارت ثـائرتهم وظنـوا أن تنازلهم عن حقهم بالعفو عمن اعتدى عليهم إهانة لهم، ولكن الأمر عند الله ورسولـه على عكس ذلك، فالتنازل عن الحق والعفو عن الناس ـ إذا لم يكن في العفو إعـانة على استمـرارهم في الظلم والاعتـداء ـ يعد عـزًا ورفعة عنـد الله جـلّ وعـلا، وعند رسـوله ﷺ ـ كمـا أن التواضـع لله سبب في رفـع الله درجـة من تواضع له ـ.

وكان الرسـول ﷺ هو قـدوة الأمة في العفـو والسماحـة فقد سئلت عـائشة رضي الله عنهـا عن خلقه، فقـالت: «لم يكن فاحشـاً ولا متفحشاً ولا صخّـاباً بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح»[2].

وظهر عفوه ﷺ وسماحته في سيرته مع أصحابه، ومع غيـرهم، والحوادث في ذلك لا تحصى كثرة، ولكنا نذكر منها شيئاً يسيراً للتمثيل فقط.

من ذلـك ما رواه أبـو هـريـرة، رضي الله عنـه، أن رجـلاً تقـاضى رسـول الله ﷺ، فأغلظ له، فهمّ به أصحاب النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «دعوه، فإن لصاحب الحق مقالاً» ثم قال: «اشتروا له بعيراً فأعطوه إياه» فـطلبوه، فلم يجـدوا إلّا سنا أفضـل من سنه، فقـال: «اشتروه فـأعـطوه إيـاه، فـإن خيـركم أحسنكم قضاء»[3].

---

(١) مسلم (٤/٢٠٠١) والترمذي (٤/٣٧٦).

(٢) الترمذي (٤/٣٦٩) وقال: «هذا حديث حسن صحيح «الصخب كـالسخب: الضجة واضطراب الأصوات للخصام».

(٣) البخاري (٣/٦١ ـ ٦٢) ومسلم (٣/١٢٢٥).

رجل له دَيْن عند رسول الله ﷺ، يغلظ له القول في تقاضيه، وهو رسول الله ﷺ، لا يصل إلى منزلته أحد من بني البشر، مهما أوتي من قوة وسلطان، يفديه أصحابه بأرواحهم صادقين غير منافقين، فيهمّون بالرجل ليؤدبوه حتى لا يتطاول على النبي ﷺ ولكنه ينهاهم ويذكرهم بأنه صاحب حق، وصاحب الحق جريء، ثم يأمر ﷺ بقضاء الرجل حقه، فلم يجدوا إلاّ ما هو أفضل من حقه، فيأمرهم بإعطائه الأفضل، ويربي أصحابه رضي الله عنهم على ذلك الخلق العالي ليترسموا خطاه فيحسنوا إلى من أساء إليهم زيادة على العفو والسماحة.

وتطاول على جنابه الكريم رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول ـ قبل أن يظهر إسلامه ـ وحاول أن يشعل نار الفتنة بين الناس فلم يزد رسول الله ﷺ أن هدأ الناس وأطفأ نار الفتنة التي أشعلها ابن أبيّ، وعفا عن ذلك المجرم، فكان قدوة لأصحابه في العفو عن أعدائهم ـ وإخوانهم من باب أولى ـ.

والقصة طويلة، ولكن نقل نصها أفضل من ذكر محل الشاهد، لما فيها من الفوائد المتعلقة بالموضوع.

روى أسامة بن زيد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة فدكيّة، وأسامة وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني حارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، فسار حتى مرّ بمجلس، فيه عبد الله بن أبيّ بن سلول ـ وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبيّ ـ فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المسلمين عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر ابن أبيّ أنفه بردائه، وقال: لا تغبروا علينا، فسلّم رسول الله ﷺ عليهم، ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال له عبد الله بن أبي بن سلول: أيها المرء، لا أحسن مما تقول، إنْ كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا، فمن جاءك فاقصص عليه، قال عبد الله بن رواحة: بل يا رسول الله فاغشنا في مجالسنا، فإنا نحب ذلك، فاستب المسلمون والمشركون واليهود، حتى كادوا يتشاورون، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب رسول الله ﷺ دابته، فسار حتى دخل على سعد بن عبادة ـ فقال رسول الله ﷺ: «أي سعد، ألم تسمع ما

قال أبو حباب؟ يريد عبد الله بن أبي، قال: كذا وكذا، فقال سعد بن عبادة: أي رسول الله بأبي أنت أعف عنه وأصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البحرة على أن يتوجوه بالعصابة، فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاك، شرق بذلك فذلك فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى...»[1].

تأمل قوله: وكان رسول الله ﷺ، وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى.

العفو عن العدو أمر به الله، والقدوة الحسنة في تنفيذ أمر الله هو رسول الله ﷺ، ولذا اقتدى به أصحابه، والعفو لا يكون إلّا بالصبر على الأذى، وإذا كان الرسول ﷺ وأصحابه يعفون عن الأعداء ويصبرون على أذاهم بأمر من الله فما بالك بالعفو عن المسلمين؟

وحضّ الرسول ﷺ على العفو والسماح في البيع والشراء ودعا للسمح في بيعه وشرائه وتقاضيه بالرحمة، كما روى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، قال: «رحم الله رجلاً سمحاً إذ باع سمحاً إذا اشترى، وإذا اقتضى»[2].

وقصّ ﷺ ما ناله رجل فيما مضى من تجاوز الله عنه لتجاوزه هو عن خلق الله، كما روى أبو مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «حوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء، إلّا أنه يخالط الناس وكان موسراً، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، قال: قال الله عزّ وجلّ: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه»[3].

وأمر ﷺ أصحابه بالإحسان، ونهاهم عن الظلم، وإن أساء الناس وظلموا، كما في حديث حذيفة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا

---

(١) البخاري (٧/ ١٢٠ - ١٢١) ومسلم (٣/ ١٤٢٢ - ١٤٢٤).
(٢) البخاري (٣/ ٩).
(٣) مسلم (٣/ ١١٩٦) [illegible]ه البخاري من حديث أبي هريرة (٣/ ١٠).

إمّعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطّنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلّموا»[1].

وكان ﷺ يأمر صاحب الدّيْن أن يتنازل للمدين عن شيء من دينه عفواً وسماحة، كما روى كعب بن مالك، رضي الله عنه، أنه كان له على عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي رضي الله عنه ديْن فلقيه فلزمه، فتكلما حتى ارتفعت أصواتهما، فمر بهما النبي ﷺ، فقال: «يا كعب» وأشار بيده، كأنه يقول: النصف، فأخذ نصف ما عليه، وترك نصفاً»[2].

وقد أثّرت تلك التربية النبوية بالقول والفعل على العفو والسماحة في الصحابة رضي الله عنهم تأثيراً عظيماً، فكانوا يعفون ويصفحون. والأمثلة على ذلك كثيرة، نكتفي منها بمثالين:

المثال الأول يبيّن تأثر إمام المسلمين وعفوه وسماحته، والمثال الثاني يبيّن تأثر أفراد الرعية وعفوها وسماحتها.

المثال الأول: عفو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه عن عُيَيْنَة بن حصن عندما تطاول عليه واتهمه بما هو أبعد الناس عنه في وقته، وفي ذلك ما رواه ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قدم عُيَيْنَة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته؛ كُهولاً كانوا أو شباناً، فقال عُيَيْنة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه، عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعُيَيْنة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه، قال: هي، يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همّ به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين»[3] والله ما جاوزها عمر حين تلاها، وكان وقافاً عند كتاب الله»[4].

---

(١) الترمذي (٤/٣٦٤) وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه.

(٢) البخاري (٣/٩٢) ومسلم (٣/١١٩٢).

(٣) سورة الأعراف/١٩٩.

(٤) البخاري (٥/١٩٧ - ١٩٨).

من أعدل من عمر عندما قال عُيَيْنَة مقالته؟ وكان عمر أمير المؤمنين وقد جابهه أحد أفراد الرعية الأجلاف بهذه المجابهة، فلم يزد على أن عفا عنه عندما ذكّر بأمر الله بالعفو.

ويؤخذ من هذه القصة أنه ينبغي أن يكون وليّ أمر المسلمين واسع الصدر كثير السماحة، يغفر لرعيته الزلّات ويتجاوز عن المساوىء اقتداءً برسول الله ﷺ، كما ينبغي أن تكون بطانة ولي الأمر من أمثال الحر بن قيس يذكرونه بأمر الله ويحضّونه على الاقتداء بالرسول ﷺ ويحسّنون له العفو عن الناس وعدم مؤاخذتهم بإساءتهم عليه.

وبهذا العفو وهذه السماحة تأتلف القلوب وتجتمع الكلمة وينقلب العدو صديقاً: ﴿**ادفع التي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم**﴾[1].

المثال الثاني: ما رواه أبو السفر ـ سعيد بن أحمد ـ رحمه الله قال: دقّ رجل من قريش سن رجل من الأنصار، فاستعدى عليه معاوية، رضي الله عنه، فقال لمعاوية: يا أمير المؤمنين، إن هذا دقّ سني، قال معاوية: إنا سنرضيك، وألح الآخر على معاوية، فأبرمه فلم يرضه، فقال له معاوية: شأنك بصاحبك وأبو الدرداء جالس عنده، فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ، سمعته أذناي، ووعاه قلبي، يقول: «ما من رجل يصاب بشيء في جسده، فيتصدق به، إلاّ رفعه الله به درجة، وحط به خطيئة، قال الأنصاري: أأنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: سمعته أذناي، ووعاه قلبي، قال: فإني أَذَرُها له، قال معاوية: لا جرم لا أخيبك، فأمر له بمال»[2].

تأمل كيف أصرّ الرجل على أخذ حقه ـ والظاهر أنه يريد القصاص من صاحبه ـ وقد حاول معاوية وهو أمير المؤمنين أن يرضيه بمال وشفع عنده فلم يتنازل حتى سمع فضل من عفا عمّا أصيب به في جسده فتنازل.

---

(١) سورة فصلت/٣٤.

(٢) الترمذي (٤/١٤ ـ ١٥) وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ولا أعرف لأبي السفر سماعاً من أبي الدرداء».

إن العفو والسماحة من أهم وسائل تثبيت الأمن في المجتمع، لأنه عندما يهفو فرد أو طائفة، فيجد من المظلوم روحاً صافية وقلباً حانياً يعفو عنه ويصفح ويغفر ويتجاوز، ويدفع السيئة بالحسنة، لا بسيئة مثلها، مع قدرته على ذلك، يندم المعتدي على ما صنع ويفيق من غفوته ويتقرب من صاحبه المعتدى عليه ويظهر له الندم ويتخذه صديقاً محباً فتحلّ المحبة والصداقة محل الكره والعداوة، وهذا هو الذي قرره الله تعالى في كتابه الكريم.

ودفع السيئة بالحسنة هو أعلى درجات العفو، بل إنه غمر بالنعمة من قبل صاحب الحق المظلوم لظالمه، لذلك كان أثره في العودة إلى الرشد والصواب والألفة بالغاً مبلغه، قال تعالى: **﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم، وما يلقّاها إلّا الذين صبروا وما يلقّاها إلّا ذو حظ عظيم﴾**[1].

ومن الأمثلة التي يناسب ذكرها في هذا المقام، لبيان معنى قوله تعالى: **﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم﴾** قصة ثمامة بن أثال، رضي الله تعالى عنه، وتحوله من عدو لدود لرسول الله ﷺ ومبغضٍ شديد إلى وليّ حميم، يحبه ﷺ أشدّ من نفسه، بسبب حسن معاملة الرسول ﷺ له، وتفقده إياه بنفسه عندما كان أسيراً بالمسجد النبوي الشريف.

روى أبو هريرة، رضيَ الله عنه، قال: بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة، يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ، فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل ما شئت، فترك حتى كان الغد، ثم قال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» قال: عندي ما قلت لك، فقال: «اطلقوا ثمامة» فانطلق إلى نجل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد،

---

(١) سورة فصلت/٣٤، ٣٥، وراجع كلام المفسرين على الاتيين، كتفسير ابن جرير وابن كثير والقرطبي، والفخر الرازي والشوكاني.

فقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحب الأديان إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ، وأن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة، قال له قائل: صبوت، قال: لا والله ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ»[1].

إن تفقد الرسول ﷺ لثمامة بن أثال الأسير كل يوم بنفسه، وسؤاله عنه، ثم أمره بإطلاقه بدون فداء، جعل ابن أثال يفي بوعده: إن تنعم تنعم على شاكر، فتحول من الحالة السابقة: حالة العداوة والبغضاء لرسول الله ﷺ ولدينه ولبلده، إلى محب لله ولرسوله ولدينه وبلده ومبغض لمن عاداه مقاطع لمن ناوأه: ﴿**فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم**﴾.

وذكر ابن هشام، رحمه الله قصة فضالة بن عمير الليثي الذي همَّ بقتل رسول الله ﷺ، وهو يطوف بالكعبة، يوم فتح مكة، قال: «... إن فضالة بن عمير بن الملوح الليثي أراد قتل النبي ﷺ، وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه، قال رسول الله ﷺ: «أفضالة؟» قال: نعم، فضاله يا رسول الله، قال: «ماذا كنت تحدث به نفسك؟» قال: لا شيء، كنت أذكر الله، قال: فضحك النبي ﷺ، ثم قال: «استغفر الله» ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه»[2].

---

(١) البخاري (٥/١١٧ - ١١٨) ومسلم (٣/١٣٨٦ - ١٣٨٧).

(٢) السيرة النبوية (٢/٤١٧) تحقيق مصطفى السقا وزميليه، طبع الحلبي، الطبعة الثانية، وراجع زاد المعاد بتحقيق الأرناؤوط (٣/٤١٢ - ٤١٣).

المبحث التاسع:
الإيثار

الإيثار تقديم الإنسان غيره فيما هو في حاجة إليه من أمور الدنيا، وتقابله الأثرة، وهي: استبداد الإنسان بالشيء وتسلطه عليه دون غيره.

فالإيثار أعلى درجات المعاملة مع الناس، ويليه العدل، وهو كما سبق اختصاص كل إنسان بحقه، وأسوأ درجات المعاملة هي الأثرة.

إن الإيثار يرفع المجتمع إلى قمة الأمن، لأن أفراده ارتفعوا عن حظوظهم الدنيوية، وآثر بها كل فرد أخاه، فهو لا يفكر في أخذ حقه كاملاً فضلاً عن التفكير في الأثرة والاستبداد.

والعدل يجعل المجتمع يتمتع بالأمن، لأن أفراده لا يفكرون في ظلم بعضهم بعضاً وإنما يحاول كل منهم أن يحصل على حقه كاملاً، وأن لا يقع منه على صاحبه ظلم في شيء، فلا يَظلم ولا يُظلم، ولا شك أن هذه الدرجة دون الأولى، لما يحصل فيها من المشاحَّة والمطالبة بالحقوق، وقد ينجم عن ذلك نزاع وخصام، ولكن ذلك لا يخل بالأمن، ما دام كل واحد وقافاً عنه حقه غير طامع في حق سواه.

أما الأثرة فهي الوباء الفتّاك الذي يجتثّ جذور الأمن من أساسها: إذ يكون أفراد المجتمع لا همّ لهم إلاّ الحصول على أكبر قسط من الحطام الفاني، سواء كان الحصول عليه بالحق أم بالباطل، وصاحب القوة هو صاحب الأثرة والاستبداد، لهذا تجد مجتمع الأثرة مجتمعاً متنافساً في الدنيا متسابقاً على حطامها، يحاول كل فردٍ وطائفة أن يقوي نفسه حتى يتمكن بقوته أن يستأثر ويستبدّ، فيسود ذلك المجتمع القلق والتصارع والقتال والثارات، وبذلك يختل أمنه، وينتشر الخوف بين أسره وأفراده، وكلما كان الإنسان أكثر أثرة كان أكثر بعداً عن طاعة الله، لأن طاعة الله تعالى إذا توافرت في الإنسان قلّ طمعه في الدنيا وخفّت الأثرة عنده وطمع فيما هو أكثر رضا لله تعالى.

لهـذا حثّ الله تعالى على الخلق الأسمي، وهـو خلق الإيثـار النـاتـج عن الـرغبة فيمـا عند الله، والتخلي عن خلق الشـحّ والحرص، وقـد حـاز قصب السبق في ذلك أنصار رسول الله ﷺ من أهل المدينة مع إخوانهم المهـاجرين، وسجّل الله لهم ذلك في كتابه، ليقتدي بهم من جاء بعدهم، فقال عزّ وجلّ: ﴿**والذين تبوءوا الـدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجـدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولـو كان بهم خصـاصة ومن يوقِ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾[1].

إيثار الرسول ﷺ أصحابه:

وإنما كان قدوة الصحابة رضي الله عنهم هو رسول الله ﷺ، وكان قـدوتهم في كل خلق فاضل، وذكر أمثلة إيثار الرسـول ﷺ على نفسه يـطول، فلنكتف بذكر مثال واحد على ذلك:

قال الإمام البخاري رحمه الله: «باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه، وتخلّيهم من الدنيا» ثم ساق حديثاً لأبي هريـرة، رضي الله عنه، أذكـره بنصه مع طوله، لما فيه من العبرة والقدوة الحسنة حيث يؤثر رسول الله ﷺ أصحـابه الفقراء بالشرب قبله ولم يشرب إلاّ ما فضل بعدهم، وكان جائعاً مثلهم.

حدّث مجاهد، رحمه الله، أن أبا هريرة، رضي الله عنه، كـان يقول: الله الـذي لا إله إلاّ هـو، إن كنت لأعتمد بكبـدي على الأرض من الجـوع، وإن كنت لأشـدّ الحجر على بـطني من الجوع، ولقـد قعدت يـوماً على طـريقهم الذي يخرجون منه، فمرّ أبو بكر، فسألته عن آية من كتـاب الله، ما سـألته إلاّ ليشبعني، فمرّ فلم يفعل، ثم مرَّ بي عمر، فسـألته عن آيـة من كتاب الله، مـا سـألته إلاّ ليشبعني؛ فمرَّ فلم يفعل، ثم مـرَّ بي أبو القـاسم ﷺ، فتبسّم حين رآني، وعرف ما في نفسي وما في وجهي، قال: «أبـا هريـرة» قلت: لبيك يـا رسول الله، قال: «الحق» ومضى، فتبعته، فدخل فاستأذن، فأذن لي، فـدخل فوجد لبناً في قدح، فقال: «من أين هذا اللبن؟» قالوا: أهـداه لك فـلان، أو فلانة، قـال: «أبا هـريرة» قلت: لبيـك يا رسـول الله، قال: «الحق إلى أهـل

(١) سـورة الحشر: ٩.

الصفة، فادعهم لي» قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال، ولا على أحد، إذا أتته صدقه. بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة؟ كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوّى بها، فإذا جاء أمرني، فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بدٌّ، فأتيتهم فدعوتهم، فأقبلوا فاستأذنوا، فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: «أبا هريرة» قلت: لبيك يا رسول الله قال: «خذ فأعطهم» قال: فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل، فيشرب حتى يروى، ثم يردّ عليّ القدح، فيشرب حتى يروى، ثم يردّ عليّ القدح، حتى انتهيت إلى النبي ﷺ، وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إليّ فتبسّم، فقال: «أبا هريرة» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «بقيت أنا وأنت» قلت: صدقت يا رسول الله: «اقعد فاشرب» فقعدت فشربت، فقال: «اشرب» فشربت، فما زال يقول: «اشرب» حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً، قال: «فأرني» فأعطيته القدح، فحمد الله وسمّى وشرب الفضلة»[1].

وفي الحديث ـ زيادة على إيثاره ﷺ أصحابه ـ تربية غيره على الإيثار، لأن أبا هريرة رضي الله عنه، هو الذي تعرّض للرسول ﷺ، لشدة جوعه، يريد الحصول على ما يقيم صلبه، فجعله ينادي أهل الصفة، وطلب منه أن يسقيهم كلهم قبله ـ وهذا ما كان يخافه أبو هريرة ـ ولكنه خاف نفاد اللبن فكثّره الله تكريماً لنبيه ﷺ.

وهكذا سما مجتمع أصحاب رسول الله ﷺ إلى خلق الإيثار فضربوا أروع الأمثلة للبشرية في هذا الباب، كغيره من أبواب الخير.

وفي قصة سعد بن الربيع، مع عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهما، عندما آخى بينهما رسول الله ﷺ، إذ عرض سعد على عبد الرحمن أن يقسمه ماله ويتنازل له عن إحدى زوجتيه، فيطلّقها فإذا انتهت عدّتها تزوجها

---

(١) البخاري (٧/ ١٧٩ ـ ١٨٠).

عبد الرحمن، في هذه القصة مثل رائع للإيثار الذي اتصف به مجتمع أصحاب رسول الله ﷺ.

فقد روى إبراهيم بن سعد، عن أبيه عن جده، رضي الله عنه قال: لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، قال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمِّها لي أطلِّقها، فإذا انقضت عدّتها فتزوجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم، فدلّوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلاّ ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدو، ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة، فقال النبي ﷺ: «مهيم» قال: تزوجت، قال: «كم سقت إليها؟» قال: نواة. من ذهب..»[1].

إن سعداً رضي الله ﷺ عنه لم يكتفِ بعرض نصف ماله على أخيه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وكان المال كافياً للنفقة على نفسه ولأداء مهرٍ لامرأة يتزوجها والإنفاق عليها، لم يكتف سعد بذلك بل أراد أن يتساوى هو وأخوه في الإسلام في كل ما يملك.

وإذا كان سعد الأنصاري قد وصل إلى تلك القمة من الإيثار فإن عبد الرحمن المهاجري قد وصل إلى قمة الزهد والقناعة والاستغناء بالله عن الناس، فآثر أن يسعى بنفسه في كسب رزقه، حتى أغناه الله.

إن المجتمع الذي يوجد فيه من يؤثر غيره على نفسه، كما يوجد فيه من يزهد فيما عند غيره، ويقنع بما يؤتيه الله ويفضل أن ينفق على نفسه من كسب يده، إن هذا المجتمع جدير أن يعيش في أمن واستقرار يظلله الحب والتعاون والوئام.

ومن الأمثلة الرائعة للإيثار في مجتمع أصحاب رسول الله ﷺ قصة الأنصاري وامرأته، مع ضيف رسول الله ﷺ، حيث آثراه بقوت صبيانهما الصغار، وباتوا طاوين من أجل إشباع الضيف كما روى أبو هريرة، رضي الله عنه، أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلاّ الماء،

---

(١) البخاري (٤/٢٢٢).

فقال رسول الله ﷺ: «من يضم أو يضيف هذا؟» فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: «أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني فقال: هيّيء طعامك واصبحي سراجك، ونوّمي صبيانك إذا أرادوا عشاءً، فهيأت طعامها وأصبحت سراجها ونوّمت صبيانها، ثم قامت كأنّها تصلح سراجها، فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال: «ضحك الله الليلة، أو عجب من فَعالكما، فأنزل الله: ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شُحّ نفسه، فأولئك هم المفلحون**﴾[1].

وتنافس المجتمع الاسلامي في الإيثار بشئون الدنيا، يقابله تنافسهم في الطاعات التي لم يجعلها الشارع محلاً للإيثار، كمتاع الدنيا.

قال ابن القيم رحمه الله: «فالإيثار إما أن يتعلق بالخلق، وإما أن يتعلق بالخالق، وإن تعلق بالخلق فكماله أن تؤثرهم على نفسك بما لا يضيع عليك وقتاً، ولا يفسد عليك حالاً، ولا يهضم لك ديناً ولا يسدّ عليك طريقاً، ولا يمنع لك وارداً، فإن كان في إيثارهم شيء من ذلك، فإيثار نفسك عليهم أوْلى، فإن الرجل من لا يؤثر بنصيبه من الله أحداً كائناً من كان، وهذا في غاية الصعوبة على السالك والأول أسهل منه، فإن الإيثار المحمود الذي أثنى الله على فاعله الإيثار بالدنيا لا بالوقت والدين وما يعود بصلاح القلب «إلى أن قال: «فلم يجعل الشارع الطاعات والقربات محلاً للإيثار، بل محلاً للتنافس والمسابقة»[2].

والمجتمع الذي يتنافس أفراده في الإيثار بالدنيا ومتاعها، ويتنافسون في الطاعات والقربات هو المجتمع الذي لا يمكن أن يوجد في الأرض مجتمع مثله ينعم بالأمن والمحبة والسلام.

والذي يتأمل أحوال المسلمين في هذا الزمان يرى أن الخوف والمحن التي نزلت بهم آتية من فقد هذين الأصلين وناتجة عن أصلين مضادين لهما،

---

(١) البخاري (٤/٢٢٦) ومسلم (٣/١٦٢٤)، والآية في سورة الحشر: ٩.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص ٥٢٩ ـ ٥٣١) طبع الشؤون الدينية بقطر.

وهما التنافس على حطام الدنيا والتنافس في معاصي الله والقعود عن التنافس في طاعته.

وذلك هو الشُحّ الذي هلكت به الأمم: الشحّ بطاعة الله والشح بالدنيا، كما روى جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشحّ، فإن الشحّ أهلك من كان قبلكم، حملهم أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم»[1].

وقد حذّر رسول الله ﷺ أمّته من الشحّ الذي يصاحبه نقص العمل الصالح وكثرة القتل، وهو ما نراه في هذا الزمان رأي العين، وهو يزداد كثرة كل يوم. روى أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويُلقى الشحّ، ويكثر الهرج» قالوا: وما الهرج؟ قال: «القتل القتل»[2].

---

(١) مسلم (١٩٩٦/٤).

(٢) البخاري (٨٢/٧).

المبحث العاشر:
حسن الظن

إن الأصل في المؤمن أن تحمل أفعاله وأقواله على الخير، وإذا صدر منه قول أو فعل تأكد خطأه فيه، فالأصل أن يحمل على حسن نيته، إلاّ إذا دل دليل على خلاف ذلك.

وبهذا الأصل يسد المسلمون المنافذ التي يلج منها الشيطان للإيقاع بينهم والخصام والشجار وسوء الظن والتهاجر والتقاطع والتدابر، لأن المسلم إذا اجتهد في حمل تصرفات أخيه المسلم على الخير سلم عليه قلبه وبقي معه على الإخاء والمودة والائتلاف، وأمن كل واحد صاحبه ولم يتخونه.

وقد أمر الله المؤمنين بهذا الأصل في معاملة من أعلن إسلامه، أو أتى بقرينة تدل على ذلك فور وجود ذلك منه، ولو كان قبل لحظة من إسلامه عدواً محارباً في أرض المعركة، ولو خاف المسلمون أنه إنما قال ما قال أو فعل ما فعل متعوذاً، فإن ذلك لا يجوز أن يحملهم على سوء ظن يجعلهم يعاملونه معاملة الكافر، كما قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة، كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم، فتبيّنوا إنّ الله كان بما تعملون خبيراً﴾**[1].

والتثبت من صحة إسلام الكافر أمر مطلوب، ولكن سوء الظن الذي ينبني عليه عدم تصديقه ومعاملته معاملة الكافر غير مرضي عنه عند الله تعالى، وهو تغليب لحسن الظن.

وقد أنكر الرسول ﷺ أشد الإنكار على أسامة حين قتل من قال: لا إله إلاّ الله، ظناً منه أنه إنما قالها ليتقي بها القتل، قال أسامة: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرَقة من جهينة فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار

---

(١) سورة النساء/٩٤.

رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكفّ عنه الأنصاري وطعنته برمحي حتى قتلته، قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «يا أسامة، أقتلته بعدما قال: لا إله إلاّ الله؟» قال: قلت: يارسول الله، إنما كان متعوذاً، قال، فقال: «أقتلته بعدما قال: لا إله إلاّ الله؟» فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أنّي لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم»[1].

وقد عاتب سبحانه من تورط في حديث الإفك وبيّن أنه كان يجب عليهم أن يظنوا بأنفسهم خيراً - والمؤمن المتهم هو من أَنْفُس المؤمنين وأن يقولوا: إن ذلك إفك بيّن واضح بدلاً من الاتهام عملاً بذلك الأصل الذي هو حسن ظن المسلم بأخيه المسلم، حتى يثبت بالبرهان خلاف ذلك الأصل.

قال تعالى: ﴿ **لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين**﴾[2].

وأمر سبحانه وتعالى المؤمنين باجتناب كثير من الظنّ، وهو كل ظنّ لم يقم عليه دليل، وأن بعض الظن إثم، قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إن بعض الظن إثم ولا تجسَّسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً**﴾[3].

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثيرٍ من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله، لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، فليجتنب كثير منه احتياطاً، وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال: «ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلاّ خيراً وأنت تجد لها في الخير محملاً»[4].

ولقد حذر الرسول ﷺ من الظن السيّء كما حذّر منه القرآن الكريم. روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظنّ أكذب الحديث»[5].

وكم حطم سوء الظن الكاذب أسراً ومجتمعات ودولاً، بسبب عدم التأدب

---

(١) البخاري (٥/٨٨) ومسلم (١/٩٦ - ٩٧).
(٢) سورة النور/١٢.
(٣) سورة الحجرات/١٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/٢١٢).
(٥) البخاري (٧/٨٨) ومسلم (٤/١٩٨٥).

بأدب الإسلام والعمل بالأصل الذي هو حسن الظن بالمسلم، فإذا ترك هذا الأصل أخذ الشيطان يصور للمرء أموراً كثيرة من التهم لأخيه المسلم، وتزداد يوماً بعد يوم حتى يصبح عنده عدواً لدوداً، ثم يأخذ في التخطيط للقضاء على عدوه المزعوم، دفاعاً عن نفسه وثأراً لها، ويعد كل ما في استطاعته للإضرار به، حتى يستحكم النزاع ويصل إلى ما لاتحمد عقباه من الفتن. والسبب الأول في ذلك كله هو سوء الظن الذي لا يسنده دليل، وهذا ما دأب عليه كثير من المسلمين في هذا العصر أفراداً وجماعات ودولاً، لذلك كثرت بينهم الخلافات والمهاترات، وانشغل المسلمون بعضهم ببعض، اتهاماً ودفاعاً ونسوا الواجب الذي كلّفهم الله إياه وهو الفقه في الدين والعمل به والدعوة إليه والجهاد في سبيل الله، واجتماع الكلمة ونبذ التفرق والخلاف.

هذا كله إذا كان الظن لا دليل عليه، وظاهر المسلم المظنون به الخير والصلاح والبعد عن الريب، أما إذا قام على ذلك دليل يرجح وجود ما ظن الظان في صاحبه، فإن ذلك الظن حينئذ لا شيء فيه، بل هو مشروع وقد يجب، حذراً من صاحبه[1].

---

(١) راجع شرح السنة للإمام البغوي (١٣/ ١١٠ - ١١١) والجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣٠ - ٣٣٢).

المبحث الحادي عشر:
نصر المظلوم

جرى التقدير الكوني أن يكون في البشر القوي والضعيف والظالم والمظلوم، والأصل في الظلم أن يكون صادراً من القوي ضد الضعيف، لأن الضعيف، لا يقدر على ظلم القوي جهراً، وإن كان قد يحتال ليظلم بالدسّ والخداع والحيل.

ولما كان الظلم مهلكاً لعامة الناس تحتم عليهم التعاون على دفعه قبل حصوله ورفعه بعد حصوله والتناصر على الظالم دفعاً لظلمه عن أنفسهم، وهذا المعنى يقتضيه العقل السليم والقواعد العرفية والأخلاقية، وإذا لم يتناصر الناس على دفع الظلم وإزالته والأخذ على يد الظالم عمّ الظلم وانتشر وأفسد العباد والبلاد.

ولهذا أوجب الله تعالى على المسلسلن أن ينصروا المظلوم على ظالمه تنفيذاً لقاعدة التعاون على البرّ والتقوى، لا على الإثم والعدوان كما قال تعالى: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾[1].

وقد أمر الرسول ﷺ بنصر المظلوم، كما روى أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قالوا: يا رسول الله هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «نأخذ فوق يديه»[2] يعني تحجزونه عن ظلمه.

وفي حديث البراء بن عازب، رضي الله عنهما قال: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع.. فذكر: عيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ورد السلام ونصر المظلوم، وإجابة الداعي، وإبرار المقسم»[3].

في حديث جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: اقتتل غلامان: غلام من المهاجرين، وغلام من الأنصار، فنادى المهاجر أو المهاجرون: يا

---

(١) سورة المائدة/٢.　(٢) البخاري (٣/٩٨).　(٣) البخاري (٣/٩٨).

للمهاجرين، ونادى الأنصاري: ياللأنصار فخرج رسول الله ﷺ، فقال: «ما هذا دعوى أهل الجاهلية؟»، قالوا: لا يا رسول الله، إلّا أن غلامين اقتتلا، فكسع أحدهما الآخر، قال: «فلا بأس ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينهه، فإنه له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره»[1].

ولو أنَّ المسلمين تناصروا فيما بينهم، فنصروا المظلوم على ظالمه سواء حضر المظلوم أم غاب، وسواء كان فرداً أم جماعة، حاكماً أم محكوماً لساد بينهم الأمن وابتعد الظالم عن ظلمه، لعلمه بأن المسلمين لا يقرونه عليه ولا يسلّمون له المظلوم.

ولكن تركهم لهذه الفريضة، كغيرها من الفرائض كان سبباً في انتشار الظلم في الأرض وذاق كل فرد أو جماعة أو دولة مرارة الظلم لرضاهم به عندما يقع على غيرهم أو سكوتهم عنه مع قدرتهم على الوقوف في وجه أهله.

---

(١) البخاري (٦/٦٥) ومسلم (٤/١٩٩٨).

المبحث الثاني عشر:
ستر المسلم

إن الله تعالى يبغض المعاصي ويبغض أهلها، كما يحب الطاعات ويحب أهلها، لذلك أمر عباده بطاعته، ونهاهم عن معصيته ورتّب على طاعته ثوابه ورضاه، كما رتّب على المعصية مقته ووعيده.

ولما كان سبحانه يحب الطاعة فهو يحب ظهورها وانتشارها والحديث عنها في المجتمع، ولما كان يبغض المعصية، فإنه يكره ظهورها وشيوعها في المجتمع، ومن هنا شرع سبحانه للمؤمن إذا قارف حوباً أن يستر نفسه، كما شرع للمسلم إذا اطّلع على ذنب من أخيه أن يستره.

روى أبو هريرة، رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كل أمتي معافى إلّا المجاهرون، وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عليه»[1].

وسأل رجل ابن عمر، رضي الله عنهما، فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: «يدنو أحدكم من ربه، حتى يضع كنفه عليه، فيقول: عملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم فيقرره، ثم يقول: سترت عليك في الدنيا، فأنا أغفرها لك اليوم»[2].

هكذا شرع الله للمسلم إذا اقترف ذنباً أن يستر نفسه، والله عزّوجلّ امتنّ على عبده بستره له في الدنيا ومغفرته له في الآخرة، والمغفرة هي الستر وعدم فضح المذنب أمام الأشهاد ومحو ذنبه.

أما ستر المسلم أخاه المسلم فقد ورد فيه ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه،

---

(١) البخاري (٧/٨٩) ومسلم (٢٢٩١).
(٢) البخاري (٧/٨٩) ومسلم (٤/٢١٢٠).

من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[1].

وهنا قد يرد سؤال، وهو: كيف يجمع بين ستر المسلم أخاه المسلم وبين قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

وأجاب عنه الحافظ ابن حجر رحمه الله، فقال: وليس في هذا - يعني ستر المسلم - ما يقتضي ترك الإنكار عليه فيما بينه وبينه، ويحمل الأمر في جواز الشهادة عليه بذلك على ما إذا أنكر عليه ونصحه فلم ينته عن قبيح فعله، ثم جاهر به، كما أنه مأمور بأن يستتر إذا وقع منه شيء، فلو توجه إلى الحاكم وأقر لم يمتنع ذلك، والذي يظهر أن الستر محله في معصية قد انقضت، والإنكار في معصية قد حصل التلبّس بها، فيجب الإنكار عليه، وإلاّ رفعه إلى الحاكم...»[2].

هذا وفي ستر المسلم نفسه وستر المسلم أخاه المسلم إذا ارتكب معصية سدّ لذريعة فشو المعاصي وانتشارها في المجتمع، لأن في فشوها وانتشارها استمراء أفراد المجتمع لها، وبخاصة إذا تكرر ذكرها ونسبتها إلى فلان وفلان.

كما أن في ستر المسلم أخاه المسلم إعطاءه فرصة للتوبة والندم والرجوع إلى الله تعالى، وزيادة المحبة بين الساتر والمستور، بخلاف ما إذا هتك ستره فإن في ذلك - فوق فشو المعاصي - تأجيج نار العداوة بينهما، وفيه تجري للعاصي على استمراء المعصية لأنه بعد ظهورها للناس يستهين بها، وقد يتمادى في ارتكابها لقلة حيائه، بخلاف ما إذا كانت مستورة، فإن في ذلك ما يدفعه إلى تركها حياءً من أن تظهر بين الناس.

---

(١) البخاري (٣/٩٨) ومسلم (٤/١٩٩٦). (٢) الفتح (٥/٩٧).

المبحث الثالث عشر:
تعليم الجاهل والرفق به

الجهل داء عضال، وإقدام الجاهل على المعصية غير مستنكر، لذلك يجب على المجتمع أن يتعاون أفراده على تعليم بعضهم بعضاً ما يجهلونه من أمور دينهم ومعاشهم، حتى تقوم الحجة عليهم، ويكفّوا عن الاعتداء على حقوق بعضهم.

والعالم الذي يكتم علمه عن المحتاج إليه معرّض للَعنة الله تعالى، كما قال سبحانه: **﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعد ما بيّنّاه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلاّ الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التوّاب الرحيم﴾**[1].

وتوعّد سبحانه كاتم العلم بالنار، وأنه لا يحصل إلاّ ممن استبدل الضلال بالهدى الذي آتاه الله ليهتدي به فحرم نفسه منه وحرم الناس، لأن في كتم العلم خفاء الحق على الناس والتباسه بالباطل، وذلك من أسباب الخلاف والشقاق المؤديين إلى فقد الناس الطمأنينة والأمن.

قال تعالى: **﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلاّ النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وأن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾**[2].

والمجتمع الذي يتعلم أفراده دين الله ويفقهونه، لا سيما ما يتعلق بفروض العين التي تجب على كل فردٍ بعينه، وفروض الكفاية التي تقوم به طائفة كافية منه، هو مجتمع خير، ومن أهم ما يدخل في ذلك الخير أمن المجتمع من اعتداء بعض أفراده على بعض، بسبب فقههم في دين الله.

---

(١) سورة البقرة/١٥٩ - ١٦٠. (٢) سورة البقرة/١٧٤ - ١٧٦.

أما المجتمع الجاهل الذي لا يدري أفراده أحكام تصرفاتهم أحلالٌ هي أم حرام فإنه مجتمع سوء وبلاء، ومن السوء الذي يصاب به المجتمع فقده الأمن لتعدّي بعض أفراده على بعض، بسبب جهلهم في الغالب.

وقد تضمن هذا المعنى حديث معاوية، رضي الله عنه، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»[1].

فدلّ الحديث بمنطوقه على أن من فقهه الله في الدين فقد أراد به الخير، ودلّ بمفهومه أن الذي لم يفقهه في الدين فهو محروم من الخير واقع في الشر.

وقد كان الرسول ﷺ يحرص أشد الحرص على نشر العلم وقيام سامعه وشاهده بتبليغ من غاب عنه، وبخاصة ما يتعلق بحقوق الناس التي يأمنون بسلامتها من الاعتداء عليها، ويخافون إذا اعتدى عليها معتدٍ.

روى أبو بكرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «... فإن دماءكم وأموالكم.. وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، فلا ترجعن بعدي كفاراً... يضرب بعضكم رقاب بعض، ألَا لِيبلغ الشاهد الغائب، فلعلّ بعض من يُبَلِّغُه يكون أوعى له من بعض من سمعه» ثم قال: «ألَا هل بلّغت؟»[2].

وإذا كان الواجب على العالم أن يعلم ولا يكتم ما يجب عليه بيانه للناس فإن الواجب على الجاهل أن يتعلم ويسأل أهل العلم عما يجب عليه علمه قال تعالى: ﴿**فاسألوا أهل الذكر، إن كنتم لا تعلمون**﴾[3].

وينبغي أن يكون العالم رفيقاً بالجاهل في تعليمه، مرغباً له فيه بالوسائل

---

(١) البخاري (١/٢٥ ـ ٢٦) ومسلم (٣/١٥٢٤).

(٢) البخاري (٢/١٩١) ومسلم (٣/١٣٠٥) وما بعدها.

(٣) سورة النحل/٤٣.

المتاحة التي تجعله يقبل عليه ويحبه، بخلاف ما إذا كان غليظاً شديداً، فإن المتعلم ينفر منه ولا يستفيد من علمه ولا يحبه المحبة التي تجعله يقتدي به.

والقدوة في رفق العالم بالجاهل هو رسول الله ﷺ الذي علّم أصحابه كيف يعاملون الجاهل.

تأمل في ذلك قصة معاوية بن الحكم السلمي، رضي الله عنه، ونفوره من أسلوب تعليم بعض أصحاب النبي ﷺ، وتأثّره بتعليم الرسول ﷺ بذلك الأسلوب النبوي العالي الذي جعل معاوية يزيد إقبالاً على رسول الله ﷺ، وسؤاله عن بعض الأمور التي كان يجهل حكمها.

قال معاوية، رضي الله عنه: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه، ما شأنكم تنظرون إليّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني، لكني سكت فلما صلّى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن «أو كما قال رسول الله ﷺ»[1] ثم أخذ يسأل رسول الله ﷺ عن بعض الأمور.

كان معاوية رضي الله عنه يتوقع ـ فيما يبدو ـ تأنيباً من رسول الله ﷺ على كلامه في الصلاة الذي كان سبباً في تلك النظرات المستنكِرة من أصحاب رسول الله ﷺ، فلمّا وجد ذلك الرفق من رسول الله ﷺ سكنت نفسه وطاب خاطره، فقال ما قال.

وقد رأى النبي ﷺ أعرابياً يبول في المسجد ونهى أصحابه رضي الله عنهم عن تأنيبه ودعا بماء فأمر بصبّه على موضع بوله، كما في حديث أنس رضي الله عنه، قال: «بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ، إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه، مه (وفي رواية: فصاح به الناس)، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزرموه، دعوه» فتركوه حتى

---

(١) مسلم (١/٣٨١ ـ ٣٨٢).

بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه، فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله عزّ وجلّ والصلاة وقراءة القرآن، أو كما قال رسول الله ﷺ، قال: فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنه عليه»[1].

وروى أبو هريرة الحديث بلفظ: أن أعرابياً دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس، فصلى ركعتين، ثم قال: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً، فقال النبي ﷺ: «لقد تحجرت واسعاً» ثم لم يلبث أن بال في ناحية المسجد، فأسرع الناس إليه، فنهاهم النبي ﷺ، وقال: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين، صبوا عليه سجلاً من ماء» أو قال: «ذنوبا من ماء»[2].

فلو أن علماء المجتمع الإسلامي وطلبتهم بذلوا جهدهم في تعليم جهاله بهذا العطف والرفق لأثروا بتعليمهم وأسلوبهم في الجهال تأثيراً يجعلهم يستجيبون لتنفيذ أمر الله وهدايته ويكفّوا عن ارتكاب ما يقلق المجتمع ويفقده الأمن والسلام.

---

(١) البخاري (٧/ ٨٠) ومسلم (١/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧).

(٢) أبو داود (١/ ٢٦٣ ـ ٢٦٥) والترمذي (١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

المبحث الرابع عشر:
الإحسان إلى الجار

لقد أوصى الله تعالى بالإحسان إلى الجار، كما أمر بالإحسان إلى الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين، فقال تعالى: ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجارِ ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً**﴾[1].

وفسّر بعض العلماء الجار القريب بالمسلم، والجار الجنب باليهودي والنصراني وغيرهما[2].

ويشمل الإحسان إلى الجار بذل الخير له مواساة وعشرة حسنة وتعليماً ونصراً وكفّ أذىً وغيرها[3].

وكل دار قرب من دار المرء فأهله جيران له، وكلما كانت الدار أقرب كان أهلها أكثر استحقاقاً لإحسانه من غيرهم، وذكر بعض العلماء أن حد الجيرة أربعون داراً من كل ناحية، ونقل عن آخرين أن من سمع النداء فهو جار[4].

وبتصور هذا الحد يظهر أن الجيرة تشمل مدناً بأسرها لأن الذي لا يكون جاراً للمرء يكون جاراً لجاره، وهكذا، فإذا لم ينل المرء إحسان رجل لكونه ليس جاراً له، ربّما ناله إحسانه على يد جار المحسن مادياً كان كالهدايا والهبات، أو معنوياً كالتعليم والقدوة الحسنة والأخلاق الحميدة، فإن الجار يؤثر في جاره، وهذا يؤثر في جيرانه وهكذا.

تصور لو أن كل مسلم وأسرته اجتهدوا في إيصال إحسانهم إلى أربعين داراً من جيرانهم من جميع الجهات المحيطة بدارهم، وهذا الإحسان كما

---

(١) سورة النساء/٣٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٥/١٨٣ ـ ١٨٤، ١٨٨).

(٣) المرجع السابق (٥/١٨٤).

(٤) المرجع السابق (٥/١٨٥).

تقدم يشمل الإحسان المادي والإحسان المعنوي كيف سيكون حال المجتمع الإسلامي في تعاونه وتحابّه وأمنه؟

وقد اهتم الرسول ﷺ بحق الجار وحثّ عليه بأساليب متنوعة، ويجمعها أمران:

الأمر الأول: الحضّ على إكرامه بصفة عامة، ومواساته.

الأمر الثاني: التحذير من إيذائه.

فمن أمثلة الأمر الأول ما يأتي:

حديث عائشة وابن عمر رضي الله عنهم، أن رسول الله ﷺ قال: «مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[1].

وحديث أبي شريح رضي الله عنه، قال: سمعت أذناي رسول الله ﷺ وأبصرت عيناي حين تكلم النبي ﷺ، فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخرة فليكرم جاره...»[2].

ومن أمثلة أداء حقوقه ومواساته أن لا يبيع الجار دارهُ من غير جاره إلاّ بإذنه، كما روى عمرو بن الشريد، قال: وقفت على سعد بن أبي وقّاص، فجاء المسور بن مخرمة، فوضع يده على إحدى منكبيّ، إذ جاء أبو رافع مولى النبي ﷺ، فقال: يا سعد، ابتع مني بيتي في دارك، فقال سعد: والله ما ابتاعهما، فقال المسور: والله لتبتاعهما قال سعد: والله لا أزيدك على أربعة آلاف منجمة أو مقطعة، قال أبو رافع: لقد أعطيت بهما خمسمائة دينار، ولولا أني سمعت النبي ﷺ يقول: «الجار أحق بسقبه» ما أعطيتكهما بأربعة آلاف، وأنا أعطي بهما خمسمائة دينار، فأعطاها إياه»[3].

وقد استدل بالحديث من رأى الشفعة للجار وإن لم يكن شريكاً والكلام في ذلك مفصّل في كتب الفقه وشروح الحديث في الباب الخاص بالشفعة.

ومن ذلك إذْن الجار لجاره أن ينتفع بجداره في ما لا يعود عليه بضرر،

---

(١) البخاري (٧/٧٨) ومسلم (٤/٢٠٢٥). (٢) البخاري (٧/٧٩) ومسلم (١/٦٩).

(٣) البخاري (٣/٤٧) والسقب: القرب، أي أحق بدار الجار القريبة منه.

مثل غرز خشبة فيه وربط حبل أو إسناد حائط عليه كما في حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة في جداره» ثم قال أبو هريرة: ما لي أراكم عنها معرضين؟! والله لأرمينّ بها بين أكتافكم»[1].

ومن ذلك مواساة الجار وإهداؤه ما تيسر من طعام أو غيره لما فيه من جلب المحبة والمودة، كما روى أبو هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «يا نساء المسلمات لا تحقرنّ جارة لجارتها ولو فرسن شاة»[2].

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال: إن خليلي أوصاني «إذا طبخت مرقاً فأكثر ماءه، ثم انظر أهل بيت من جيرانك، فأصبهم منها بمعروف»[3].

وسألت عائشة، رضي الله عنها، رسول الله ﷺ، قالت: قلت: يارسول الله، إن لي جارين، فإلى أيهما أهدي؟ قال: إلى أقربهما منك باباً»[4].

ونهى ﷺ أن يبيت الرجل شبعاناً، وجاره جائع. روى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يشبع الرجل دون جاره»[5].

والذي يظهر من هذه الأحاديث وغيرها أنه إذا استوى الجيران في الحاجة وعدمها قدم الجار الأقرب في الهدية والهبة ونحوها، إذا لم يكن عند الجار ما يسع الجميع، أما إذا كان بعض الجيران مكتفياً والآخر ذا مخمصة فإنه يقدم المحتاج على غيره، لحديث أبي ذر السابق: «انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم» وحديث عمر المذكور، وفيه النهي عن أن يشبع الجار دون جاره، والله أعلم.

ومن أمثلة الأمر الثاني ـ وهو التحذير من إيذاء الجار ـ ما يأتي: حديث أبي شريح، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، قال: «والله لا يؤمن، والله لا

---

(١) البخاري (٣/١٠٢) ومسلم (٣/١٢٣٠).
(٢) البخاري (٣/١٢٨ ـ ١٢٩) ومسلم (٢/٧١٤). وفرسن الشاة: ظفرها.
(٣) مسلم (٤/٢٠٢٥). (٤) البخاري (٨/٧٩). (٥) أحمد (١/٥٤ ـ ٥٥).

يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «من لا يأمن جاره بوائقه»[٦].

والمراد بالبوائق: الغوائل والشرور والدواهي، وهي تشمل كل ضرر.

وفي حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره»[١].

في هذين الحديثين نهى عن إيذاء الجار بصفة عامة.

وجعل ﷺ من أكبر الذنوب الزنا بامرأة الجار، كما روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رجل: يارسول الله، أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تدعو لله نِدًّا وهو خلقك» قال: ثم أيّ؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك» قال: ثم أيّ؟ قال: «أن تزاني حليلة جار»، فأنزل الله عزّ وجلّ: **﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً﴾**[٢].

ونصب ﷺ ثناء الجيران على جارهم وذمهم له مقياساً للإحسان والإساءة كما في حديث ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رجل: يا رسول الله، كيف لي أن أعلم إذا أحسنت أو إذا أسأت؟ فقال النبي ﷺ: «إذا سمعت جيرانك يقولون: أحسنت فقد أحسنت، وإذا سمعتهم يقولون: أسأت فقد أسأت»[٣].

قد يقال: إن الرجل الصالح قد يجاور أهل السوء فلا يثنون عليه خيراً لمفارقته لهم في تمسكه بدينه وأخلاقه وبعدهم عن ذلك، ولكن الواقع أن الرجل الصالح الذي يكون حسن الأخلاق في معاملته للناس تجد الناس يذكرونه بالخير في معاملته، ولو كانوا فسّاقاً أو كفاراً وإن خالفوه في معتقده وسلوكه في الغالب، ولكن بعض الناس قد يظهر بمظهر الرجل الصالح في

---

(٦) البخاري (٧/٧٨). (١) البخاري (٧/٧٨ ـ ٧٩).
(٢) البخاري (٥/١٤٨) ومسلم (١/٩٠ ـ ٩١) سورة الفرقان/٦٨.
(٣) ابن ماجه (٢/١٤١٢) قال المحقق: «في الزوائد: إسناد حديث عبدالله ابن مسعود هذا صحيح، رجاله ثقات، ورواه ابن حبان في صحيحه من طريق عبدالرزاق به».

عبادته ولكنه يسيء إلى الناس في معاملته، فيذكرونه بسوء، وقد يظن من لا خبرة له به أن جيرانه يفترون عليه ولكنه إذا خالطه وجده فظًا غليظ القلب ظالماً في معاملته للناس، فلا يغترّ بالظواهر وحدها حتى تضاف إليها المخابر.

وذكر ﷺ أن من علامات الساعة سوء المجاورة، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما، أنه سمع رسول الله ﷺ، قال: «لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفاحش وقطيعة الرحم، وسوء المجاورة»[1].

وعنه ـ أيضاً ـ عن رسول الله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله خيركم لصاحبه، وخير الجيران خيركم لجاره»[2].

وبهذا يعلم أن أداء حقوق الجار والإحسان إليه ومواساته وكفّ الأذى عنه من أعظم ما يحقق الأخوة الإسلامية بين المسلمين ويؤلف بين قلوبهم ويجعل بعضهم يأمن بعضاً.

(١) أحمد (٢/١٦٢).   (٢) (٢/١٦٨).

المبحث الخامس عشر:
حب الطاعات وبغض الفواحش

خلق الله سبحانه الخلق لعبادته، وأمرهم بطاعته، وحبّب إلى عباده المؤمنين الإيمان وزيّنه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ونهى سبحانه عن الفحشاء والمنكر، ووقف إبليس ـ لعنه الله ـ للناس بالمرصاد يبغضهم في طاعة الله ويزيّن لهم الفحشاء والمُنكر.

والواجب على المجتمع المسلم أن يجتهد في تحقيق أفراده عبادة الله وطاعته، وطاعة رسوله ﷺ، وأن يطهرهم من المعاصي والفواحش التي نهى الله سبحانه وتعالى عنها، لأن المجتمع الذي تنتشر فيه الفاحشة يفقد السعادة والراحة والأمن على نفسه وماله وعرضه، والمجتمع الذي تنتشر فيه الطاعة والعبادة يتمتع بالرحمة والطمأنينة والمحبة.

وقد دلّت الآيات القرآنية أن في طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ الفوز العظيم في الدنيا والآخرة والرحمة، وأمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله وحذّر من مخالفة أمره.

قال تعالى: **﴿ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾**[1].

وقال تعالى: **﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾**[2].

وقال تعالى: **﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾**[3].

وقيّد سبحانه طاعة أولي الأمر بعدم التنازع، فإذا حصل تنازع بين أولي الأمر والرعية، وجب الأحتكام إلى الله والرسول، حتى لا يطغى أحد على

---

(١) سورة النور/٥٢. (٢) سورة الأحزاب/٧١. (٣) سورة التوبة/٧١.

أحد بمعصية الله تعالى، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن تولّيتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾[2].

واخبر تعالى أنه يحبّ المتقين، وهم أهل طاعته، فقال: ﴿فإن الله يحب المتقين﴾[3] ﴿إن الله يحب المتقين﴾[4].

وأوجب سبحانه وتعالى محبته على عباده، ودلّهم على ما يحققها وهو العمل بكتابه وسنة رسوله ﷺ، أي طاعته وطاعة رسوله، فقال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾[5].

كما أخبر سبحانه وتعالى أنه حبّب إلى عباده المؤمنين الإيمان والطاعة، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وذلك من أعظم نعمه عليهم، لأنهم بذلك يكونون أهل رشد وهداية، ويكون غيرهم أهل غيّ وضلال، وأهل الرشد هم أهل التمكين والأمن والسعادة، وأهل الضلال هم أهل الشقاء والخوف والنكد، قال تعالى: ﴿وأعلموا أن فيكم رسول الله ﷺ لو يطيعكم في كثير من الأمر لَعَنِتّم ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم﴾[6].

ويفهم من هذه الآية أن من يسعى لنشر الكفر والمعاصي والفسوق في المجتمع ليس من الراشدين وإنما هو من السفهاء الضلّال الذين يريدون غير ما يريد الله، الله يريد تطهير المجتمع من كل فاحشة وهم يريدون تنجيس المجتمع بنشر كل فاحشة فيه وإشاعتها كما قال تعالى: ﴿والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتّبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما﴾[7].

---

(١) سورة النساء/٥٩. (٢) سورة المائدة/٩٢. (٣) سورة آل عمران/٧٦.
(٤) سورة التوبة/٤، ٧. (٥) سورة آل عمران/٣١.
(٦) سورة الحجرات/٧، ٨. (٧) سورة النساء/٢٧.

وقد أوجز ابن كثير رحمه الله الطوائف التي تتّبع الشهوات وتريد غير مراد الله، من الميل عن هداه إلى ضلالهم وفسادهم، فقال: «أي يريد أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة أن تميلوا عن الحق الى الباطل ميلا عظيماً»[1].

وإن الذين يتأمل ما خططه اليهود والنصارى وأتباعهم من الملحدين من المناهج التعليمية والاجتماعية والإعلامية وغيرها لصرف الناس، وبخاصة المسلمين، عن شرع الله الذي ارتضاه لهم الى اتباع الشهوات والانغماس فيها، يعلم معنى قوله تعالى: **﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيماً﴾** ويعلم كذلك مغزى ذكر ابن كثير رحمه الله أئمة أتباع الشهوات، وهم اليهود والنصارى والزناة فقد أغرقوا الناس في الشهوات وصرفوهم عن دين الله وأرادوا لهم غير ما أراد لهم خالقهم ولذلك أذلهم الله.

وهذا الميل هو الذي نصب العلمانيون من أبناء المسلمين أنفسهم للدعوة إليه فأجرموا في حق أمتهم أكبر إجرام، عندما أقصوا دين الله من حياة الناس وفتحوا لهم كل ابواب الإغواء والشهوات.

وإذا أراد المجتمع الإسلامي أن ينجو من ذلك فعليه أن يطهر نفسه من رجسهم وينبذهم من صفوفه، لأنهم يحبون غير ما يحبه الله ويريدون للناس غير ما أراد الله، يحبون الكفر والفسوق والعصيان، ولو تظاهروا بأنهم مسلمون، والله يحب الإيمان والطاعة والخير.

كيف يكون مسلماً من أحب شرع غير الله في كل أنظمة الحياة واحتضنه وأيّده ونفذه، وأبعد حكم الله ورسوله عن حياة الناس، وأحب الفاحشة واجتهد في نشرها بكل وسيلة، وكره الطاعة وصد عنها بكل وسيلة؟

قال تعالى: **﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة، والله يعلم وأنتم لا تعلمون، ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم، يا أيها الذين آمنوا لا تتّبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾**[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٧٩). (٢) سورة النور/ ١٩ ـ ٢١.

وقال تعالى: **﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين إنما يأمركم بالسوء والفحشاء﴾**[1].

وقال تعالى: **﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾**[2].

ونهى الله تعالى عن الاقتراب من الفاحشة، ظاهرها وباطنها، فقال: **﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾**[3].

وقال تعالى: **﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق﴾**[4].

وأمر عباده سبحانه وتعالى بما يطهرهم من الفحشاء والمنكر ويعينهم على الابتعاد عنها، وهو عبادته، وبخاصة الصلاة، فقال تعالى: **﴿آتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾**[5].

وإذا أحبّ المجتمع طاعة الله، وأبغض معاصيه، وحمل أفراده على ذلك، توطدت أركان السعادة والأمن في الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة البقرة/١٦٨ ـ ١٦٩.
(٢) سورة النحل/٩٠.
(٣) سورة الأنعام/١٥١.
(٤) سورة الأعراف/٣٣.
(٥) سورة العنكبوت: ٤٥.

المبحث السادس عشر:
أداء الواجبات والحقوق

إنّ على أفراد المجتمع واجبات لغيرهم، ولهم حقوق، كذلك عند غيرهم، والواجب أن يؤدي كل فرد ما عليه من الحقوق لغيره، كالزكاة التي هي ركن من أركان الإسلام، فقد فرضها الله سبحانه وتعالى على الأغنياء وبيّن مصارفها، فتأخير أداء الزكاة عن وقتها فيه ظلم لأهلها الذين يستحقونها، وكذلك زكاة الفطر، والديون المستحقة، والكفّارات، وأداء الشهادات، وغيرها.

إن هذه الحقوق عندما تؤدّى في وقتها ـ ولا يؤخرها من وجبت عليه ـ يطمئن أهلها وينعمون بها وتقضي حاجاتهم، فيعيشون مع من أدّاها عيشه حب وإخاء وسلام، أما إذا أخرّها الذين وجبت عليهم وماطلوا في أدائها فإن ذلك يحدث البغضاء والشقاق، وقد يؤدي إلى انتقام صاحب الحق من ظالمه، إما علناً وإما في الخفاء، وذلك يفقد الناس الأمن والطمأنينة.

والواجب على المجتمع الذي يريد أن ينعم بالأمن والاستقرار أن يأخذ على يدِ من يماطل في أداء الحقوق والقيام بالواجبات، فقد حارب أبو بكر الصديق، رضي الله عنه والصحابة معه من منع الزكاة حتى أداها.

قال ابن تيمية رحمه الله ـ وهو يتكلم عن أداء الأمانات ـ: «ويدخل في هذا القسم ـ أي قسم الأموال التي يجب أداؤها إلى أهلها ـ الأعيان والديون الخاصة والعامة، مثل رد الودائع، ومال الشريك، والموكل والمضارب، ومال المولى من اليتيم وأهل الوقف، ونحو ذلك، وكذلك وفاء الديون من أثمان المبيعات، وبدل القرض، وصدقات النساء وأجور المنافع، ونحو ذلك...»[1] ثم ساق الأدلة على ذلك وفصل القول في الغنيمة والصدقات والفيء[2] ثم تكلم عن الظلم الذي يقع من الرعاة أو الرعية في هذا الباب[3].

ثم ذكر مصارف هذه الأموال، وختم ذلك بقوله: «كما أن الصالحين أرباب

---

(١) السياسة الشرعية، ص ٣٢ ـ ٣٣. (٢) ص ٣٧ ـ ٤٣. (٣) ص ٤٧ وما بعدها.

السياسة الكاملة هم الذين قاموا بالواجبات وتركوا المحرّمات، وهم الذين يعطون ما يصلح الدين بعطائه، ولا يأخذون إلاّ ما أبيح لهم، ويغضبون لربهم إذا انتهكت محارمه، ويعفون عن حظوظهم، وهذه أخلاق رسول الله ﷺ في بذله ودفعه وهي أكمل الأمور، وكلما كان إليها أقرب كان أفضل، فليجتهد المسلم في التقرب إليها بجهد، ويستغفر الله بعد ذلك في قصوره أو تقصيره، بعد أن يعرف كمال ما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين، فهذا قول الله سبحانه وتعالى: **﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾**[1].

ومن أوجب الواجبات التي يجب القيام بها أداء الموظف ما أسند إليه من ولي الأمر، كل في حدود عمله عن خبرة وأمانة وقدرة على التنفيذ، فإن الموظف الذي يؤدي عمله بمحافظته على وقته وعدم تأخره عنه، وباستقبال أصحاب الحق بصدر رحب ووجه طلق وأداء العمل الواجب عليه لكل صاحب حق في وقته وعدم التفريق بين شخص وآخر بسبب صداقة أو وساطة أو رشوة يحبه الناس ويأمنون حقاً بخلاف من يعاملهم بضدّ ذلك لما فيه من ظلم للناس وهضم للحقوق وتقديم للمتأخر وتأخير للمتقدم بدون حق بل بالباطل، والموظف الذي يرتكب هذا المنكر وهو عدم قيامه بواجباته أو التفريق بين الناس بدون حق يحدث بذلك آثاراً سيئة من ضياع أوقات الناس وأعمالهم وأموالهم إضافة إلى الأحقاد والضغائن التي تمتلىء بها قلوب الناس بسبب معاملته وقلقهم على حقوقهم التي يرونها تهدر وكراماتهم التي يرون الموظف يدوسها، ولهذا يجب أن يختار لكل عمل من هو كفء له يؤدي فيه واجبه وأن يحال بين الوظائف وذوي المطامع الشخصية ممن ليسوا بأكفاء، حتى يأمن الناس على حقوقهم متساوين في ذلك كله[2].

﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نِعِمّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرا﴾[3].

---

(١) نفس المرجع، ص ٥٥ ـ ٦٧.

(٢) راجع كتابنا المتعلق بهذا المعنى، وهو: الكفاءة الإدارية في السياسة الشرعية.

(٣) سورة النساء/٥٨.

المبحث السابع عشر:
الصدقة الجارية

إن المطالب السابقة كلها تتعلق بقيام أفراد المجتمع بواجب الأخوة الإسلامية وأداء حقوق بعضهم على بعض في حال حياتهم وصحتهم.

أما هذا المطلب فالمراد به أن يراعي المسلم حقوق تلك الأخوة الإسلامية وهو يرحل عن هذه الحياة ويودع إخوانه الباقين فيها، فيحقق لهم بما يخلفه وراءه شيئاً من السعادة والعيش الهنيء، كما كان يحقق لهم ذلك وهو حيّ.

فالمسلم له أقارب أمر بصلتهم، وله جيران أمر بالإحسان إليهم، وضيف أمر بإكرامه، فإذا انتقل إلى لقاء ربه حرم كثير مما كان يقوم به من الصلة والإحسان والإكرام، وكل من كان يناله ذلك سيفقده ويشعر بالندم على فراقه ويدعو له وفاءً له ورحمة به.

ولكن الشارع يحب للمؤمن أن يدوم عمله الصالح ويستمر ثوابه بعد موته، فشرع له من الأسباب التي إذا تعاطاها قبل موته استمر ثوابها ما بقيت آثارها عامة النفع الذي تعاطاها من أجله.

وهو بذلك يحقق أمرين: الأمر الأول: نفع الناس بما أبقاه لهم من خير، والأمر الثاني: نفع نفسه باستمرار ثوابه وعدم انقطاع عمله، وهو راقد في قبره قد صارت عظامه تراباً.

قال تعالى: **﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين، فمن بدّله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدّلونه إن الله سميع عليم فمن خاف من موصٍ جَنَفاً أو إثماً فأصلح بينهما فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾**(1).

وقد قال بعض العلماء إن الوصية واجبة على من حضرته الوفاة وعنده مال

---

(1) سورة البقرة/ ١٨٠ - ١٨٣.

في حالتين: الأولى أن تكون عنده أمانات أو ديون، فيجب أن يوصي لأهل الأمانات والديون بحقوقهم حتى لا تضيع، ويختلف الورثة معهم بعد موته، وهذه الحالة لا خلاف فيها.

الحالة الثانية: أن يكون له والدان لا يرثان، بأن يكونا كافرين أو قرابة لا يرثون، فيجب أن يوصي لهم بما تيسر من الثلث الذي له أن يوصي فيه، وأكثر العلماء قالوا إنها ليست واجبة في هذه الحالة، وأجمعوا على عدم جواز الوصية للوارث إلا إذا أجاز الورثة، وكذا لا يجوز أن يوصي بما فوق الثلث.

واستدل الموجبون بالصيغة التي شرعت بها الوصية وهي قوله تعالى: ﴿**كتب عليكم**﴾ فإنها بمعنى فرض.

وهناك حالة ثالثة تجب فيها الوصية، وهي ما إذا كان له حقوق عند الناس يخاف تلفها على الورثة[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿**يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين**﴾ إلى قوله: ﴿**فإن كان له إخوة فلأمّه السُّدس من بعد وصيّة يوصي بها أو دين**﴾[2] وقال سبحانه: ﴿**ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهنّ الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حكيم**﴾[3].

فقد أوجب الله تعالى أداء ما خلفه الميت لورثته، ولكن قيد ذلك بإخراج ما أوصى به من ماله، أو ما عنده من دين للناس، إلا أن ما يوصي به مقيد بأن يكون الثلث فأقل لئلا يجحف بورثته ويذرهم فقراء يتكففون الناس.

---

(١) راجع كتاب الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٥٧ ـ ٢٦٠) وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/٢١١ ـ ٢١٣).

(٢) سورة النساء/١١. (٣) سورة النساء/١٢.

ومهما يكن الأمر في اختلاف العلماء في وجوب الوصية للوالدين غير الوارثين، والأقربين غير الوارثين، فإن مشروعيتها ثابتة، وقد حث على ذلك الرسول ﷺ، وأوصى بعض أصحابه في حياته وأقرهم. واستمر على ذلك المسلمون إلى يومنا هذا.

ولقد نفع الله تعالى بوصايا المسلمين من أموالهم في وجوه البرّ إذا حضرتهم الوفاة، وكذلك بما يقفونه في حياتهم من الأموال على مصالح مختلفة عامة وخاصة.

وقد حث الرسول ﷺ المسلم على الاهتمام بوصيته حال صحته حتى لا يفاجأ بالموت فلا يتمكن من ذلك.

روى ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما حق امرىء مسلم له شيء يريد أن يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»[1].

وأقرّ ﷺ بعض أصحابه على الوصية بالثلث من ماله لمن كان له ورثة، وأوصى ﷺ بأن لا يدع المرء ورثته عالة يتكففون الناس، روى سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، قال: جاء النبي ﷺ يعودني وأنا بمكة، وهو يكره أن يموت في الأرض التي هاجر منها، قال: «يرحم الله بن عفراء» قلت: يارسول الله، أوصي بمالي كله؟ قال: «لا» قلت: فالشطر؟ قال: «لا» قلت: الثلث؟ قال: «الثلث والثلث كثير، إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم، وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة، حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك وعسى الله أن يرفعك، فينتفع بك ناس ويضرّ بك آخرون» ولم يكن له يومئذ إلا ابنة[2].

وندب ﷺ المسلمين إلى بذل ما يستمر لهم ثوابه بعد موتهم، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»[3].

قال النووي، رحمه الله في الصدقة الجارية: «وهي الوقف... وفيه دليل

(١) البخاري (٣/١٨٥ - ١٨٦) ومسلم (٣/١٢٤٩).
(٢) البخاري (٣/١٨٦) ومسلم (٣/١٢٥٠). (٣) مسلم (٣/١٢٥٥).

لصحة أصل الوقف وعظيم ثوابه»[1] ولقد وقف بعض أصحاب النبي ﷺ أنفس أموالهم طمعاً في ذلك الفضل المدرار، بإرشادٍ من النبي ﷺ، كما روى ابن عمر رضي الله عنهما، قال: أصاب عمر أرضاً بخيبر، فأتى النبي ﷺ يستأمره فيها، فقال: يا رسول الله، إني أصبت أرضاً بخيبر لم أصب مالاً قط هو أنفس عندي منه، فما تأمرني به؟ قال: «إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها» قال: فتصدق بها عمر: أنه لا يباع أصلها، ولا يبتاع، ولا يورث، ولا يوهب، قال: فتصدق عمر في الفقراء، وفي القربى، وفي الرقاب، وفي سبيل الله، وابن السبيل، والضيف، ولا جناح على مَنْ وليها أن يَأكل منها بالمعروف، أو يطعم صديقاً، غير متمول فيه...»[2].

فقد اشترط عمر رضي الله عنه بقاء الأصل وعدم بيعه وشرائه وهبته، وهو معنى قول الرسول ﷺ: «حبست أصلها» وبيّن رضي الله عنه وجوه مصارف ثمرته: الفقراء والقربى، والرقاب، وفي سبيل الله، وابن السبيل، والضيف، وهي من أهم وجوه البر الشاملة، كالزكاة التي امر الله بصرفها في ذلك، ويمكن للواقف أن يقف على وجه واحد من هذه الوجوه، ولو أن الأغنياء من المسلمين بذلوا من أموالهم ما يقفون على وجو البر والإحسان ووجد من يقوم على تلك الأوقاف بأمانة، يحفظها وينمّيها وينفقها في وجوهها لنال كثير من المحتاجين ما يسد حاجتهم من طعام وشراب وملبس ومسكن ومركب وغيرها.

ولقد بذل السلف الصالح من أغنياء هذه الأمة أموالهم ووقفوها على وجوه كثيرة من وجوه البرّ العامة والخاصة: وقفوا على المساجد، والأيتام، والمسافرين، وطلاب العلم، والفقراء، وذوي القربى، والحيوانات. ولكن بالبعد عن الإسلام وتولي كثير من الظلمة والفسّاق وأعداء الإسلام أمور المسلمين ضاعت أكثر مرافق المسلمين، فلم يبق من تلك الأوقاف إلاّ النزر اليسير في بعض البلدان الإسلامية، تتلاعب بها أيدي الخونة الذين لا يخافون الله واليوم الآخر، إلاّ من شاء ربك وقليل ما هم[1].

---

(١) شرح النووي علي مسلم (١١/٨٥).   (٢) البخاري (٣/١٩٤) ومسلم (٣/١٢٥٥).

(١) راجع كتاب الإسلام (٣/٥٢) لسعيد حوا.

وإن المجتمع الإسلامي لفي أمسّ الحاجة إلى عودة هذا المرفق المفيد ليعمّ نفعه، كما عمّ في الماضي، وقد أنعم الله سبحانه وتعالى على كثير من المسلمين في هذا العصر بثروات كثيرة في فترة قصيرة من الزمن، وهم يعلمون أنه يوجد في بلدان المسلمين الفقراء والمساكين الذين لا يجدون لقمة العيش التي يقتاتون بها، ولا منازل تؤويهم، ولا ملابس تسترهم، ولا مساجد يؤدون فيها شعائر دينهم، ولا مدارس يعلّمون فيها أولادهم، ولا أئمة يصلون بهم ولا علماء يرشدونهم ويعلّمون أبناءهم، ومع ذلك قلّ أن تجد من يمد يد العون من الأغنياء الذين ابتلاهم الله بالغنى الفاحش الذي أبطرهم فنسوا أن يشكروا الله على ما أنعم به عليهم.

ولو أن كل غني وقف شيئاً من ماله في البلد الذي يأمن عليه فيه لمرفق من تلك المرافق لكان في ذلك إحياء للوقف الإسلامي، وإعانة للمسلمين في حاجاتهم المتعددة، لا سيما الجهاد في سبيل الله الذي انصرف غالبية الناس عنه، وإذا وجد من يقوم به لم يجد من يعينه ويجهزه بالمال الذي يكفيه.

المبحث الثامن عشر:
النصح لكل مسلم

في اللسان: النصح: نقيض الغش... وفي الحديث: إن الدين النصيحة، لله ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم، قال ابن الأثير: النصيحة كلمة يعبّر بها عن جملة، هي إرادة الخير للمنصوح له، فليس يمكن أن يعبّر عن هذا المعنى بكلمة واحدة. تجمع معناها غيرها»[1]

وإذا علم أن النصيحة هي إرادة الخير للمنصوح، فإن من المناسب أن يكون هذا المبحث هو خاتمة مباحث الفصل الأول من هذا الباب، وهو[2] السعي لتحقيق الأخوة الإسلامية وتقويتها لأن هذا المبحث جامع لمعاني المباحث السابقة وغيرها مما لم يذكر بالنص عليه.

قال تعالى، مبيّناً، أن النصح هو وظيفة الأنبياء والرسل وأتباعهم، والأنبياء والرسل وأتباعهم لا يريدون إلّا الخير للمنصوح لوجه الله تعالى لا يريد من الناس جزاءً ولا شكوراً.

فقال عن نوح عليه السلام: ﴿**أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون**﴾[3].

وقال عن هود عليه السلام: ﴿**أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين**﴾[4].

وقال عن صالح عليه السلام: ﴿**لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين**﴾[5].

وقد كان رسول الله ﷺ يبايع أصحابه على النصح لكل مسلم كما في حديث جرير بن عبد الله البجلي، رضي الله عنه، قال: «بايعت رسول الله ﷺ

---

(١) ترتيب اللسان (٣/٦٤٦) والحديث سيأتي ذكره وذكر مصدره.

(٢) أي الفصل الأول. (٣) سورة الأعراف/٦٢. (٤) سورة الأعراف/٦٨.

(٥) سورة الأعراف/٧٩.

على السمع والطاعة. . . والنصح لكل مسلم»[٦].

ومن أجمع الأحاديث في النصيحة الشاملة لمستحقيها، حديث تميم الداري رضي الله عنه، ، أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة» قلنا: لمن قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»[١].

ولم يكتف النبي ﷺ بهذا العموم في النصيحة الذي تضمنه حديث جرير: «النصح لكل مسلم» وحديث تميم «. . . ولأئمة المسلمين وعامتهم» بل نصّ ﷺ على النصح في أبواب متعددة اهتماماً به لما يحققه من الخير في المجتمع الإسلامي، إذا نصح كل فرد فيه لأخيه المسلم وأسرته ومجتمعه.

فقد حثّ ﷺ على النصح في محيط الأسرة، كما في حديث أبي أمامة، عن النبي ﷺ، أنه كان يقول: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته؛ وإن نظر إليها سرّته، وإن أقسم عليها أبرّته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله»[٢].

والمرأة إذا نصحت عمّ خير نصحها الأسرة كلها في التربية والخدمة وحفظ المال، وحفظ نفسها، والقيام بكل واجب، إما بنفسها أو عن طريق أولادها وخادمها.

وفي محيط الولاية السياسية حثّ ﷺ الرعية على النصح لواليها، وحث الوالي على النصح لرعيته، وإذا أدت الرعية النصح لواليها وأدى الوالي النصح لرعيته، استتبّ الأمن في البلاد وتمتعوا جميعاً بالعدل والسلام ولم يقدر أعداء الإسلام على إثارة الأحقاد بين الراعي ورعيته، لأن النصح يقتضي من الراعي الإشفاق على رعيته والعدل بينهم وإيتاءهم حقوقهم وكفّ الظلم عنهم وتنفيذ أحكام الله فيهم، والنصح من الرعية يقتضي طاعة ولي الأمر في غير معصية الله ومناصرته والوقوف ضد من أراد به سوءاً وعدم البغي عليه ما لم يأت كفراً بواحا، وأعداء الإسلام إنما يحدثون الشقاق بين الولاة ورعيتهم

---

(٦) البخاري (١/ ٢٠) ومسلم (١/ ٧٥). (١) مسلم (١/ ٧٤).

(٢) ابن ماجه (١/ ٥٩٦) قال المحقق: «في إسناده علي بن يزيد، قال البخاري منكر الحديث، وعثمان بن أبي العاتكة مختلف فيه وله شاهد من حديث عبدالله بن عمر (ص ٥٩٧)».

بسبب اعتداء يقع من الولاة على الرعية أو بغي من الرعية على ولاتهم، فإذا نصح كل منهم للآخر لم يجد الأعداء إلى التحريش بينهم سبيلاً. روى أبو هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن يعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تناصحوا من ولّاه الله أمركم، ويسخط لكم قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال»[1].

وفي حديث معقل بن يسار، رضي الله عنه، قال في مرض موته لعبيد الله بن زياد: إني محدّثك بحديث، لولا أني في الموت لم أحدّثك به، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من أمير يلي أمر المسلمين، ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة»[2].

وروى ابن مسعود رضي الله عنه، ، عن النبي ﷺ، قال: «نضر الله مرأً سمع مقالتي، فوعاها وحفظها، وبلغها، فربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم، إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن الدعوة تحيط من ورائهم»[3].

ومن ذلك النصح لجماعة المسلمين الذي أوصى به بعض السلف، وهو الربيع بن خيثم، رحمه الله، قال: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الربيع بن خيثم، وأشهد الله عليه، وكفى بالله شهيداً وجازياً لعباده الصالحين ومثيباً، فإني رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً وإني آمر نفسي ومن أطاعني أن نعبد الله في العابدين، ونحمده في الحامدين، وأن ننصح لجماعة المسلمين»[4].

وفي محيط المعاملات الاقتصادية وغيرها حضّ ﷺ كذلك على النصح، قال الإمام البخاري، رحمه الله: باب إذا بين البيعان، ولم يكتما ونصحا... وساق حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا «أو قال: «حتى يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك

---

(١) الموطأ (٢/ ٩٩٠) ومسلم (٣/ ١٣٤٠) وليس فيه «وان تناصحوا».
(٢) مسلم (١/ ١٢٦). (٣) الترمذي (٥/ ٣٤ ـ ٣٥).
(٤) سنن الدارمي (٢/ ٢٩٢).

لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»[1].

قال الحافظ، رحمه الله: «وقال ابن بطال: أصل هذا الباب أن نصيحة المسلم واجبة»[2].

وفي محيط الخدمة وأداء العمل حضّ على النصح ﷺ، كما في حديث عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «إذا نصح العبد سيده وأحسن عبادة ربه، كان له أجره مرتين»[3].

وفي حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، ، عن النبي ﷺ، قال: «خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح»[4].

ترى لو نصح كل مسلم لأخيه المسلم وأسرته المسلمة ومجتمعه المسلم هذا النصح الشامل الذي لا يشذّ عنه أي مجال من مجالات الحياة هل يخاف أحدٌ من أحد على نفس أو مال أو عرض. وهل يفقد الأمن في أغلب المجتمعات الإسلامية كما هو الحال في هذا الزمن ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[5].

---

(١) البخاري (٣/١٠). (٢) فتح الباري (٤/٣١٠).
(٣) البخاري (٣/١٢٤) ومسلم (٣/١٢٨٤). (٤) أحمد (٢/٣٣٤).
(٥) سورة الأنعام/٨١، ٨٢.



الفصل الثاني
تجنب الأسباب المؤدية إلى فقد الأخوة الإسلامية أو ضعفها

وفيه ثمانية مباحث:

المبحث الأول : اجتناب الظلم
المبحث الثاني : اجتناب الحسد
المبحث الثالث: اجتناب الاحتقار والسخرية
المبحث الرابع : اجتناب الهجر والقطيعة
المبحث الخامس: ترك ما يثير الشك والخوف في نفس المسلم
المبحث السادس: اجتناب الغيبة والنميمة
المبحث السابع: ترك المنافسة للمسلم فيما بدأ فيه من المعاملات
المبحث الثامن: الإبتعاد عن الغش والكذب



تمهيـــد:

إن ما سبق في الفصل الأول هو نماذج لما يقوّي الأخوة الإسلامية بين أفراد المجتمع، ويثبت أواصر المحبة والودّ والتعاون على البر والتقوى ويحقق السعادة للجميع والأمن على الحقوق.

وفي هذا الفصل نذكر نماذج، هي على عكس ما ذكر في الفصل الأول تفقد الأخوة الإسلامية أو تضعفها، وتوهي رابطتها، وتشيع البغضاء والتنافر بين أفراد المجتمع وتجعل بعضهم خائفاً من بعض غير آمن له على حقوقه ومصالحه.

وكل خصلة تكون سبباً لحدوث ذلك بين المسلمين حذّر منها رسول الله ﷺ، كما حثّ على ما يقوّي أخوّتهم ومحبة بعضهم لبعض.

المبحث الأول
اجتناب الظلم

إن تدمير الظلم لحياة البشر وتقويضه لصرح الأخوّة الإسلامية أمر معلوم بالضرورة لا يحتاج إلى شرح وإيضاح، والظالم عندما يعتدي على غيره يعلم أنه ظالم، وليس المقصود هنا بيان ما ورد في الظلم من نصوص الكتاب والسنّة وغيرهما من كلام العلماء بيانا شاملاً، وإنما المراد بيان أن الظلم من أعظم الأسباب المحطِّمة لصرح الأخوّة الإسلامية، فإن المسلم إذا ظلمه أخوه المسلم سيحاول دفع الظلم عن نفسه ومن هنا يحدث النزاع والخصومات، ولو فرض أن المظلوم صبر على ظلم ظالمه، فإنه لا يثق فيه ولا يأمنه على شيء من حقوقه ولهذا كان الظلم من أول ما يناقض الأخوة الإسلامية، فيجب اجتنابه والقضاء عليه للمحافظة على رابطة الأخوّة الإسلامية كما روى عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه...» الحديث[1].

فقوله ﷺ: «المسلم أخو المسلم» تقرير للأصل الذي يجب أن يكون بين المسلم والمسلم، وهو الأخوّة الإسلامية المقتضية للودّ والصفاء وسلامة الصدور والنصح والتعاون بينهما، وقوله بعد ذلك: «لا يظلمه» تحذير من أهم العوامل المناقضة لتلك الأخوّة، وفي طليعتها الظلم أي أن يظلم المسلم أخاه المسلم وفي قوله ﷺ: «ولا يسلّمه» أنه يجب على المسلم أن لا يسلّم أخاه المسلم إذا ظلمه أحد بل يجب أن يدفع عنه الظلم إذا كان قادراً عليه، فالمسلم ليس منهياً عن ظلم أخيه المسلم فحسب، بل مأمور مع ذلك بدفع الظلم عن أخيه إذا صدر من غيره عليه ولا يسلّمه له.

وفي حديث أبي ذر، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، فيما يرويه عن ربه: «يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»[2] والآيات والأحاديث الواردة في التحذير من الظلم وبيان مخاطره وأضراره كثيرة حداً.

---

(١) البخاري (٣/٩٨) ومسلم (٤/١٩٩٦). (٢) مسلم (٤/١٩٩٤).

المبحث الثاني
اجتناب الحسد

إن المؤمن موصوف بالصلاح والخير، يرجى خيره ويؤمن شره وهو مقياس الخير والشر عند رسوله ﷺ، كما في حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ وقف على أناس جلوس، فقال: «ألا أخبركم بخيركم من شركم؟» قال: فسكتوا، فقال ذلك ثلاث مرات، فقال رجل: بلى يا رسول الله، أخبرنا بخيرنا من شرِّنا، قال: «خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره»[1].

ولا شك أن الحاسد يقل رجاء خيره، ولا يؤمن شره، لأنه يتمنى أن يزول الخير الذي رزقه الله غيره، كما أنه يتمنى أن يصاب غيره بالشر، ولهذا كان الحاسد مستعاذاً من شره، كما قال تعالى: ﴿**قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسدٍ إذا حسد**﴾[2].

والحسد متأصل في شرار الخلق، كاليهود، قال الله تعالى عنهم: ﴿**ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق**﴾[3].

وقد نهى النبي ﷺ المسلمين عن التحاسد وغيره من الصفات التي تقوّض بناء الأخوّة الإسلامية، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إياكم والظن. . . .» إلى أن قال: «ولا تحاسدوا. . .»[4].

---

(١) الترمذي (٤/٥٢٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) سورة الفلق. (٣) سورة البقرة: ١٠٩.

(٤) البخاري (٧/٨٨) ومسلم (٤/١٩٨٥).

المبحث الثالث
اجتناب الاحتقاد والسخرية

لقد خلق الله بني البشر كلهم من أصل واحد، وهم لا يتفاضلون من حيث الخلقة، لأن الأصل واحد، ولأن الخالق هو الله، ولا فضل لأحد في لون ولا بلد ولا لغة ولا طول ولا قصر، لأن ذلك كله لم يوجد للإنسان باختيار منه، وإنما أوجده الخالق سبحانه وتعالى. قال عزّ وجلّ: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً**﴾[1].

فالخالق واحد، وهو الله، والأصل واحد، وهو آدم، والذي يجب عمله هو ما أمر الله به، وهو تقوى الله، وهذه التقوى هي التي جعلها الله تعالى معياراً للتفاضل، كما قال تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾[2].

فكلما كان الإنسان أتقى لله كان أكرم عنده، ويجب أن يكون أكرم عند خلقه، ولا تفاضل بغير ذلك.

والواجب أن يلتزم المسلمون بهذا الأدب الربّاني فيكرّمون من أكرمه الله، ولا يجوز أن يحتقر أحد منهم أحداً، ولا يسخر أحد من أحد، لما في ذلك الأدب من جمع الشمل وغرس المحبة والودّ بينهم.

أما الاحتقار والسخرية بسبب لون أو خلقة، كالدمامة، أو بلد، أو نسب، أو فقر، أو وظيفة، فإن ذلك يخالف هذا الأدب الربّاني ويفرّق شمل المسلمين ويحدث بينهم التباغض والخلاف.

وقد يكون المحتَقَر الذي يُسخَر منه أكرم عند الله وأفضل من الذي احتقره

---

(١) سورة النساء/١.
(٢) سورة الحجرات/١٣.

وسخِر منه، ولهذا اشتد إنكار الله تعالى على الساخرين المحتقرين، قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون**﴾[1].

والسخرية والاحتقار من أعمال الجاهلية التي أنكرها رسول الله ﷺ، فقد روى أبو ذرّ رضي الله عنه، قال: كان بيني وبين رجل كلام، وكانت أمه أعجمية، فنلت منها، فذكرني إلى النبي ﷺ ، فقال: «أسابت فلاناً؟» «قلت: نعم، قال: «أفنلت من أمه؟» قلت: نعم قال: «إنك امرؤ فيك جاهلية» قلت: على حين ساعتي هذه من كبر السن؟ قال: «نعم هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلّفه ما يغلبه فليعنه عليه»[2].

وعظّم رسول الله ﷺ الأمر على عائشة، رضي الله عنها عندما أشارت بيدها إلى صفية بأنها قصيرة، قالت عائشة: حكيت للنبي ﷺ، رجلاً، فقال: «ما يسرّني أني حكيت رجلاً وأن لي كذا وكذا» قالت: «فقلت: يا رسول الله أن صفية امرأة، وقالت بيدها هكذا ـ أي ـ أنها قصيرة، قال: «لقد مَزَجْتِ بكلمة لو مزجت بها ماء البحر لمزج»[3].

وإن الآثار المترتبة على الاحتقار والسخرية لأمر يهدد بدمار المجتمع الذي يسكت عليها ولم ينكرهما، لأن الفئة التي يصدر منها الاحتقار والسخرية تُرتب على احتقارها للفئة الأخرى حرمانها من المساواة في الحقوق والواجبات بدون سبب، بل قد تكون الفئة المحتقَرة أهلاً لكثير من الأعمال والولايات وتكون الفئة المحتقرة ليست أهلاً لها، وإنما تستبد بها لقوتها أو كثرتها، فيترتب على ذلك سوء المعاملة وفشل الإدارة، كما يترتب عليه حقد الفئةِ المحتَقَرة التي حيل بينها وبين ما هي أجدر بالقيام به، وقد تسعى لسلب

---

(١) سورة الحجرات/١١.

(٢) البخاري (٨٥/٧) ومسلم (١٢٨٢/٣ ـ ١٢٨٣).

(٣) الترمذي (٦٦٠/٤ ـ ٦٦١) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

الفئة التي حرمتها من حقوقها وما بيدها من مقاليد الأمور التي جعلتها وسيلة للتعالي، فإذا نجحت في ذلك أذاقت الفئة الساخرة المحتقرة أشدَّ أنواع الإيذاء والسخرية والاحتقار، جزاءً وفاقاً، وهذا ما يجري في كثير من البلدان الآن، ونجم عنه التناحر والثورات والانقلابات، وهو ما ينذر بالدمار في بلدان المغرب في أمريكا وأوروبا التي لا تزال تعامل بعض الفئات كالسود، معاملة تخالف ما تعامل به الفئات الأخرى.

فالمجتمع الذي يحتقر بعض أفراده بعضاً ويسخر بعضهم من بعض مجتمع معرّض للفوضى والفتن والتطاحن وعدم الأمن والاطمئنان.

المبحث الرابع:
اجتناب الهجر والتقاطع

إن الأخوّة الإسلامية تقتضي الوصل والرحمة والتزاور والمودة، وإن الهجر والقطيعة يناقضان ذلك، فلا يجوز للمسلم أن يقطع وصل أخيه المسلم أو يهجره، والأصل عدم جواز ذلك مطلقاً، ولكن الشارع راعى الفطرة البشرية، فأجاز للمتغاضبين أن يتهاجرا ثلاثة أيام - مع كراهة ذلك - ونهى عمّا زاد، فقد روى أبو أيوب الأنصاري، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحلّ لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ، يلتقيان، فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[1] وفي حديث أنس، رضي الله عنه، مرفوعاً: «. . . وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال»[2].

وورد في المتهاجرين وعيد شديد جعلهما شاذّين بين أهل القبلة، حيث يغفر الله لكل من لا يشرك به شيئاً يومين في كل أسبوع، إلّا من كان منهم بينه وبين أخيه شحناء وهجر، كما روى أبو هريرة، رضي الله عنه، ، أن رسول الله ﷺ قال: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً، إلا رجلاً كان بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا «وفي رواية: «إلا المتهاجرين»[3].

وأثنى رسول الله ﷺ على واصل من قطعه، وأخبره أن الله معه على ذوي القطيعة، كما روى أبو هريرة، رضي الله عنه، أن رجلاً، قال: يا رسول الله، إن لي قرابة، أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي وأحلم عنهم ويجهلون علي، فقال: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المل، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»[4].

---

(١) البخاري (٧/٩١) ومسلم (٤/١٩٨٤).
(٢) البخاري (٧/٩١) ومسلم (٤/١٩٨٣).
(٣) مسلم (٤/١٩٨٧).
(٤) مسلم (٤/١٩٨٢).

وقد أثّر هـذا الأدب النبوي في أصحـاب رسول الله ﷺ، فكـان يشق على أحـدهم أن يهجره أخـوه، ويبذل قصـارى جهـده في إرضـائـه حتى يعـود إلى صلته، ويبعث إليه الشفعاء، وكان الذي تغلبه منهم بشـريته فيهجـر أخاهُ أكثـر من ثلاث يندم على ذلك وتذرف عيناه الدموع إذا ذكر حسـرة على ما بدر منه، وتأمل قصة عائشة رضي الله عنها مع ابن أختها عبـد الله بن الزبيـر، رضي الله عنهمـا، فقد حـدّثت أن عبد الله ابن الـزبير، قـال في بيع أو عـطاء، أعـطتـه عـائشة: لتنتهين عـائشة أو لأحجـرن عليها، فقـالت: أهو قـال هذا؟! قـالوا: نعم، قالت: هو لله على نذر أن لا أكلّم ابن الزبير أبداً، فاستشفع ابن الـزبير إليها حين طالت الهجرة، فقالت: لا والله، لا أشفع فيه أبداً، ولا أتحنث إلى نـذري، فلمـا طـال ذلـك على ابن الـزبيـر كلّم المسـور بن مخـرمـة وعبـد الرحمن بن الأسـود بن عبد يغـوث، وهما من بني زهـرة، وقـال لهمـا: أنشدكما بالله لما أدخلتماني على عائشة، فإنها لا يحلّ لها أن تنذر قـطيعتي، فأقبل به المسور وعبد الرحمن مشتملين بأرديتهما، حتى استاذنا على عائشـة، فقالا: السلام عليك ورحمة الله وبركاتـه، أندخـل؟. قالت عـائشة: ادخلوا، قالوا: كلنـا؟ قالت نعم، ادخلوا كلكم، ولا تعلم أن معهمـا ابن الزبيـر، فلما دخلوا دخل ابن الزبير الحجاب فاعتنق عائشة، وطفق يناشدها ويبكي، وطفق المسـور وعبد الرحمـن يناشـدانهـا إلا مـا كلمتـه وقبلت منـه، ويقـولان: ان النبي ﷺ نهى عما عملت من الهجرة، فإنه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ، فلمـا أكثر وأعلى عـائشة التـذكرة والتحـريج، طفقت تـذكرهمـا وتبكي وتقـول: إني نذرت، والنـذر شـديـد، فلم يـزالا بهـا حتى كلمت ابن الزبير، وأعتقت في نـذرها ذلك أربعين رقبة، وكانت تذكـر نذرهـا بعد ذلـك فتبكي حتى تبل دموعها خمارها»[1].

وإنما كان الهجـر منافيـاً لمقتضى الأخوّة الإسـلامية، لمـا فيه من الصـدود والأضغان، ولما يحدثه في نفوس المتهاجرين من النفرة والظنون السيئـة التي يوسوس بها الشيطان لكل منهما في الآخر بأنه يبغضه ويغتابه ويدبّر له المكايد، فيفقد كل واحد منهما الثقة في أخيه ولا يـأمن كل منهمـا الآخر، وقـد يوسـع

(١) البخاري (٧/ ٩٠).

دائرة سوء الظن أعداء الأخوة الإسلامية فيورون نار العداوة ويزيدون اشتعالها، وهذا يقع كثيراً في نفوس المتهاجرين، فإذا وصل كل منهما صاحبه عرف كل منهما أن ما كان يظنه في أخيه غير موجود، وأن الشيطان وأتباعه كانوا يسوسون لكل منهما بالباطل، فتعود ثقة كل واحد منهما بصاحبه وائتمان كل منهما للآخر، وذلك ما يحزن الشيطان لعنه الله.

هذا وليعلم أن الهجر مشروع للعصاة تأديباً لهم وإشعاراً بأنهم خارجون عن آداب المجتمع وطريقه المستقيم، كما فعل الرسول ﷺ وأصحابه مع كعب بن مالك وزميليه حيث هجروهم خمسين ليلة؛ حتى نزلت توبتهم من عند الله عزّ وجلّ، كما قال تعالى: **﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التوّاب الرحيم﴾**[1].

وإذا كان الهجر مشروعاً جاز أكثر من ثلاث، كما قال الحافظ بن حجر رحمه الله: «وفيها ترك السلام على من أذنب، وجواز هجره أكثر من ثلاث، وأما النهي عن الهجر فوق الثلاث فمحمول على من لم يكن هجرانه شرعياً...»[2].

---

(١) سورة التوبة/١١٨، وراجع قصة كعب وزميليه في صحيح مسلم (٤/ ٢١٢٠) وما بعدها.

(٢) فتح الباري (٨/ ١٢٤).

المبحث الخامس:
ترك ما يثير الشك والخوف في نفس المسلم

شرع الله تعالى في هذا الدين منع كل ما يفقد المسلم الأمن، أو ما يكون وسيلة إلى ذلك، كما شرع تعاطي الأسباب التي تؤدي إلى الأمن، بل إن غير المسلم ـ ما دام غير محارب ـ كالمسلم في ذلك.

فمن الأمور التي أمر بها الرسول ﷺ، ليأمن من الناس: حفظ السلاح وعدم التساهل فيه، لئلا يسقط فيجرح أحداً، ويدخل في حكم ما يسقط ما ينطلق مثل الرصاص الذي تعبأ به الأسلحة النارية لا سيما في الأماكن العامة، فإنه يجب التحرز منه أن يصاب به أحد بسبب التساهل، وما أكثر ما يقع ذلك فيحصل الندم ولات ساعة مندم.

روى جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما أن رجلاً مرّ بأسهم في المسجد قد أبدى نصولها، فأمر أن يأخذ بنصولها، كي لا يخدش مسلماً. . وفي رواية: فقال رسول الله، ﷺ: «أمسك بنصالها»[1].

وعن أبي موسى، رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: «إذا مرّ أحدكم في مجلس أو سوق، وبيده نبل، فليأخذ بنصالها، ثم ليأخذ بنصالها، ثم ليأخذ بنصالها» وفي رواية: «فليمسك على نصالها بكفه أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيء»[2].

ويدخل في ذلك ترويع المسلم بأخذ متاعه أو سلاحه جِدًّا أو لعباً لما روى عبد الله بن السائب بن يزيد عن أبيه عن جدّه، رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يأخذن أحدكم متاع أخيه لاعباً ولا جاداً، ومن أخذ عصا أخيه فليردها»[3].

---

(١) البخاري (١/١١٦) ومسلم (٤/٢٠١٨).
(٢) البخاري (١/١١٦) ومسلم (٤/٤٦٢).
(٣) أبو داود (٥/٢٧٣) والترمذي (٤/٤٦٢) وقال: هذا حديث حسن غريب.

ومن ذلك الإشارة بالسلاح، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أشار على أخيه بحديدة لعنته الملائكة»[1] وفي حديث جابر رضي الله عنه، قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يتعاطى السيف مسلولاً»[2].

ومما يثير الشك في نفس المسلم أن يتناجى اثنان ومعهما ثالث فقط. قد يكون عند بعض الناس شيء من السرّ لا يرغبون في اطلاع أكثر من واحد عليه، وذلك حق لهم، وقد يطرأ ذلك في سفر، فيرغب صاحب السر أن يحدث به واحداً من المسافرين فقط، فإن كان لا يرافقه إلاّ واحد وأراد أن يفضي إليه بذلك فلا إشكال، وكذلك إن كانوا أكثر من ثلاثة فله أن يسار أحدهم، أما إذا كانوا ثلاثة فلا يجوز له أن ينفرد بواحد فيناجيه دون الثالث، لأن ذلك يدخل في نفسه شيئاً من الشك والحزن والخوف. وفعل المسلم ما يحزن أخاه المسلم محظور شرعاً، والتناجي بهذه الحالة يحزنه، وقد كان المنافقون في عهد رسول الله ﷺ يتناجون فيما بينهم ويهمس بعضهم لبعض، ويلتفتون إلى المسلمين ليشعروهم أن هناك شيئاً ما يحدث فيه ضرر على المسلمين، كانتصار الكفار عليهم، وقتل بعض المسلمين ونحو ذلك وكان ذلك يحزن المسلمين، فأنزل الله سبحانه قوله تعالى: ﴿**ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول**﴾[3]، وكان يشترك مع المنافقين اليهود. ثم نهى الله تعالى المؤمنين ـ ويدخل في خطابهم المنافقون ـ فقال تعالى: : ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوْا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون، إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلاّ بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾[1].

ونهى الرسول ﷺ عن تناجي اثنين دون الثالث، كما في حديث ابن عمر، رضي الله عنهما، ان رسول الله ﷺ قال: «إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون

---

(١) الترمذي (٤/٤٦٣) وقال: وهذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.
(٢) الترمذي (٤/٤٦٤) وقال: وهذا حديث حسن غريب من حديث حماد بن سلمة.
(٣) سورة المجادلة: ٨ ـ ١٠، وراجع الجامع لأحكام القرآن (١٧/٢٩٠ ـ ٢٩٦).

الثالث» وفي رواية: «دون واحد»[1]. وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن يحزنه»[2].

ويفهم من هذا الحديث أن المنهى عنه أن يحصل تناج بين عدد ويبقى واحد منفرد عن ذلك العدد، حتى ولو كان المتناجون أكثر من اثنين، لأن ذلك يحزنه.

قال القرطبي رحمه الله: «فبين هذا الحديث غاية المنع، وهي أن يجد الثالث من يتحدث معه، كما فعل ابن عمر، وذلك أنه كان يتحدث مع رجل، فجاء آخر يريد أن يناجيه، فلم يناجه حتى دعا رابعاً، فقال له وللأول: تأخر، وناجي الرجل الطالب للمناجاة. خرّجه الموطأ، وفيه أيضاً التنبيه على التعليل بقوله: «من أن يحزنه» أي يقع في نفسه ما يحزن لأجله، وذلك بأن يقدر في نفسه أن الحديث عنه بما يكره، أو أنه لم يروه أهلاً ليشركوه في حديثهم، إلى غير ذلك من ألقيات الشيطان وأحاديث النفس، وحصل ذلك كله من بقائه وحده، فإذا كان معه غيره أمن ذلك، وعلى هذا يستوي في ذلك كل الأعداد، فلا يتناجى أربعة دون واحد، ولا عشرة ولا ألف مثلاً، لوجود ذلك المعنى في حقه، بل وجوده في العدد الكثير أولى، وإنما خصّ الثلاثة بالذكر، لأنه أول عددٍ يتأتى ذلك المعنى فيه...»[3].

(١) البخاري (١٤٢/٧) ومسلم (١٧١٧/٤) (٢) مسلم (١٧١٨/٤).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢٩٥/١٧).

المبحث السادس:
اجتناب الغيبة والنميمة

الغيبة أن يذكر المسلم أخاه بما يكره، وهو غائب، سواء كان ما ذكره موجوداً فيه أم لا، بل إذا لم يكن فيه، فهو مع كونه غيبة؛ بهتان وافتراء والأدب الإسلامي يقضي أن يأمن الإنسان على عرضه في حضوره وغيبته.

وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن الغيبة مشبّهاً من يغتاب أخاه المؤمن بآكل لحمه بعد موته، وهو غاية في التنفير عن هذا الخلق السيىء، قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله توّاب رحيم﴾**[1].

وفي هذا التشبيه لطيفة، وهي أن الذي يتكلم في عرض أخيه، وهو غائب شبيه بمن يأكل لحم الميت، بجامع أن كلاًّ منهما لا يقدر أن يدافع عن نفسه، هذا بالإضافة إلى بشاعة الغيبة، كبشاعة لحم الميت من البشر.

وقد بيّن ﷺ معنى الغيبة في حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[2].

يفهم من هذا الحديث أن على من اغتاب المسلم بما فيه إثم الاغتياب، وأن من اغتابه بما ليس فيه، فعليه إثمان: إثم الاغتياب، وإثم الافتراء عليه.

هذا وإذا استمرأ المجتمع الكلام في أعراض الغائبين في مجالسهم، ولم ينكروا ذلك، فإن أعراض عامة المجتمع ستنتهك، إذ يصبح ذلك عادة في المجالس دون نكير، وكل من غاب عن المجلس يكون عرضة لاغتيابه ونهش

---

(١) سورة الحجرات/١٢. (٢) مسلم (٤/٢٠٠١).

عرضه، لعدم وجود من ينصره ويدافع عنه وهو غائب.

ويترتب على ذلك إساءة الظن والحقد وعدم الثقة، لهذا كان من الواجب على المسلمين أن يحاربوا هذه الصفة الذميمة في مجالسهم، فلا يأذنوا لأحد بالكلام في أعراض الغائبين ليعملوا بما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من ردّ عن عرض أخيه ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة»[1].

والمسلم الذي لا يقدر على الرد عن عرض أخيه المسلم في المجالس لا يجوز له أن يغشى تلك المجالس لغير ضرورة، قال تعالى: ﴿**وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً**﴾[2].

قال القرطبي رحمه الله: فدلّ بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي، إذا ظهر منهم منكر، لأن من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم، والرضا بالكفر كفر؛ قال الله عز وجل: ﴿**إنكم إذاً مثلهم**﴾ فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم، فينبغي أن يقوم عنهم، حتى لا يكون من أهل هذه الآية...»[3].

فقد حمل الآية على عموم المعاصي، كفراً كانت أو غيره والغيبة إحدى تلك المعاصي التي لا ينبغي للمسلم أن يحضر مجالسها إلّا إذا قدر على إنكارها.

وأخطر من الغيبة النميمة، وهي نقل الكلام بين الناس للإفساد بينهم، وقد يجتمع في النميمة الأمور الثلاثة: نقل الكلام الذي هو من طبيعتها، والغيبة، إذا كان الذي نقل عنه الكلام غائباً، والبهت، إذا كان ما نقله النمّام من الكلام من افترائه، ولهذا كانت النميمة أشدّ خطراً من الغيبة.

---

(١) الترمذي (٤/٣٢٧) وقال: هذا حديث حسن.

(٢) النساء/ ٤٠. (٣) الجامع لأحكام القرآن (٥/٤١٨).

وقد أورد الإمام البخاري رحمه الله النصوص المتعلقة بالنميمة في باب الغيبة، وفي باب: النميمة من الكبائر، ولعله يشير إلى ما ذكر.

روى ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: خرج رسول الله ﷺ من بعض حيطان المدينة، فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما، فقال: «يعذبان، وما يعذبان في كبيرة، وإنه لكبير، كان أحدهما لا يستتر من البول، وكان الآخر يمشي بالنميمة، ثم دعا بجريدة، فكسرها بكسرتين أو ثنتين، فجعل كسرة في قبر هذا وكسرة في قبر هذا، فقال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا»[1].

وإن ما يفعله النمام من الإفساد بين الناس والتفريق بينهم وإثارة الأحقاد وما قد يؤدي إليه من البغضاء والتدابر والتقاتل لجدير بأن يجعل المسلمين يأخذون على يديه ولا يأذنوا له بنقل الحديث من بعضهم إلى بعض. ويجب أن يعلم من ينقل إليه النمام الحديث من آخر أنه سينقل عنه الحديث إلى ذلك الآخر، وأنه إذا كذب على غيره فسيكذب عليه وما الذي يمنع مرتكب الكبيرة من الإضرار بالجانبين، ولذلك سماه الرسول ﷺ بذي الوجهين، لأنه يأتي هذا بوجه وذاك بوجه أي أنه يبدو ناصحاً لهذا مبغضاً لذلك، فإذا جاء الآخر بدا كذلك محباً له ناصحاً له مبغضاً لخصمه، ومن هنا كان من شر الناس، كما روى أبو هريرة، رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «تجد من شر الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»[2].

ومما ورد فيه من الوعيد أنه لا يدخل الجنة، كما روى حذيفة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات»[3].

هذا، وليعلم أن من أخطر النمامين المشائين بين الناس بنقل الحديث أولئك الذين قد يظهرون في صورة الصلحاء الناصحين المحبين لمن نقلوا إليه الحديث، الخائفين عليه من الآخرين، وقد يتظاهرون بالخوف على الدين

---

(١) البخاري (٧/٨٦) ومسلم (١/٢٤٠).
(٢) البخاري (٧/٨٧) ومسلم (٤/٢٠١١).
(٣) البخاري (٧/٨٦) ومسلم (١/١٠١) والقتات النمام.

ويصفون بعض الناس بأوصاف تدل على عدائهم للدين أو مبدأ معين ويحذرون من هؤلاء الذين يخشى على ذلك المبدأ منهم وينقلون عنهم زورا وبهتاناً ما هم بريئون منه، بل قد يكون المتهم أحرص على الدين وعلى المبدأ من أولئك النمامين الكاذبين. نعم ان هؤلاء أخطر من غيرهم لتلبسهم بلباس المتدين الناصح، وقد لا يصرحون بأسماء الأشخاص إيغالاً منهم في النصح وعدم محبة ذكر الأسماء تفادياً للغيبة ولكنهم يذكرون أوصافاً لهم تعينهم، وذلك قائم مقام التعيين بالاسم وكثير من هؤلاء المشائين بالنميمة إذا فتش عنهم المتثبت الذي يخاف الله واليوم الآخر ويعمل بقول الله تعالى: **﴿يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾**[1]. إذا فتش المتثبت عن هؤلاء وجدهم كاذبين فيما ينقلون متصفين بالزور والبهتان يتخذون ذلك وسيلة التقرب إلى من يظنون أنه يقدر على قضاء حاجاتهم بالمال أو الجاه والمنصب، أي أنهم يتأكلون بالتظاهر بالحرص على المبدأ والدفاع عنه من أجل الحصول على فتات الدنيا، وقد بوب الإمام البخاري رحمه الله لأمثال هؤلاء بقوله: «باب قول الله تعالى: «واجتنبوا قول الزور»[2] وساق حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه»[3] أي أن المتعبد الكاذب الذي يصوم رمضان ـ وكذا الذي يصلي ولا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر ـ لا حاجة لله في عبادتهم المصطنعة.

ولعل الرسول ﷺ عنى أمثال هؤلاء عندما قال ـ كما روى عنه أبو هريرة رضي الله عنه أنه سمعه يقول ـ: «يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله عز وجل: أبي يغترون، أم عليّ يجترئون؟ فبي حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيران».

وفي حديث ابن عمر، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إن الله تعالى

---

(١) الحجرات/٦. (٢) الحج/٣٠. (٣) البخاري (٨٧/٧).

قال: لقد خلقت خلقا ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، فبي حلفت لأتيحنهم فتنة تدع الحليم حيران، فبي يغترون أم عليّ يجترئون»[1].

فعلى المجتمع الاسلامي أن يحذر ذوي الألسنة الحلوة والملمس اللين ولكن قلوبهم قلوب خبيثة مملوءة بالحقد، وهي أشد مرارة من الصبر وإلا فكيف يأمن المسلم، بل كيف يأمن المجتمع كله إذا كان أفراده لا يتثبتون مما ينقل إليهم عن اخوانهم من قالة السوء، وهل يجوز قبول كل ما ينقل من التجريح والاتهام بدون تثبت، وهل المسلم الذي ينقل الحديث أو يجرح مسلماً معصوم، ولو كان ظاهره الصلاح؟

إذا كان الله تعالى قد أمر بالتثبت في عهد رسوله ﷺ الذي كان أصحابه أشد خشية من الله من سواهم وكانوا يتحرجون من الحديث في أعراض الناس، فكيف بهذا الزمن الذي لبس فيه فساق ثياب أتقياء؟

نعم يجب على المسلم إذا رأى منكراً أن ينصح فاعله، فإذا أصر عليه نقل ذلك إلى من يقدر على إزالته من أولياء الأمور، وذلك من الحسبة الشرعية، ولكن هذا لا يلغي وجوب التثبت من الأمر خوفاً من ﴿**أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**﴾.

ويجوز للمظلوم أن يذكر ظالمه بما فيه ولو كان غائباً ليعان عليه كما قال تعالى: ﴿**لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلاّ من ظلم وكان الله سميعاً عليما**﴾[2].

---

(١) الحديثان في سنن الترمذي، وقال عقب حديث ابن عمر: هذا حديث حسن غريب من حديث ابن عمر.

(٢) النساء/١٤٨.

المبحث السابع:
ترك المنافسة للمسلم فيما بدأ فيه من المعاملات

إن الأصل في المعاملات الإباحة إلا ما حظره الشارع، ومن ذلك البيع والشراء والنكاح، فلكل واحد أن يبيع ماله ممن يشاء وأن يشتري السلعة ممن يريد، وأن يتزوج أي امرأة رغب في نكاحها ما دامت مباحة له.

ولكن المسلم إذا سبقه أخوه المسلم فرآه يساوم على سلعة ليشتريها أو يبيعها، أو سبقه إلى خطبة امرأة يريد نكاحها، فلا ينبغي له أن يتقدم ليشتري على شرائه ويبيع على بيعه، أو يخطب على خطبته، لما في ذلك من إغاظته وتكدير خاطره، فإذا رآه ترك ما كان يريد شراءه أو بيعه، أو خطبة المرأة التي كان يريد نكاحها، فله أن يتقدم بعد ذلك للبيع أو الشراء أو الخطبة ولا حرج عليه في ذلك، إذ لا ينافي عمله حينئذ مقتضى الأخوة الإسلامية، كما هو الحال بالنسبة للحالة الأولى.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك كله حسماً للخلاف وسدا لذريعة الأحقاد والتهاجر.

روى ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يبع بعضكم على بيع بعض»[1].

وعنه أيضاً عن النبي ﷺ، قال: «لايبع الرجل على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه، إلا أن يأذن له»[2].

وفي حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يسم المسلم على سوم أخيه»[3].

ونهى ﷺ عن النجش، وهو أن يزيد الرجل في ثمن السلعة التي يساوم

---

(١) البخاري (٣/٢٤) ومسلم (٣/١١٥٤).
(٢) البخاري (٦/١٣٦) ومسلم (٣/١١٥٤). (٣) مسلم (٣/١١٥٤).

عليها أخوه، وهو لا يريد شراءها، وإنما يستثيره ليشتريها بأكثر من ثمنها، روى أبو هريرة، رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن تلقي الركبان، وأن يبيع حاضر لباد وأن تسأل المرأة طلاق أختها، وعن النجش، وأن يستام الرجل على سوم أخيه»[1].

وفي هذا الحديث زيادة على ما مضى النهي عن تلقي الركبان، أي أن يتلقى بعض أهل السوق الباعة قبل دخولهم السوق، ليشتروا منهم السلع بثمنٍ أقل، ثم يبيعوهم بثمن أكثر، وفي ذلك ضرر على البائع وعلى المشترين من أهل السوق.

وفيه النهي عن بيع حاضر لباد، لأن البادي يبيع بما تيسر له حسبما يرى من الأسعار في السوق، أما الحاضر فإنه يغلي على الناس السلع فيضرهم بذلك.

وفيه نهى المرأة عن سؤالها طلاق ضرتها واشتراط طلاق الرجل امرأته ليتزوجها، وقد أطلق عليها في الحديث لفظ «أختها» إشارة إلى أن مقتضى الأخوة الاسلامية ينافي ذلك.

فهذه الأمور كلها نهى عنها الشارع لما فيها من الأضرار على المجتمع وما يحدثه ذلك في نفوس الناس على من تعاطى تلك المعاملات، فإذا تقيد المسلمون بهذا النهي وابتعدوا عما فيه ضرر على غيرهم تحققت بينهم الأخوة الإسلامية، وأمن الأخ أخاه وأحبه، وائتلفت القلوب، وزال تحريش الشيطان ووساوسه.

قال الحافظ بن حجر، رحمه الله: «قال العلماء: البيع على البيع حرام، وكذلك الشراء على الشراء، وهو أن يقول لمن اشترى سلعة في زمن الخيار: افسخ لأبيعك بأنقص، أو يقول للبائع: افسخ لأشتري منك بأزيد، وهو مجمع عليه، وأما السوم فصورته أن يأخذ شيئاً ليشتريه، فيقول له: رده لابيعك خيراً منه بثمنه أو مثله بأرخص، أو يقول للمالك: استرده لأشتريه منك بأكثر، ومحله بعد استقرار الثمن وركون أحدهما إلى الآخر...»[2].

---

(١) البخاري (٣/٢٤) ومسلم (٣/١١٥٥).

(٢) فتح الباري (٤/٣٥٣ ـ ٣٥٤) وراجع شرح النووي علي مسلم (١٠/١٥٨ ـ ١٥٩).

وقال النووي، رحمه الله: «هذه الأحاديث ظاهرة في تحريم الخطبة على خطبة أخيه، وأجمعوا على تحريمها إذا كان قد صرح للخاطب بالإجابة ولم يأذن ولم يترك...»[3].

(٣) شرح النووي علي مسلم (٩/١٩٧).

المبحث الثامن:
الابتعاد عن الغش والكذب

الغش والكذب والخيانة والغدر والفجور، كلها ضد النصح الذي أوجبه الشارع لكل مسلم على كل مسلم[1].

وهذه الأمور إذا تمكنت من نفوس أفراد المجتمع اختل توازنه وضرب الله بعضه ببعض، وأصبح كل فرد فيه لا يأمن الآخرين على قضيب من أراك، وفي ذلك غاية التردي والانتكاس وغاية الخوف والقلق.

لذلك حذر الله سبحانه وتعالى ورسوله من تلك الصفات تحذيراً شديداً، وهي متلازمة، فالغش ـ مثلاً ـ كذب وخيانة وغدر وفجور، وهكذا ـ.

أمر الله سبحانه وتعالى بأداء الأمانة إلى أهلها، فقال: ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**﴾[2]. ونهى سبحانه عن إضاعة الأمانة بالخيانة، فقال: ﴿**ياأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون**﴾[3]، ووعيد الغاش للمسلمين شديد عند الله وعند رسوله إلى درجة ظهوره في شرع الله كأنه ليس من المسلمين، كما روى أبو هريرة، رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: «من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا»[4] تأمل كيف نزل من غش المسلمين كمن قاتلهم في الذنب.

وفي حديثه أيضاً أن رسول الله ﷺ مرّ على صبرة طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً، فقال: «ما هذا؟» قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غش فليس مني»[5].

ووصف ﷺ من اتصف بالكذب والخيانة والغدر والفجور بالنفاق كما في حديث عبدالله بن عمرو، رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «أربع من كن

---

(١) راجع المبحث الثامن عشر من الفصل الأول في هذا الباب.
(٢) سورة النساء/٥٨.
(٣) سورة الأنفال/٢٧
(٤) مسلم (١/٩٩).
(٥) مسلم (١/٩٩).

فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر»[٦]. ولقد تفشت هذه الصفات في أكثر المسلمين حتى أصبح الأخ لا يأمن أخاه على كثير من أموره فلا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

(٦) البخاري (١/١٤) ومسلم (١/٧٨).

الفصل الثالث:
تحقيق معنى الولاء والبراء في نفوس المجتمع الاسلامي

وفي هذا الفصل تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأول : في الولاء

المبحث الثاني : في البراء

المبحث الثالث : بث العزة في المجتمع المسلم



تمهيـــد

إن أي مجتمـع من المجتمعـات التي تـريـد أن تتعـاون على تحقيق أمنهـا واستقرارها والوقوف ضد ما يهدد مصالحها ويعود عليها بالضرر، لا بد لـه من رابطة تجمع أفراده وتوحـدهم، وتجعلهم يتضامنـون انطلاقـاً من تلك الرابـطة لتحقيق مصـالحهم ودفع مضـارهم، ويتفقون على الأخـذ على يـد من خـرج منهم عن دائرة تلك الرابطة ورده إليها قسراً، كما تجعلهم يقفون ضد كـل من يريد الاعتـداء على مصالحهم، ويحـل رابطتهم التي جمعتهم، ولا يمكن أن يتكون مجتمع له تلك الصفة بدون رابطة يجتمع عليها أفراده أو أغلبهم.

لهـذا تجد كـل قوم يتعـارفون على رابـطة تخصهم دينية أو اقتصـاديـة، أو سيـاسية، أو اجتمـاعية، أو أمنيـة، أو قوميـة، أو حزبيـة، وقـد تنقسم طـائفة تعـارفت على رابـطة واحـدة في أول الأمـر، فيـدعي كـل قسم منهـا أنـه هـو المحافظ على تلك الرابطة وحامي حماها، وأن القسم الآخر فرط في أصـولها وحرّف معـانيهـا، وهكـذا... يـوالي أفـراد المجتمـع بعضهم بعضاً على رابطتهم، ويعادون غيرهم عليها.

والمقصود هنا بيان رابطتين شاملتين:

الأولى: رابطة حق تجمع أهل الحق.

والثانية: رابطة باطل تجمع أهل الباطل.

والذي بيَّن هاتين الرابطتين وحـددهما هـو الخالق سبحـانه وتعـالى، وليس المخلوق.

والفرق بين بيان الخالق والمخلوق، كالفرق بين الخالق والمخلوق.

فالخالق على علم تـام، والمخلوق على جهل تـام، إلا ما علمـه الخالق: ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾[1].

---

(١) سورة الملك/١٤.

الرابطة الأولى: رابطة الإيمان والتقوى، ويعبر عنها: **بسبيل الله** أو **الصراط المستقيم**، وأهلها هم المؤمنون المتقون، وأئمتهم هم **الأنبياء والرسل** عليهم الصلاة والسلام، وهم حزب الله.

والرابطة الثانية: الكفر والفسوق والعصيان، ويعبر عنها **بسبيل الطاغوت**، أو خطوات الشيطان، وأهلها هم الكافرون العصاة الفسقة وإمامها هو الشيطان الرجيم، وهم حزب الشيطان وأولياؤه.

قال تعالى ـ مبيّناً الرابطتين، وأن أهل كل رابطة تتعاون ضد الأخرى ـ ﴿**الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا**﴾[1].

وقد انقسم الناس من قديم الزمان إلى هذين القسمين: قسم رابطته الإيمان والتقوى، وقسم رابطته الكفر والفسوق والعصيان. ومن هنا شرع الله تعالى لحزبه الولاء والبراء: الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، والبراء من الشيطان ومن تبعه من أعداء الدين.

---

(١) سورة النساء/٧٦.

المبحث الأول:
في الولاء

وفيه مطلبان

المطلب الأول : بيان معنى الولاء والبراء

المطلب الثاني : بيان معنى أهل الولاء ومظاهر الولاء

المطلب الأول:
بيان معنى الولاء والبراء

قال الراغب الأصفهاني، رحمه الله: «الولاء والتوالي: أن يحصل شيئان فصاعدا حصولا ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد...»[1].

فالولاء بمعناه العام: اجتماع طرفين أو أطراف على أساس ما، لتحقيق هدف.

أما الولاء بمعناه الخاص، فينقسم إلى قسمين: الولاء الحق والولاء الباطل.

فالولاء الحق: اجتماع المسلمين على حب ربهم وعبادته ونصر دينه وحب رسوله ﷺ واتباعه ونصر رسالته، ومحبة بعضهم بعضاً وتناصرهم على طاعة الله ورسوله ورفع راية الإسلام في الكون. وحب الله لعباده المؤمنين وتوفيقهم لسلوك ما يرضيه ونصرهم على عدوهم.

أما الولاء الباطل، فهو اجتماع أعداء الله ورسوله والمؤمنين على حب

---

(١) المفردات (ص ٥٥٥) طبع كراتشي.

الشيطان وأتباعه ونصرهم والكون معهم، وحب ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان.

والبراء بمعناه العام ابتعاد طرفين أو أكثر وتنافرهم بسبب ما، أما البراء بمعناه الخاص، فينقسم أيضاً إلى قسمين: البراء الحق وهو بعد أولياء الله المؤمنين عن أعدائه الكافرين في دينهم ومحبتهم ومناصرتهم على باطلهم، ويكون المقصود من ذلك البعد هو الالتزام بطاعة الله والتقرب إليه ببغض أعدائه ومفارقتهم وعدم الكون معهم أو الرضا عنهم.

أما البراء الباطل فهو عداء الكافرين لله ولرسوله وللمؤمنين إذ الواجب أن يؤمنوا بالله ويكونوا من أوليائه.

المطلب الثاني:
بيان أهل الولاء، ومظاهر الولاء

إذا عرف معنى الولاء، فإن المؤمن يجب أن يعلم من هم أهل الولاء الذين افترض عليهم إعطاءهم ولاءه، وقد ورد بيان أهل الولاء في القرآن الكريم بياناً شافياً.

قال تعالى: ﴿**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون**﴾[1].

فأهل الولاء كما بينت هاتان الآيتان: الله تعالى، ورسوله ﷺ، والمؤمنون الذين صدقت أعمالهم أقوالهم، فأدوا حق الله وحق عباده.

مظاهر الولاء لله تعالى:

وتتلخص مظاهر الولاء لله سبحانه وتعالى، في الإيمان به إيماناً شاملاً صادقاً، الإيمان به سبحانه بأنه الخالق المدبر المحيي المميت، إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، وأنه سبحانه هو الإله المعبود الذي لا إله غيره ولا ربّ

(١) سورة المائدة/٥٥، ٥٦.

سواه، تجب عبادته وحده لا شريك له، ولا يجوز أن يعبد غيره وأن عبادة غيره شرك يخرج من ملة الإسلام. والإيمان بكل ما أخبر به تعالى من أمور الغيب، من صفاته العليا وأسمائه الحسنى، إيماناً مبنياً على نفي التشبيه والمماثلة للمخلوقين في أسمائهم وصفاتهم، وإثبات معاني أسمائه وصفاته على ذلك الأساس، وقطع الطمع عن إدراك كيفيّة أسمائه وصفاته، والإيمان بكتبه المنزلة كلها، وآخرها وخاتمها والمهيمن عليها هو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن أخباره كلها صدق يجب الإيمان بها، وأحكامه كلها عدل يجب الاحتكام إليها. والإيمان بجميع الأنبياء الذين بعثهم الله في الأمم لتبليغ دينه، وأن خاتمهم محمد ﷺ فلا نبيّ بعده، والإيمان بالموت والبرزخ والقيامة والجزاء والحساب والصراط والجنة والنار، وما ورد في ذلك كله من تفاصيل في القرآن أو السنّة الصحيحة. والإيمان بالملائكة إجمالاً وتفصيلا، ووظائفهم التي سمى الله في كتابه أو في سنّة رسوله ﷺ، والإيمان بالقدر خيره وشره، وأنه تجب على كل الناس عبادته تعالى وحده لا شريك له، والبعد عن معصيته، وأن يكون هدف المؤمن في حياته كلها هو رضا الله سبحانه وتعالى.

ويشمل ذلك كله قوله تعالى: **﴿الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾**[1].

وقوله تعالى: **﴿ليس البِرّ أن تولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب، ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾**[2].

وقوله تعالى: **﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون﴾**[3].

---

(١) سورة البقرة/١ ـ ٥. (٢) البقرة/١٧٧. (٣) سورة الذاريات/٥٦.

وقوله تعالى: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾[1].

وقد جمع أصول دين الله تعالى من الإيمان والطاعة، حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة سؤال جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ عن أمور الدين، وفيه: «وقال: يامحمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل» الحديث إلى أن قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[2].

والخلاصة أن الولاء لله، معناه: الإيمان به وبأسمائه وصفاته وألوهيته وربوبيته، وبما أخبر به من كتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، وطاعته في أمره ونهيه، والاحتكام إلى شريعته، والدعوة إلى دينه، والجهاد في سبيله، والسعي لتحقيق رضاه.

وبعد أن عرفنا معنى ولاية المؤمن لربه ـ إجمالاً دون تفصيل ـ فإنا نستعرض بعض الآيات القرآنية المصرحة بهذا الولاء:

قال تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السمٰوات والأرض وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتّبع ملّتهم، قل إن هدى الله هو الهدى، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من وليّ ولا نصير﴾[4].

---

(١) سورة الأنعام/١٦٣.
(٢) مسلم (١/ ٣٧ ـ ٣٨).
(٣) سورة البقرة/١٠٧.
(٤) سورة البقرة/١٢٠.

نفى سبحانه في الآيتين أن يرضى أعداء الله عن أوليائه، إلّا إذا والوهم فاتبعوا ملّتهم من دون الله، وبيّن سبحانه أن اتباعهم ضلال، وبعد عن هدى الله الذي لا هدى سواه، ونفى أن يكون متبعهم مستحقاً لولاية الله ونصره.

وأثبت سبحانه وتعالى ولايته لعباده المؤمنين، كما أثبت ولاية الطاغوت لأعدائه الكافرين، فقال تعالى: **﴿الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**[1].

وقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردّوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين، بل الله مولاكم وهو خير الناصرين﴾**[2].

وقال تعالى: **﴿ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلّوا السبيل، والله أعلم بأعدائكم، وكفى بالله وليًّا وكفى بالله نصيراً﴾**[3].

فأعداء الله هم أعداء المؤمنين، ولا بدّ في موالاتهم من ترك هدى الله والوقوع في ضلالهم، وهم يريدون ذلك للمؤمنين، وإن بدا لفاقد الإيمان أو ضعيفه أنّ في موالاتهم استنصاراً بهم، ولذلك يلجأ إليهم الذين عميت بصائرهم لطلب مناصرتهم في الدنيا مع الخضوع لهم وطاعتهم واتباع نظمهم مخالفين بذلك ما وجب عليهم من موالاة ربهم ومعبودهم وطلب النصر منه وطاعته والحكم بشريعته.

أما المؤمنون الصادقون، فإنهم يكتفون بولاية الله، بل يعبدونه بها ويطلبون النصر منه لا من سواه.

قال تعالى: **﴿وإن تولّوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير﴾**[4].

---

(١) سورة البقرة/٢٥٧.
(٢) سورة آل عمران: ١٤٩، ١٥٠.
(٣) سورة النساء: ٤٤، ٤٥.
(٤) الأنفال/٤٠.

وقال تعالى ـ مبيّناً اكتفاء المؤمنين بولايته ـ: **﴿أنت وليّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾**(1).

وقال: **﴿قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكّل المؤمنون﴾**(2).

مظاهر الولاء للرسول ﷺ:

ومن مظاهر الولاء للرسول ﷺ: الإيمان برسالته، وأنه خاتم النبيين، بعث إلى الناس كافة، وطاعته ﷺ في أمره ونهيه، وأن طاعته من طاعة الله تعالى، وتقديم محبته على محبة غيره، ونشر سنته، ونصره ونصر دينه، وأنه لا تجوز مخالفته ولا اتباع غيره ممن خالف أمره ونهيه.

فقد أرسله الله بالحق بشيراً ونذيراً، كما قال تعالى: **﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾**(3) وأمره سبحانه بتبليغ هذا الحق، فقال: **﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾**(4).

وأمره أن يبلغ جميع الناس بأنه رسول إليهم، فأصبحت رسالته عامة بعد أن كانت رسالة من قبله خاصة، قال تعالى: **﴿ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾**(5). وأخبر تعالى أن رسالته رحمة للعالمين، فال تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا رحمةللعالمين﴾**(6). وأخبر تعالى أنه خاتم النبيين، فقال تعالى: **﴿ما كان محمد أبَا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾**(7).

وأخبر تعالى أنه أرسله ليبشر الناس وينذرهم، ليؤمنوا به وبرسوله وينصروا هذا الرسول ويوقروه ويعظموه، كما يسبحون الله في كل وقت، قال تعالى: **﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه، وتسبحوه بكرة وأصيلاً﴾**(8).

هذا في الإيمان به وبعالمية رسالته، وكونها الخاتمة، وبما أنزل عليه

---

(1) سورة الأعراف/155. (2) التوبة/51. (3) سورة البقرة/119.
(4) سورة المائدة/67. (5) سورة الأعراف/158. (6) سورة الأنبياء/107.
(7) الأحزاب/40. (8) سورة الفتح/8، 9.

وتوقيره ونصره، وهي تتضمن طاعته في أمره ونهيه.

وقد كثرت النصوص الآمرة بطاعته ﷺ في القرآن والسنّة وهي بدهية لا تحتاج إلى كثرة استدلال، وإن نأى عنها كثير من المسلمين. فطاعة الرسول ﷺ هي السبيل إلى الجنة ورضوان الله، كطاعة الله. قال تعالى: **﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم﴾**[1].

وهي السبيل إلى مرافقة أولياء الله الصالحين في صراط الله المستقيم، كما قال تعالى: **﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما﴾**[2].

وطاعة الرسول ﷺ هي طاعة لله - وكذلك عصيانه عصيان لله - قال تعالى: **﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾**[3].

ولا تجوز مخالفة أمر الله ورسوله ولا مخالفة من أمر بأمر الله ورسوله، أما من أمر بغير أمر الله فلا طاعة له في معصية الله، وإذا اختلف المسلمون فيما بينهم وجب أن يردوا ما اختلفوا فيه إلى الله ورسوله، لا فرق بين محكومين وحاكمين كما قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾**[4].

وطاعة الله ورسوله هي سبيل الرحمة، ومن حرمها حرم محبة الله تعالى كما قال تعالى: **﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾**[5]. وقال تعالى: **﴿قل أطيعوا الله والرسول فإن تولّوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾**[6].

فإذا والى المسلم ربّه بالإيمان به، وبما أخبر به، وبعبادته وحده لا شريك له وطاعته، ووالى رسوله ﷺ بالإيمان به وبدينه الذي أنزله عليه ربه ووقّره

---

(١) سورة النساء/١٣.
(٢) سورة النساء/٦٩.
(٣) سورة النساء/٧٩.
(٤) سورة النساء/٥٩.
(٥) سورة آل عمران/١٣٢.
(٦) سورة آل عمران/٣٢.

ونصره، وأحبّه أكثر من نفسه وأهله وولده، وأطاعه في أمره ونهيه ـ وكل أمره خير وعدل وإحسان، وكل ما نهى عنه شر وظلم وسوء ـ إذا والى المسلم ربه ورسوله على ذلك، فإنه لا يتعاطى فعل شيء إلّا إذا كان مصلحة له وللمسلمين ولا يفعل شيئاً فيه ضرر عليه أو على غيره، مادام لا يرضي الله ورسوله ﷺ وهذا هو منبع أمن الناس على ضروراتهم ومصالحهم العامة والخاصة. ﴿**إنما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا**﴾.

مظاهر الولاء للمؤمنين:

يمكن تلخيص مظاهر الولاء للمؤمنين في قاعدتين:

القاعدة الأولى: تحقيق الأخوة الإسلامية، بتعاطي أسبابها وتجنب ما يضادّها، وقد تضمن هذه القاعدة: الفصل الأول والفصل الثاني من هذا الباب.

القاعدة الثانية: إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن المجتمع الذي يقيم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو مجتمع يرجى له الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة، إذ يدل القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أمرين هما ضرورة لبقاء المجتمع وتماسكه وأمنه:

الأمر الأول: وعي أفراد هذا المجتمع وعلمهم بما هو معروف وما هو منكر، والعلم بذلك أساس السعي لجلب المنافع ودفع الفساد.

الأمر الثاني: اهتمام أفراد هذا المجتمع بالمحافظة عليه وعلى مصالحه بجلب ما ينفعه ودفع ما يضرّه أو يخل بأمنه، وأن أفراده صادقون في محبة مجتمعهم وحرصهم على تنبيهه على المخاطر التي تهدده، وأن ولاء بعضهم لبعض ثابت محقق.

بخلاف المجتمع الذي لا تقوم فيه هذه القاعدة، إذ يدل عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الجهل بما ينفعه أو يضرّه، وعلى عدم الإحساس بالأخطار التي تحيط به، كما يدل على نفاق أفراده وعدم مبالاتهم بما يحدث فيه من خلل واضطراب تكون نهايتهما القضاء على ذلك المجتمع.

ومن هنا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فرائض هذا الدين على أهله.

وقد تكاثرت النصوص الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الكتاب والسنّة، قال تعالى: ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**﴾[1].

أمر الله تعالى المسلمين أن يقيموا طائفة منهم تتولى القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بحيث تكون على علم تام بما هو معروف تأمر به، وما هو منكر تنهى عنه، وتكون كذلك كافية لإقامة هذه الفريضة حتى تسقط الإثم عن المجتمع كله، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع هو من فروض الكفاية، إذا قامت به طائفة سقط عن الباقين، وإن كان جنس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين على كل المسلمين، من حيث أن كل فرد في الأسرة مسئول عما كلفه فيها ومن رأى منكراً وجب أن ينكره وهكذا. . .

ووصف سبحانه وتعالى هذه الأمة بأنها خير أمة وذكر ما أهّلها لتلك الخيرية، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، كما قال تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾[2].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم صفات رسول الله ﷺ التي اتصف بها الأتباع، وهو من أبرز وظائف جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿**الذين يتبعون الرسول النبي الأمّيّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث**﴾[3].

وهو من لوازم ولاء المؤمنين، بعضهم لبعض، ومن الأمور التي تؤهلهم لرحمة الله تعالى، كما قال عزّ وجلّ: ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء**

---

(١) سورة آل عمران/١٠٤.
(٢) سورة آل عمران/١١٠.
(٣) سورة الأعراف/١٥٧.

بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾[1].

وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحفظ أولياء الله دين الله تعالى، كما قال تعالى: **﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشّر المؤمنين﴾**[2].

وهو من أركان شكر المؤمنين ربهم إذا مكّنهم في الأرض، كما قال تعالى: **﴿الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾**[3].

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم وظائف أولياء الله من الرسل عليهم السلام وأتباعهم ومن لوازم ولاء بعضهم لبعض، فإن أعداء الله ينهجون عكس هذا النهج فيأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ـ وكل من سلك هذا المسلك فهو منهم وإن زعم أنه مسلم ـ قال تعالى: **﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾**[4].

وما نال أولياء الله من الأنبياء والرسل وأتباعهم من الدعاة الى الله من الأذى من أعداء الله إلّا بسبب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، كما قال تعالى: **﴿إن الذين كفروا بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشّرهم بعذاب أليم﴾**[5].

قال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية: دلت هذه الآية أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجباً في الأمم المتقدمة، وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة، قال الحسن: قال النبي ﷺ: من أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخلافة كتابه[6].

---

(1) سورة التوبة/٧١.
(2) سورة التوبة/١١٢.
(3) سورة الحج/٤١.
(4) سورة التوبة/٦٧
(5) سورة آل عمران/٢١.
(6) مرسل.

وعن درة بنت أبي لهب، قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر، فقال: من خير الناس يارسول الله؟ قال: آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم[1]. وفي التنزيل: **﴿والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف﴾** ثم قال: **﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾** فجعل تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقا بين المؤمنين والمنافقين، فدل على أن أخص أوصاف المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليه...»[2].

أما السنّة فقد وردت فيها نصوص كثيرة جداً تدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على المسلمين، وهذه طائفة منها:

منها أمر الرسول ﷺ بذلك، كما روى أبو سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إياكم والجلوس في الطرقات، فقالوا: يارسول الله، ما لنا من مجالسنا بدّ، نتحدث فيها، فقال: إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه» قالوا: وماحق الطريق يارسول الله؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[3].

وفي حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر...» الحديث [4] وحديث أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده...» الحديث [5].

ومنها إخبار الله تعالى وإخبار رسوله ﷺ بأن الله يعاقب هذه الأمة كما عاقب من قبلها بسبب ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن ذلك العقاب يعم الفاعل وغيره، كما قال سبحانه: **﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾**[6].

---

(١) أحمد (٦/٤٣٢).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/٤٧).
(٣) البخاري (٧/١٢٦) ومسلم (٣/١٦٧٥).
(٤) ابن ماجة (٢/١٣٣١) وسيأتي قريباً.
(٥) مسلم (١/٦٩).
(٦) سورة الأنفال/٢٥.

قال شيخنا العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي رحمه الله: «والتحقيق في معناها ـ أي الآية المذكورة ـ أن المراد بتلك الفتنة التي تعم الظالم وغيره، هي أن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيّروه عمّهم الله بالعذاب صالحهم وطالحهم، وبه فسّرها جماعة من أهل العلم والأحاديث الصحيحة شاهدة لذلك، كما قدمنا طرفاً منها»[1].

ومن أوضح الأحاديث تفسيراً لهذا المعنى حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء، مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم، نجوا ونجوا جميعاً»[2].

فالذين يخرقون الخرق ليسوا كل ركاب السفينة، وإنما بعضهم، وفي نصيبهم وليس في نصيب الآخرين، ويبدو قصدهم حسناً، وهو عدم إيذاء جيرانهم ولكن الهلاك لم يقتصر على من باشر الخرق وإنما هو عام لكل ركاب السفينة وهكذا فاعلو المنكر قد يكونون قليلين ولكن العقاب النازل بسبب فعلهم لا يخصهم، وإنما يعم معهم غيرهم لعدم قيام المجتمع بتغيير ذلك المنكر.

وفي حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، انه قال: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية: **﴿ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم﴾**[3]. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم بعقاب منه»[4].

وفي حديث حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، أن الله تعالى إذا عمّ الناس بعقاب من عنده بسبب تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يستجيب

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/١٧١).

(٢) البخاري (٣/١١١) والترمذي (٣/٤٧٠).

(٣) سورة المائدة/١٠٥.

(٤) الترمذي (٤/٤٦٧) وقال هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٢/١٣٢٧).

دعاءهم لرفع ذلك العقاب عنهم، فقد رَوَى عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»[1]

وفي هذا دليل على شدة غضب الله على المجتمع الذي لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، وذلك أن الله يسلّط بعض أفراد هذا المجتمع على بعض في الاعتداء على الأنفس والأموال والأعراض فيفقدون بذلك الأمن، هذا عدا ما قد ينزله الله به من القحط والغلاء والأوبئة والكوارث الأخرى التي تزلزل حياته.

وعقاب الله تعالى للأمم التي لا تأمر بالمعروف ولا تنهى عن المنكر سنّة ماضية لا تتخلف، لأن الأمة التي ترضى بانتشار الفساد فيها أمة غير صالحة لعمارة الأرض بعبادة الله، كما روى أبو عبيدة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل، لما وقع فيهم النقص، كان الرجل يرى أخاه على الذنب، فينهاه عنه، فإذا كان الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وشريبه وخليطه، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ونزل فيهم القرآن، فقال: ﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون، ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون**﴾[2]. قال: وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس، وقال: «لا، حتى تأخذوا على يد الظالم، فتأطروه على الحق أطرا»[3].

ومن ذلك وعيد الرسول ﷺ الشديد لتارك الأمر بالمعروف والنهي عن

---

(١) الترمذي (٤/٤٦٨) وقال: هذا حديث حسن.

(٢) سورة المائدة/٧٨ ـ ٨١.

(٣) أحمد (١/٣٩١) وأبو داود (٤/٥٠٨) وابن ماجه (٢/١٣٢٧) والترمذي (٥/٢٥٢) وقال: هذا حديث حسن غريب. ومن عدا ابن ماجه رواه عن أبي عبيدة عن عبدالله بن مسعود، أما ابن ماجة فرواه عن أبي عبيدة مرسلاً وأشار إليه الترمذي.

المنكر، وإخباره ببعده عن صف المسلمين الذين لا يتحقق ولاؤهم بغير هذه الوظيفة، روى ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منّا من لم يرحم صغيرنا، ولم يوقر كبيرنا، ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر»[1].

وإذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غلب الشر في المجتمع الخير، وإذا غلب الشر الخير لم يعد المجتمع مستحقًّا للحياة السعيدة الآمنة، بل أصبح مستحقاً للهلاك والدمار، كما روت زينب بنت جحش، رضي الله عنها، قالت: إن النبي ﷺ، دخل عليها فزِعاً، يقول: «لا إله إلاّ الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بإصبعيه: الإبهام والتي تليها» قالت زينب ابنة جحش: يارسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»[2].

وبيّن ﷺ حقارة من لم يأمر بالمعروف وَيَنْهَ عن المنكر عند الله وعند نفسه كذلك، سواء كان فرداً أم جماعة، وحقارة المجتمع أشد من حقارة الفرد، لأن الفرد يمكن أن يقوّمه المجتمع ويستر عيوبه، أما المجتمع فإن تقويمه صعب وعيوبه شاملة ظاهرة.

روى جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، ، قال: لما رجعت إلى رسول الله ﷺ مهاجرة البحر، قال: «ألا تحدثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟» قال فتية منهم: بلى يارسول الله، بينا نحن جلوس، مرت بنا عجوز من عجائز رهابينهم تحمل على رأسها قلّة من ماء فمرت بفتى منهم، فجعل إحدى يده بين كتفيها، ثم دفعها، فخرت على ركبتيها، فانكسرت قلّتها، فلما ارتفعت التفتت إليه، فقالت: سوف تعلم يا غدر، إذا وضع الله الكرسي، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غداً. قال: يقول رسول الله ﷺ: «صَدَقتْ صدقت، كيف يقدس الله أمة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم؟!»[3].

---

(١) الترمذي (٤/٣٢٢)، وقال: هذا حديث حسن غريب.
(٢) البخاري (٤/١٠٩).
(٣) ابن ماجه (٢/١٣٢٩) قال المحقق في الزوائد: إسناده حسن.

أي أن الله عز وجل لا يكرم أمّة يهين فيها القوي الضعيف، وإنما تقتضي حكمته وعدله إهانة تلك الأمة وتحقيرها.

وفي حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحقر أحدكم نفسه» قالوا: يارسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: «يرى أمر الله عليه فيه مقال، ثم لا يقول فيه، فيقول الله عز وجل له يوم القيامة: ما منعك أن تقول فيّ كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول: فإياك كنت أحق أن تخشى»[1].

دلّ الحديث أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر عزيز كريم، لقيامه بأمر الله تعالى وعدم خشية سواه، وأن القاعد عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حقير ذليل لعدم قيامه بأمر الله وخشيته سواه.

وقد نهى رسول الله ﷺ الرجل أن تمنعه مخافة الناس من قول كلمة الحق كما روى أبو سعيد ـ أيضاً ـ أن رسول الله ﷺ، قام خطيباً، فكان فيما قال: «ألا لا يمنعنّ رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه» قال: فبكى أبو سعيد، وقال: قد والله رأينا أشياء فَهِبْنَا»[2].

مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إن الناس يختلفون في قوة إيمانهم وضعفه، كما يختلفون في القدرة وعدمها وقد جعل الشارع للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثلاث مراتب: المرتبة الأولى هي الحد الأعلى، والمرتبة الثانية هي الوسط، والمرتبة الثالثة هي الحد الأدنى.

فالمرتبة الأولى: هي أن يقوم الآمر والناهي بتغيير المنكر بيده، أي يغيره بالقوة، ولا يكتفي بالوعظ والتذكير وبغض ذلك بقلبه، وهذه المرتبة هي فرض على القادر عليها، مثل الأب مع ولده الداخل تحت قدرته، وكذلك المنكر الذي يوجد في الأسرة، فإن الواجب على رب الأسرة تغييره بالقوة إذا لم يكن بدّ منها، وكذلك ولاة الأمر، كالحكام والنواب، من موظفي الدولة،

---

(١) ابن ماجة (٢/١٣٢٨) قال المحقق: في الزوائد: وإسناده صحيح.

(٢) ابن ماجة (٢/١٣٢٨).

كل فيما يخصه، وفي حدود ما خوّله المسئول عنه، وولاة الأمر هم أقدر الناس على مباشرة هذه المرتبة، لأن ما بيدهم من السلطان والقوة يتيح لهم ذلك، بخلاف غيرهم.

المرتبة الثانية: هي مرتبة الأمر والنهي باللسان، وهذه المرتبة يقدر عليها غالب الناس في الأوقات العادية، أي عندما تكون حالة المسلمين في اعتدال، بحيث يكون الحاكم مسلماً، يحكم بشرع الله تعالى في الجملة ولا يصد الناس عن الدعوة إلى الله تعالى والتواصي بالحق والتواصي بالصبر. والقيام بتعليم الناس دين الله في المجامع العامة كالمساجد والأسواق والنوادي الثقافية والاجتماعية والرياضية، ومجمّعات المصانع وغيرها، فإن كل واحد يكون أهلاً لقول كلمة الحق يمكنه أن يأمر وينهي في حدود آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأداة هذه المرتبة هي اللسان، كما مضى.

أما المرتبة الثالثة، وهي الحد الأدنى الذي لا يكلّف الإنسان غيره، لعدم قدرته فهي إنكار المنكر بالقلب، وذلك، بأن يبغضه ويبغض فاعله، ولا يعينه عليه بقول ولا فعل ولا بقرينة تدل على رضاه به، وهذه المرتبة لا توجد إلّاحيث يسيطر الطغيان والكفر والفسوق التي يسندها طغاة أقوياء بالقوة ويصدّون كل من تصدّى لتنفير الناس عنها وأمرهم بما يرضي الله تعالى.

وشرع الله تعالى هذه المراتب يعتبر من فضل الله تعالى ورحمته بعباده، حيث راعى قدرتهم واستعدادهم وقوتهم وضعفهم، كل واحد يقوم بواجبه في هذه الفريضة بحسب طاقته، وإلّا فلو فرض الله تعالى عليهم جميعاً المرتبة الأولى فقط لكان في ذلك تكليف بما لا يطاق، وهو سبحانه وتعالى لا يكلّف نفساً إلّا وسعها وكذلك لو أوجب عليهم المرتبة الثانية فقط، إذا لم يقدروا على المرتبة الأولى لكان في ذلك إعنات ومشقة على كثير منهم، ولهذا كانت المرتبة الأخيرة هي الحد الأدنى الذي يخرج الإنسان من سخط الله والرضا بما يغضبه من فعل المنكر وترك المعروف.

ولو أن الله تعالى فرض على الناس المرتبة الثالثة فقط في كل الأحوال - وحكمته تأبى ذلك - لكان في هذا تمكين للشر في الأرض ومطاردة للخير،

لأن الكفار والفسقة والظالمين لا يبالون أن يكره الناس أعمالهم بقلوبهم، فهم يتجرأون على تعاطي المنكر وترك المعروف مع وجود من ينكر عليهم، وكذا لو اقتصر على فرض الأمر والنهي بالقول أو بالقول مع كراهة القلب، فإن كثيراً من الناس يكون قادراً على الأمر والنهي بيده فيرى أن الأمر لا يعنيه فلا يغير بيده، وإنما يكتفي بلسانه وقلبه وكل ذلك خلاف ما تقتضيه حكمة الله.

فشرعه سبحانه وتعالى المراتب الثلاث يدل على كمال علمه وحكمته ورحمته وسموّ أحكامه سبحانه وتعالى.

وقد اشتمل على المراتب الثلاث المذكورة حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، كما روى عنه طارق بن شهاب، رحمه الله، قال: أول من قدم الخطبة يوم العيد قبل الصلاة، مروان، فقام إليه رجل، فقال: الصلاة قبل الخطبة، فقال: ترك ما هنالك، فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ما عليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1].

ومثله حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي، إلاّ كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنه تخلف من بعدهم خُلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[2].

ودلّ حديث أم مسلمة، رضي الله عنها أنه لا يسلم من تبعة المنكر إلاّ من أنكر بحسب قدرته على ما مرّ في المراتب الثلاث، أما من لم ينكر المنكر، بل رضي به وتابع صاحبه وأظهر له الرضا به، فإنه معرض لسخط الله تعالى وعقابه، كفاعل المنكر.

فقد روت أم مسلمة أن رسول الله ﷺ، قال: «إنه يستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برىء، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي

---

(١) مسلم (١/٦٩) والترمذي (٤/٤٧٠). (٢) مسلم (١/٧٠).

وتابع» قالوا: يارسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال: «لا، ماصلوا»[1]..

قال النووي، رحمه الله: «فمن كره فقد برئ».. معناه من كره ذلك المنكر فقد برىء من إثمه وعقوبته، وهذا في حق من لم يستطع إنكاره بيده ولا لسانه، فليكره بقلبه وليبرأ... وقوله ﷺ: «ولكن من رضي وتابع» معناه: ولكن الإثم والعقوبة على من رضي وتابع، وفيه دليل على أنّ من عجز عن إزالة المنكر لا يأثم بمجرد السكوت، بل إنما يأثم بالرضا به، أو بأن لا يكرهه بقلبه أو بالمتابعة عليه»[2].

ذروة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إذا كانت المرتبة الأولى من المراتب الثلاث هي أفضلها، فإنه قد تفضل المرتبة الثانية التي هي التغيير باللسان، المرتبة الأولى، التي هي التغيير باليد، بحسب المأمور والمنهي، فالذي يغيّر المنكر بيده في بيته ومع أفراد أسرته أقل درجة ممن يغير المنكر بلسانه أمام سلطان ظالم وأفضل من السلطان العادل الذي يغير المنكر بالقوة أيضاً، ولهذا لمّا سُئل الرسول ﷺ عن أي الجهاد أفضل جعل كلمة الحق عند السلطان الجائر هي جواب السائل، كما في حديث أبي أمامة، رضي الله عنه، قال: عرض لرسول الله، ﷺ رجل عند الجمرة الأولى، فقال: يارسول الله، أي الجهاد أفضل؟ فسكت عنه، فلما رأى الجمرة الثانية سأله، فسكت عنه، فلما رمى جمرة العقبة، وضع رجله في الغرز، ليركب، قال: «أين السائل؟» قال: أنا يارسول الله، قال: «كلمة حق عند سلطان جائر»[3].

ومثله حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[4].

---

(١) مسلم (٣/ ١٤٨٠).   (٢) شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢٤٣).

(٣) ابن ماجة (٢/ ١٣٣٠)، قال المحقق: «في الزوائد: في اسناده أبو غالب، وهو مختلف فيه، ضعفه ابن سعد وأبو حاتم والنسائي، ووثقه الدارقطني، وقال ابن عدي: لابأس به، وراشد ابن سعيد، قال فيه أبو حاتم: صدوق، باقي رجال الاسناد ثقات» وراجع سنن الترمذي (٤/ ٤٧١) وجامع الأصول (١/ ٣٣٣) وذكره الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٣٦٩).

(٤) ابن ماجة (٢/ ١٣٢٩).

والسبب في تفضيل كلمة الحق عند السلطان الجائر يعود إلى أمور:

الأمر الأول: قلة من يقوم بذلك من الناس، لما يعلمون من ظلم السلطان وبطشه وكبريائه، واحتقاره للناس، فالناس يهابونه ويخشونه على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ولا يواجهه بكلمة الحق إلّا مَن باع نفسه وكل غالٍ عنده لله تعالى.

الأمر الثاني: إن الأذى لا يلحق الآمر وحده، وإنما يلحق أسرته من بنين وبنات وامرأة وأخوة وأبوين وأصدقاء وغيرهم، كما يلحق ما يملك من مال ومنصب وجاه وغيرها.

الأمر الثالث: ما في كلمة الحق عند السلطان الجائر من نفع عام يشمل الرعيّة كلها إذا قبلها منه السلطان وعمل بمضمونها، وهي كذلك نافعة ولو لم يأخذ بها، لما فيها من إقامة الحجة على الطغاة.

الأمر الرابع: كون ذلك قدوة حسنة لغيره من الرعية الساكتين، فقد يقتدي به بعض أهل الخير، فيقومون بالأمر والنهي وقد ينفع الله بذلك.

من الذي يجوز له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو يجب عليه؟

المقصود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يعمل بالمعروف ويترك المنكر، فلا بد من وجود الوسائل المؤدية إلى ذلك، ومن عدم الوسائل التي تكون سبباً في عكس المقصود من الأمر والنهي.

الوسيلة الأولى المؤدية إلى المقصود، أن يكون الآمر والناهي عالماً بالمعروف والمنكر علماً شرعياً، من نصوص الكتاب والسنّة، والقواعد الشرعية المأخوذة منهما، حتى لا يأمر إلّا بالمعروف، ولا ينهى إلّا عن المنكر، لأن الجاهل قد ينهى عن المعروف، ويأمر بالمنكر وهو لا يدري، ولهذا قال تعالى: **﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾**[1].

ولا يكون الداعي إلى الله تعالى على بصيرة إلّا بالعلم.

---

(١) سورة يوسف/١٠٨.

الوسيلة الثانية: الحكمة التي يحسن بها الداعي إلى الله الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، التصرف في أمره ونهيه، فيعطي كل موقف ما يناسبه من اللين وحسن الأسلوب، واختيار الدليل والحجة للذي يأمره وينهاه، ومن الزجر والتخويف والإغلاظ في القول، لمن يستحق ذلك، ومن إنزال العقاب الخفيف أو الشديد... وهكذا، لأن الناس يختلفون في سرعة الاستجابة وبطئها، والاقتناع بالحجة الواحدة أو الحجج الكثيرة، وبالإشارة والكلمة، أو بالإسهاب والتفصيل، وبالترغيب أو الترهيب، أو بهما معاً، وذلك يقتضي أن يكون الآمر قادراً على اختيار الأسلوب المناسب والوسيلة المناسبة وقد شمل ذلك كله وغيره مما يدخل في الحكمة، قول الله عزّ وجلّ: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾[1].

الوسيلة الثالثة: التجرد لله والإخلاص له، وعدم ابتغاء شيء من حطام الدنيا بالأمر والنهي، لأن الذي يتجرد لله، ولا يقصد بعمله الدنيا تظهر للناس نزاهته، ويستبين شرف مقصده، ويعلم الناس أنه لا يسعى لكسب مادي من مال ونحوه، ولا معنوي، من منصب وجاه وغيرهما، وإنما يسعى لإسعادهم وجلب الخير لهم بدون أن ينال أجراً منهم، بل ابتغاء مرضاة الله، ولهذا كان الرسل عليهم الصلاة والسلام يقرنون دعوتهم الناس إلى الله، بأنهم لا يسألونهم أجراً على دعوتهم، كما قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿**إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون، إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلاّ على رب العالمين، فاتقوا الله وأطيعون**﴾[2].

وهكذا قال عن هود عليه السلام: ﴿**وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلاّ على رب العالمين**﴾[3].

وهكذا قال عن صالح ولوط وشعيب.

والذي يريد من وراء دعوته وأمره ونهيه مغنماً، لا يتبعه الناس إلاّ لمغنم وذلك بعيد عن مقصود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) سورة النحل/١٢٥.
(٢) سورة الشعراء: ١٠٦ - ١١٠.
(٣) سورة الشعراء/١٢٧.

الوسيلة الرابعة: الصبر على أذى الناس وصدودهم عنه، وصدهم غيرهم عن الاستجابة لأمره ونهيه، لأن الآمر بالمعروف يأمر الناس بما لم يألفوه، وينهاهم عما ألفوه، وفعل غير المألوف شاق على النفوس كترك المألوف، والذي لا يمنحه الله تعالى نعمة الصبر لا يقدر على السير في هذا الطريق، لأنه طويل مملوء بالأشواك والعقبات، إذا تجاوز بعضها وقّفه بعضها الآخر، وإنما يقدر على السير فيه من آتاه الله خلق الصبر، والصبر حبس النفس على ما تكره، وإذا طال صبر الآمر والناهي، وكرر الأمر والنهي، لفت بذلك انتباه ذوي الألباب، فيأخذون في التفكير في أمره ونهيه، ومراجعة ما هم عليه، ويعلمون في آخر الأمر أن هذا الرجل لا يمكن أن يصبر هذا الصبر الطويل بدون نفع مادي يعود عليه منهم أو من غيرهم، وإنما يحسن إليهم ويسيئون هم إليه، إن ذلك لا يمكن أن يحصل إلاّ إذا كان صاحبه على حق يحسّ بالسعادة تغمره وهو يدعو الناس إليه ولو وقفوا كلهم ضده، وإن حزن على بعدهم عن ذلك الحق، عندئذ يستجيب من أراد الله هدايته، ويصبح في صفه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لينعم المجتمع بالخير وينجو من الشر، قال تعالى: **﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾**[1].

وأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالاقتداء بأولي العزم من إخوانه الرسل في الصبر على قومه، وهو يأمرهم وينهاهم، وهم يصدون ويؤذونه، فقال تعالى: **﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾**[2].

وقال تعالى عن لقمان، وهو يعظ ابنه: **﴿يا بنيّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك، إن ذلك من عزم الأمور﴾**[3].

الوسيلة الخامسة: أن يؤدي الأمر والنهي إلى المقصود منه بدون مفسدة أكبر من مفسدة المنكر الذي أريد تغييره، أو إلى تفويت مصلحة أعظم من مصلحة المعروف الذي أريد تحقيقه، فإن كان الأمر والنهي يؤديان إلى تلك

---

(١) سورة/والعصر. (٢) سورة الاحقاق/٣٥. (٣) سورة لقمان/١٧.

المفسدة أو إلى تفويت تلك المصلحة، فلا يجوز الإقدام عليهما حينئذٍ، لأن الشارع لا يأمر بارتكاب أكبر المفسدتين أو تفويت أعظم المصلحتين، وإنما يأمر بارتكاب أخف المفسدتين، وبجلب أعظم المصلحتين.

ومما يبين العمل بهذه القاعدة ترك النبي ﷺ إدخال الحجر في بناء الكعبة، خشية من افتتان قريش بذلك، لحداثة عهدهم بالإسلام، كما روت عائشة رضي الله عنها، قالت: سألت النبي ﷺ عن الجدار، من البيت هو؟ قال: «نعم» قلت: فما لهم لم يدخلوه في البيت؟ قال: «إن قومك قصرت بهم النفقة» قلت: فما شأن بابه مرتفعاً؟ قال: «فعل ذلك قومك، ليدخلوا من شاءوا، ويمنعوا من شاءوا، ولولا أن قومك حديث عهد بالجاهلية، فأخاف أن تنكر قلوبهم أن أدخل الجدار في البيت، وأن ألصق بابه بالأرض» وفي رواية: «لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية، لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين: باباً شرقياً وباباً غربياً، فبلغت به أساس إبراهيم»[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وفيه تقديم الأهم فالأهم من دفع المفسدة وجلب المصلحة، وأنهما إذا تعارضا بدىء بدفع المفسدة. وأن المفسدة إذا أمن وقوعها عاد استحباب عمل المصلحة...»[2].

قلت: وفيه ترك أعظم المفسدتين وهو الهدم والبناء، وإدخال الحجر في البيت وجعل بابين للبيت ملزقين بالأرض، خوفاً من فتنة الناس وارتكاب أخفهما، وهو إبقاء الحجر خارجاً عن بناء الكعبة، وهذا هو المقصود.

ومن الأمثلة الواضحة لهذا الأمر عدم جواز الخروج بالقوة على الحاكم الفاجر الذي لم يصل فجوره إلى حدّ الكفر البواح ـ والخروج على الظالم يعد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الجملة ـ لأن المقصود إراحة الناس من جوره ولكنه منع خشية من الوقوع في مفسدة أعظم من فجوره وظلمه، وهي الاقتتال والتناحر المؤدي إلى فساد البلاد وهلاك العباد[3].

---

(١) البخاري (٢/١٥٦) واللفظ له، ومسلم (٢/٩٦٨).

(٢) فتح الباري (٣/٤٤٨) وراجع الفتاوى لابن تيمية (٢٨/١٢٦ ـ ١٣١).

(٣) محل هذا المبحث هو أثر السياسة الشرعية في أمن المجتمع، وهو جدير بكتاب.

هذا، ومما ينبغي أن يعلم أنه لا ينبغي أن تجعل المسائل الاجتهادية من باب المنكر، لأن المجتهد، إذا أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر، فلا يحكم على اجتهاد المجتهد الذي استنبطه من الكتاب والسنّة أو قاسه على أصل قابل للقياس بأنه منكر، ولا يمنع عدم الحكم على تلك المسائل بأنها منكر من النقاش والمذاكرة فيها والمناظرة بين المجتهدين ـ وليس أدعياء الاجتهاد المتطفلين ـ لإظهار أوجه الاستدلال وتمحيصها.

ولكن يجب التفريق بين مسائل الاجتهاد التي تتعارض فيها الأدلّة ومسائل الخلاف التي يوجد فيها نص من الكتاب والسنّة أو الإجماع مع أحد الفريقين دون الآخر، وإنما قدم على النص قياساً ظنه صحيحاً وهو فاسد إذ لا صحة لقياس يعارض نصاً ثابتاً.

قال ابن القيم رحمه الله: «وقولهم: إن مسائل الخلاف لا إنكار فيها، ليس بصحيح، فإن الإنكار، إما أن يتوجه إلى القول والفتوى، أو العمل، أما الأول، فإذا كان القول يخالف سنّة أو إجماعاً شائعاً وجب إنكاره اتفاقاً. . . وأما العمل، فإذا كان على خلاف سنّة أو إجماع، وجب إنكاره بحسب درجات الإنكار، وكيف يقول فقيه: لا إنكار في المسائل المختلف فيها، والفقهاء من سائر الطوائف قد صرحوا بنقض حكم الحاكم إذا خالف كتاباً أو سنّة، وإن كان قد وافق فيه بعض العلماء؟

أما إذا لم يكن في المسألة سنّة، ولا إجماع، وللاجتهاد فيها مساغ، لم ينكر على من عمل بها مجتهداً أو مقلداً، وإنما دخل هذا اللبس من جهة أن القائل يعتقد أن مسائل الخلاف، هي مسائل الاجتهاد، كما اعتقد ذلك طوائف ممن ليس لهم تحقيق في العلم، والصواب ما عليه الأئمة، إن مسائل الاجتهاد ما لم يكن فيها دليل. يجب العمل به وجوباً ظاهراً، مثل حديث صحيح لا معارض له من جنسه، فيسوغ فيها. . . الاجتهاد، لتعارض الأدلّة أو لخفاء الأدلّة فيها. . .»[1].

---

(١) أعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/٢٨٨) وراجع كتاب أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/١٦٩) وما بعدها فقد اشتمل على كثير من هذه المسائل.

الوسيلة السادسة: القدوة الحسنة في الآمر والناهي

إن القدوة الحسنة لهي من أنجح وسائل الاستجابة للخير، فإذا كان الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر قدوة حسنة لمن يأمرهم وينهاهم، أي يتعاطى ما يأمرهم به، ويجتنب ما ينهاهم عنه، ويتجافى عن مواطن الشبهات، فإن الناس يكونون أكثر استجابة له، لما يرون في سلوكه من الخير الذي يأمر به وترك الشر الذي ينهى عنه، وبذلك يظهر صدقه، لمطابقة فعله قوله.

قال تعالى: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً**﴾[1].

وقد أثّرت قدوته ﷺ الحسنة في نفوس أصحابه، رضي الله عنهم فاقتدوا به في شجاعته وكرمه وإيثاره وأخلاقه كلها، حسب طاقتهم.

وأخبر الله تعالى عن نبيّه شعيب عليه السلام أنه حضّ قومه على طاعة الله في توحيده وترك الإشراك به، وعدم ظلم عباده، وأوضح لهم أنه هو عليه الصلاة والسلام يعمل بما يدعوهم إليه، ولا يخالف عمله قوله. قال تعالى: ﴿**وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه**﴾[2].

وأنكر سبحانه تعالى على اليهود، إذ كانوا يأمرون بالبر والخير غيرهم ولا يأتونه هم، فقال تعالى: ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون**﴾[3].

وعاتب بعض المسلمين لتقصيرهم في عدم موافقة بعض فعلهم لما يقولون، فقال تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون**﴾[4].

وأخبر النبي ﷺ بوعيد شديد يلقاه يوم القيامة من يأمر الناس بالمعروف ولا يأتيه، وينهاهم عن المنكر ويأتيه، كما في حديث أسامة، رضي الله عنه أنه سمع من رسول الله ﷺ، يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار،

---

(١) سورة الأحزاب/٢١.
(٢) سورة هود/٨٨.
(٣) سورة البقرة/٤٤.
(٤) سورة الصفّ/٢، ٣.

فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان، ما شأنك، أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[1].

وقال شيخنا الشنقيطي، رحمه الله: «اعلم أن كلاً من الآمر والمأمور يجب عليه اتباع المأمور به، وقد دلّت السنّة الصحيحة أن من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله، أنه حمار من حمر جهنم يجر أمعاءه فيها، وقد دلّ القرآن العظيم على أن المأمور المعرض عن التذكرة حمار أيضاً» ثم ساق بعض النصوص الواردة في ذم من يأمر بالمعروف ويتركه، وينهى عن المنكر ويفعله، إلى أن قال: «وأما الآية الدالة على أن المعرض عن التذكرة كالحمار أيضاً، فهي قوله تعالى: ﴿**فما لهم عن التذكرة معرضين، كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة**﴾[2]. والعبرة بعموم الألفاظ، لا بخصوص الأسباب»[3].

الحالات التي يجوز فيها ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من قواعد الإسلام العظام التي لا يجوز تركها والتفريط فيها، لأن في تركها هدماً للإسلام وتقويضاً لأركانه. وعباد الله الصالحون يحرصون على رفع راية الإسلام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويفدون دينهم بأنفسهم وأموالهم، ويتحملون كل أنواع الأذى والمشقة محتسبين.

ولكن القيام بهذا الأمر والنهي قد لا يؤدي إلى المقصود منه، وهو على ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن يؤدي إلى مفسدة أعظم من المصلحة المرادة منه وقد سبق بيان حكم هذه المسألة، وفي هذه الحالة يجب فيها ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[4].

---

(١) البخاري (٤/ ٩٠) ومسلم (٤/ ٢٢٩٠).　　(٢) سورة المدّثر/ ٤٩ ـ ٥١.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن (٢/ ١٧٢ ـ ١٧٣).

(٤) راجع الوسيلة الخامسة فيما مضى.

الحالة الثانية: أن لا يرجى من الأمر والنهي نفع يحصل، بل يجزم الآمر والناهي بعدم جدوى أمره ونهيه، وفي هذه الحالة يجوز له ترك الأمر والنهي، وقد استدِل على ذلك بمفهوم قوله تعالى: ﴿**فذكّر إن نفعت الذكرى**﴾[1].

ومن الأحاديث الموضحة لذلك، حديث أبي ثعلبة الخشني، رضي الله عنه قال له: أبو أمية الشيباني: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: ﴿**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم**﴾[2]، قال: سألتَ عنها خبيراً، سألتُ عنها رسول الله ﷺ، فقال: «ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمراً لا يدان لك به، فعليك خويصة نفسك، فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيهن على مثل قبض الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون بمثل عمله» وفي رواية: «قيل: يارسول الله، خمسين منّا أو منهم؟ قال: «بل خمسين منكم»[3].

فقد بيّن ﷺ في هذا الحديث الأسباب المبيحة لترك الأمر والنهي وهي الشح المطاع، واتباع الهوى، وإيثار الدنيا، والإعجاب بالرأي، وعدم القدرة التي يأخذ بها الآمر والناهي على أيدي أهل المنكر، فيجوز له عندئذٍ أن يعتزل الناس ولا يأمرهم ولا ينهاهم ويجتهد في استقامة نفسه على أمر الله والبعد عما يرتكبه أهل الكفر والفسوق والعصيان.

أمّا ما دام احتمال النفع قائماً والقدرة على التغيير موجودة، فلا يجوز ترك الأمر والنهي.

الحالة الثالثة: أن يخاف الآمر والناهي حصول ضرر عليه بسبب أمره ونهيه فإن كان الضرر المتوقع هو مجرد اللّوم، وليس الأذى المتعدي إلى نفسه أو أهله أو ماله، فإن الخوف لا يكون سبباً مبيحاً لترك الأمر والنهي، لأن اللّوم لا يسلم منه أحد، حتى لو لم يأمر ولم ينه، بل استقام على أمر الله وترك الناس وشأنهم، فإن الناس لا يتركونه من الكلام فيه.

---

(١) سورة الأعلى/٩. (٢) سورة المائدة/١٠٥.

(٣) ابن ماجه (٢/١٣٣١) والترمذي، والزيادة له (٥/٢٥٧) وقال: هذا حديث حسن غريب.

وإن كان الضرر المتوقع هو الاعتداء عليه بالضرب أو الحبس أو القتل، أو أخذ المال، أو انتهاك العرض ونحو ذلك، وغلب على ظنه أن ذلك سيحصل فعلاً، وليس مجرد ظنون لا سند لها، وكان يرجو من أمره ونهيه حصول المقصود منهما مع تعرضه للأذى، فإنه من الأفضل له أن يأمر وينهى ويصبر على ما يناله من أذى، وبخاصة إذا كان المعروف المتروك من المصالح العامة التي لا يستقيم أمر الناس بدونها، أو كان المنكر المتعاطى من المفاسد التي يعم ضررها الناس، هذا إذا كان لديه مقدرة على الصبر، وإن كان لا يستطيع الصبر على الأذى فعليه أن يكره المنكر بقلبه، ويجوز له الكف عن الأمر والنهي، ويدخل عندئذ في مثل قوله: ﴿**لا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها**﴾[1].

هذا وقد أخبر النبي ﷺ أن المسلمين إذا أهملوا هذه القاعدة، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اختلت الموازين، وحلّ كل شيء في غير محله، يتولى قيادة الناس سفهاؤهم، ويتعاطى الفواحش فيهم وجهاؤهم، وينسب العلم إلى فساقهم، كما روى أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قيل: يارسول الله متى نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم، قلنا: يارسول الله، وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: «الملك في صغاركم، والفاحشة في كباركم، والعلم في رُذالتكم»[2].

وبهذا يعلم فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما يحققه في المجتمع من منع المعتدي، ونصر المظلوم، وتثبيت الحق، وإزهاق الباطل والأمن من عقاب الله تعالى في الدنيا والآخرة. وإن الأمن على الأنفس والأعراض والأموال وسائر الحقوق يشمل كل أفراد المجتمع، فلا يخاف أفراد الأسرة من اعتداء بعضهم على حقوق بعض، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قائم، ولا يخاف الجار من جاره، ولا يخاف المحكوم من الحاكم، ولا الحاكم من المحكوم، لأن المجتمع مع صاحب الحق ضعف أم قوي.

(١) سورة البقرة/٢٨٦، وراجع الجامع لأحكام القرآن (٤٨/٤).

(٢) ابن ماجه، (١٣٣١/٢) قال المحقق: في الزوائد: اسناده صحيح، رجاله ثقات.

وهكذا لا يجد الخارج على أحكام الله وقواعد دينه، ومصالح عباده أفراداً وجماعات من يؤويه وينصره ويجرؤه على خروجه وإنما يجد نفسه شاذاً يحاصره المجتمع من كل الجوانب، حتى يعود إلى صفّه النقي النظيف.

وإن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يفسد الدين والنفوس والأعراض والأموال، ويُمَكِّن للفواحش في الأرض، ويرفع درجة الأراذل الأنذال ويحط من قدر الأعزاء الصالحين، ويجعل الناس في خوف دائم من الاعتداء على تلك الضرورات، ولا غرو، فقد قال الله تعالى مبيّناً ما يترتب على ترك الأمر والنهي وهو الخسران المبين الذي لا ينجو منه إلّا أهل الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين الذين من أهم مظاهر ولائهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: **﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾**[1].

---

(١) سورة: والعصر.

المبحث الثاني:
في البراء

وفيه تمهيد ومطلبان:

التمهيد في معنى البراء وبيان من تجب البراءة منهم

المطلب الأول	:	في مظاهر عداوة الشيطان
المطلب الثاني	:	في مظاهر عداوة الكفار

تمهيد في معنى البراء، وبيان من تجب البراءة منهم

المراد بالبراء أن يبغض أولياء الله أعداءه، ولا يحبوهم ولا يناصروهم على باطلهم، وأن يبغضوا دينهم، ويبيّنوا فساده، وأن لا يحضروا أعيادهم وشعائر دينهم، وأن لا يحبوا عاداتهم لصدورها منهم، ولا يتحاكموا إليهم ولا يرضوا بقوانينهم، ولا يتلقّوا التوجيه السلوكي أو الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي أو غيرها من العلوم التي تسمى بالعلوم الإنسانية التي يراد بها تنظيم حياة البشر وعلاقتهم بربهم، وبالكون من حولهم، وعلاقة بعضهم ببعض وكذلك تصورهم للخالق والكون والحياة والمبدأ والمصير، كل ذلك وما في معناه يدخل في معنى البراء من أعداء الله.

أما الذين تجب البراءة منهم، ويجب عداؤهم فهم الشيطان وأتباعه من أهل الكفر، من اليهود والنصارى ـ وهم الذين يطلق عليهم أهل الكتاب ـ والمشركون من عبدة الأوثان، والشيوعيون وغيرهم ممن حاد عن صراط الله المستقيم، فحارب الله ورسوله والمؤمنين.

المطلب الأول:
مظاهر عداوة الشيطان

وفيه خمسة فروع:

الفرع الأول : العلم بمكره وإصراره على إضلال البشر
الفرع الثاني : معرفة ما يدعو إليه ليحذر
الفرع الثالث : بغضه وعدم طاعته
الفرع الرابع : الاستعاذة بالله منه ومن وسوسته
الفرع الخامس: التوبة إلى الله من طاعته

الفرع الأول:
العلم بمكره وإصراره على إضلال البشر

إن الذي يزعم أنه عدو لشخص ما بدون معرفة سبب العداوة، قد لا يوثق بزعمه، لأن ذلك العدو قد يلبس عليه ويظهر له ما يدعوه إلى مودته ومحبته بدلاً من عداوته، ولهذا كشف الله سبحانه للناس عوار عدوهم إبليس وبيّن خبثه ومكره بهم وإصراره على إضلالهم وإرادته بهم السوء، وأنه يسلك كل سبيل لإبعادهم عن ربهم وعبادته وشكره، وتمثلت عداوته في تكبّره على أبي البشر آدم عليه السلام وتمرده على الله الذي أمره أن يسجد لآدم ويحترمه، ثم في قسمه على إضلال نبيّه عن صراطه المستقيم بكل وسيلة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**قال ما منعك ألّا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين، قال أنظرني إلى يوم يبعثون، قال إنك من المنظرين، قال فبما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين، قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأنّ جهنم منكم أجمعين**﴾[1].

---

(١) الأعراف/١٢ - ١٨.

الفرع الثاني:
معرفة ما يدعو إليه، ليحذر منه

أهم ما يدعو إليه الشيطان هو الكفر بالله، وعبادة الشيطان من دونه ومقارفة الفحشاء، والتحريش بين الناس لإلقاء العداوة والبغضاء بينهم.

قال تعالى: **﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر، فلمّا كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾**(1).

والكفر بالله عبادة للشيطان، ولذا نهى الله عن عبادته وحذّر من إضلاله فقال تعالى: **﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم ألّا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأنِ اعبدوني هذا صراط مستقيم، ولقد أضلّ منكم جِبِلّاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون﴾**(2).

وقال تعالى: **﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً، والله واسع عليم﴾**(3).

وقال تعالى: **﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾**(4).

وقال تعالى: **﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن أن الشيطان ينزع بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾**(5).

الفرع الثالث:
بغضه وعدم طاعته

إن الذي يعلم أن عدوه يدبّر له المكايد ويصرّ على إخراجه من الظلمات

---

(1) الحشر/16.
(2) يس/60 - 62.
(3) سورة البقرة/268.
(4) سورة المائدة/91، 92.
(5) الاسراء/53.

إلى النور لجدير بأن يبغض هذا العدو ويبتعد عن طاعته وكل فعل أو قول أو اعتقاد يرضيه، وإذا لم يفعل ذلك فإنه يعين عدوه على إيقاعه في مصيدته وتلك بلادة يأباها المسلم الذي حذّره الله منه غاية التحذير وأمره أن يتخذه عدواً كما أنه قد نصّب نفسه عدواً له، قال تعالى: **﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾**[1].

وقال تعالى: **﴿ولا تتّبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾**[2]. وقال عزّ وجلّ: **﴿ومن يتخذ الشيطان وليًّا من دون الله فقد خسر خسرَاناً مبيناً يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غروراً، أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً﴾**[3].

وقال تعالى: **﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألاَ إن حزبَ الشيطان هم الخاسرون﴾**[4].

الفرع الرابع:

الاستعاذة بالله منه ومن وسوسته

وقد أمر الله سبحانه وتعالى عبده المؤمن أن يلجأ إلى الله تعالى ويعتصم به منَ عدوه ويستعيذ به من إغوائه، والعبد عندما يلجأ إلى ربه إنما يلجأ إلى وليّه، ومن تولاّه الله وقاه شر الشيطان ووفقه لصراطه المستقيم والبعد عن سبل الشيطان، قال تعالى: **﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾**[5].

وقال تعالى: **﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم، إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾**[6].

---

(١) سورة فاطر/٦.
(٢) سورة البقرة/١٦٨.
(٣) سورة النساء/١١٩ - ١٢١.
(٤) المجادلة/١٩.
(٥) سورة النحل/٩٨ - ١٠٠.
(٦) سورة الأعراف/٢٠٠، ٢٠١.

وقال تعالى: ﴿قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجِنَّة والناس﴾[1].

الفرع الخامس:
توبة من أطاعه إلى الله وعدم رجوعه إلى المعصية

إن الإنسان بشر لس معصوماً، وقد يغويه الشيطان فيستجيب له، فإذا حصل منه ذلك، فإن عليه أن يرجع إلى ربه فيتوب توبة نصوحاً. وتوبة العبد إلى الله تعالى تعدّ نجاحاً وانتصاراً على إبليس لعنه الله ومراغمة له، لأنه هو عصى الله تعالى فلم يتب، بل استمر على معصية الله، فنال بذلك طرده وطول عمره لتتراكم عليه معاصيه إلى يوم القيامة، ولكن آدم ـ وكذا من آمن من ذريته ـ عصى ربّه ورجع إليه فتاب وتاب الله عليه، كما قال تعالى: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدوّ مبين، قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وعصى آدم ربه فغوى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾[4]. وقال سبحانه: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلاّ الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾[5].

---

(١) الناس.
(٢) سورة البقرة/٣٥ ـ ٣٧.
(٣) سورة الأعراف/٢٢، ٢٣.
(٤) سورة طه/١٢١، ١٢٢.
(٥) سورة آل عمران/١٣٥، ١٣٦.

وهـذه من الآيات التي تـذكر صفـات المؤمنين على سبيل المـدح والحضّ على الاتصاف بها، وقد تبع آدم ذريته الصالحون في التوبـة إلى الله فما يقـع المؤمن بالله واليوم الآخر في معصيته إلاّ ندم وأقلع عنها وعزم على عدم العود إليهـا، وأتبع السيئـة الحسنة وفي تـاريخ أصحـاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان ما يظهـر مراغمتهم لعـدوهم إبليس لعنه الله، كمـا في قصة كعب بن مالك وزميليه الذين تخلفـوا عن غزوة تبـوك[1] وكما في قصـة ماعـز والغامـدية وغيرهما[2].

هـذا، وليعلم أن مظاهـر عداوة الشيـطان والبراءة منـه ليست محصـورة في هذه الأمور، وإنما هذه أمثلـة للمظهر العام الذي يشملها وغيرها وهو: معرفة عداوته لابن آدم، وإصراره على إضلاله، والترصد له دائماً، ومعرفة ما يـدعو إليه لإخراج الناس من عبادة الله إلى عبادته هـو، والحذر منـه والاستعانـة بالله عليه والبعد عن اتباعه ووسـوسته والتـوبة إلى الله ممـا يقع فيـه الإنسان بسبب إغوائه.

والمجتمـع الذي ينتصـر أفراده على أكبـر عدو لهم وهـو الشيطان مجتمـع جـدير بـالسعادة والأمن والمحبـة والإخاء بـدلاً من الشقاء والخـوف والعـدواة والاعتداء، وجدير أن ينتصر على بقية الأعداء.

المطلب الثاني:
مظاهر عداوة الكفار

وفيه تمهيد وثمانية فروع:

الفرع الأول : عدم طاعتهم واتباعهم

الفرع الثاني : التوكل على الله وعدم الخوف منهم

الفرع الثالث : البعد عن مساكنتهم

الفرع الرابع : عدم الركون إليهم أو الاطمئنان إلى مشورتهم

---

(١) مراجع صحيح البخاري (٥/ ١٣٠) ومسلم (٤/ ٢١٢٠).

(٢) راجع البخاري (٨/ ٢١ ـ ٢٣) ومسلم (٣/ ١٣١٨ ـ ١٣٢٤).

الفرع الخامس : كتم أسرار المسلمين عنهم
الفرع السادس : إعلان البراءة منهم
الفرع السابع : عدم التشبه بهم فيما هو من خصائص دينهم
الفرع الثامن : جهادهم في سبيل الله

تمهيد في تحذير الله الشديد لعباده المؤمنين عن موالاة أعدائه الكفار

إن الله سبحانه وتعالى كما أمر عباده المؤمنين بموالاته وموالاة رسوله ﷺ، وموالاة بعضهم بعضاً، فإنه تعالى حذّرهم ونهاهم عن موالاة أعدائه وأعداء رسوله وأعدائهم من جميع طوائف الكفر، كما قال تعالى: ﴿**لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلاّ أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير**﴾[1].

فقد نهى سبحانه وتعالى في هذه الآية عن اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء من دون المؤمنين، والنهي يقتضي التحريم، ثم اتبع ذلك بنفي ولاية من تولى الكافرين لله تعالى، لأن الذي يتولى عدو الله هو عدو لله ولا يمكن أن يكون ولياً له، ثم استثنى سبحانه حالة الضرورة التي قد يضطر المؤمن إلى إظهار موالاة الكافر بلسانه، وقلبه مطمئن بالإيمان وذلك حينما يكون تحت قهرهم ولا مخلص له منهم بغير ذلك، كما في قصة عمار، رضي الله عنه الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿**إلاّ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾[2].

وبيّن سبحانه وتعالى في موضع آخر ـ بعد أن نهى المؤمنين من اتخاذ الكافرين أولياء ـ إن من تولاهم فهو منهم، والظاهر أن المراد كفرهم مثلهم إذا تولوهم تولياً فيه حب لهم ولدينهم. وفيه مناصرة لهم على المؤمنين، قال تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾[4].

وقال تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور**﴾[5].

---

(١) سورة آل عمران/٢٨. (٢) سورة النحل/١٠٦.
(٣) سورة المائدة/٥١. (٤) سورة النساء/١٤٤. (٥) آخر سورة الممتحنة.

وقال تعالى: ﴿**يـاأيها الـذين آمنوا لا تتخـذوا الذين اتخـذوا دينكم هزواً ولعبـاً من الذين أوتـوا الكتـاب من قبلكم والكفـار أوليـاء واتقـوا الله إن كنتم مؤمنين وإذا ناديتم إلى الصـلاة اتخـذوهـا هـزواً ولعبـاً ذلـك بـأنهم قـوم لا يعقلون**﴾[1].

وقال تعالى: ﴿**يـاأيها الـذين آمنوا لا تتخـذوا آباءكم وإخـوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون**﴾[2].

في الآيـات السابقـة نهي شديـد للمؤمنين من ربهم عن تـولي الكـافـرين ومحبتهم والكون معهم، وأن الإيمان بالله وموالاته وموالاة رسوله والمؤمنين لا تجتمـع في قلب مؤمن هي وموالاة الكـافرين، وأن الكـافـرين بعضهـم أوليـاء بعض، ومن والاهـم من المؤمنين صار منهـم.

فـلا يتحقق وجود مجتمـع إسلامي إلّا بمـوالاة بعض أفـراده لبعض مـوالاة يرضاهـا الله تعالى، ويعـادون غيرهـم من مجتمعـات الكفر معـاداة تحقق لهم القيـام بما أوجب الله عليهم من الـدعوة والجهـاد والتناصـر، كما في الفـروع الآتية:

الفرع الأول:
عدم طاعة الكفار واتباعهم

المظهر الأول: عدم طاعـة أعداء الله الكفـار واتباعهم، ووجـوب اتباع مـا أنزل الله تعالى، كمـا قال تعـالى: ﴿**ولا تأكلوا ممّـا لـم يذكـر اسم الله عليه، وإنـه لفسق وإن الشياطين ليـوحون إلى أوليـائهم ليجادلـوكم وإن أطعتمـوهم إنكم لمشركون**﴾[3].

فطاعة المشـركين في تشريـع ما يخـالف شرع الله، أو فيمـا يوافقـه، لكن الطاعة له، لا شرع الله، هي شرك بالله تعالى.

قـال الفخر الـرازي، رحمه الله: «وإنمـا سمي مشركـاً، لأنه أثبت حـاكماً سوى الله تعالى، وهذا هو الشرك»[4].

---

(١) سورة المائدة/٥٧، ٥٨. (٢) سورة التوبة/٢٣. (٣) سورة الأنعام/١٢١.

(٤) التفسير الكبير (١٣/١٧٠).

وقال القرطبي، رحمه الله ـ مبيناً سبب نزول الآية ـ: «روى أبو داود، قال: جاءت اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: تأكل مما قتلنا، ولا تأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: **﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾** إلى آخر الآية[1]. وروى النسائي عن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾** قال: خاصمهم المشركون فقالوا: ما ذبح الله فلا تأكلوه، وما ذبحتم أنتم أكلتموه، فقال الله سبحانه، لهم: **﴿ولا تأكلوا مما لم يذكروا اسم الله عليه﴾**[2].

وإذا كانت طاعة الكفار في أكل الميتة التي حرمها الله شركاً فكيف بمن أطاعهم في تحليل كل ما أحلّوه أو تحريم كل ما حرّموه في قوانينهم، بل كيف بطاعتهم في الصدّ عن دين الله ومحاربته؟!

الفرع الثاني:

التوكل على الله وعدم الخوف منهم

إن المسلم يجب أن يعتمد على ربه ويتوكل عليه ولا يخاف من غيره خوفاً يصده عن تنفيذ أوامر ربه، ويجعله يعتمد على المخلوقين الذين لا قدرة لهم على نفعه إلاّ بما كتب الله له، ولا على ضرّه إلاّ بما كتب الله عليه، وقد أمر الله تعالى بالتوكل عليه ونهى عن خوف غيره، كما قال تعالى: **﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾**[3]. والآيات في التوكل كثيرة جداً وكذا الأحاديث.

وقال تعالى: **﴿إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين﴾**[4].

أي إن الشيطان يخوّفكم أيها المؤمنون أولياءه، لتطيعوه بذلك التخويف، فإذا خوّفكم إياهم فلا تخافوهم، وخافوني أنا فإن أولئك لا يضرونكم، وخوفي وحدي هو مقتضى إيمانكم إن كان إيماناً صادقاً.

---

(١) أبو داود (٣/٢٤٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/٧٤) والأثر في سنن أبي داود (٣/٢٤٥).

(٣) سورة المائدة/٢٣.

(٤) سورة آل عمران/١٧٥.

الفرع الثالث:
البعد عن مساكنتهم لغير ضرورة

ويجب على المسلمين أن يكونوا في أرض الإسلام بين مجتمعهم الإسلامي الذي يطبق أحكام الله ويقيم شعائر دينه، ولا يجوز لهم البقاء في أرض الكفر، بل يجب أن يهاجروا منها إلى ديار الإسلام، لأن البقاء مع أعداء الله مع القدرة على الانضمام إلى أوليائه دليل عدم الولاء الصادق لله ولرسوله وللمؤمنين، والمؤمن ببقائه في مجتمع الكفر يعرض نفسه ودينه وعرضه وأولاده للخطر، ويذل بذلك نفسه والله تعالى يريد له الكرامة والعزة والأمن، قال تعالى: ﴿**والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلّا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير**﴾[1].

فلا ولاية يستحق بها المؤمنون المقيمون بين الكفار النصر من المؤمنين الذين يسكنون في ديار الإسلام، إلّا إذا طلبوا نصرهم على قوم من الكفار لا توجد بينهم وبين المؤمنين عهود ومواثيق، فإذا كان بين المؤمنين والكفار مواثيق وعهود، فإن المؤمنين لا ينقضون تلك العهود من أجل استنصار المسلمين المقيمين بين أظهر المشركين باختيارهم.

ولكن ينبغي أن يعلم أن بعض المسلمين في العصور المتأخرة قد اضطروا أن يفرّوا بدينهم من بعض بلدانهم إلى بعض بلدان الكفر، لما وجدوا في بلدانهم من المضايقات والفتن والقتل والتشريد وانتهاك الأعراض وغصب الأموال، بسبب تمسكهم بدينهم ودعوتهم اليه في بلدانهم، ولم يجدوا لهم مأوى في كثير من بلدان المسلمين فاضطروا للانتقال إلى ديار الكفر ووجدوا فيها من الحرية في إقامة شعائر دينهم والدعوة إليه ما لم يجدوه في بلدانهم، ولكن المجتمع الذي يعيشون فيه في بلاد الكفر مجتمع شبيه ببحر من المستنقعات المنتنة لا يسلم المسلم من فساده هو وأهله وأولاده، ولا شك أن الفرض عليهم الهجرة إلى بلاد المسلمين فراراً من تأثير مجتمع الكفر عليهم

---

(١) سورة الأنفال/٧٢.

وعلى أولادهم، فإذا لم يجدوا من يأذن لهم بالهجرة من ولاة المسلمين فهم مضطرون للبقاء في ديار الكفر وعليهم أن يجتهدوا في التمسك بدينهم ووقاية أسرهم من منكرات ذلك المجتمع والله المستعان.

الفرع الرابع:

عدم الركون إليهم والاطمئنان إلى مشورتهم

لا يجوز للمسلمين الاطمئنان والركون إلى أعدائهم الكفار، ومن باب أولى لا يجوز اتخاذهم بطانة خاصة يفضى إليهم بأسرار المسلمين وشئونهم الخطيرة، لأنهم لا يريدون للمسلمين إلّا الشرّ وإنزال الضرر، ولا يدبرون لهم إلا المكايد، ولا يحيكون لهم إلّا المؤامرات، قال تعالى: **﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾**[1].

والركون إليهم هو الرضا عنهم وعن أعمالهم، ومداهنتهم والأخذ بآرائهم وعدم هجرهم[2]. وقال تعالى: **﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودُّوا ما عنتّم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. ها أنتم أولاء تحبّونهم ولا يحبّونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾**[3].

قال القرطبي، رحمه الله: «وبطانة الرجل خاصته الذين يستبطنون أمره» إلى أن قال: «نهى الله عزّ وجلّ المؤمنين بهذه الآية أن يتخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهواء دُخلاء ووُلجاء يفاوضونهم في الآراء ويسندون إليهم أمورهم...» ثم قال: «وقيل لعمر رضي الله عنه: إن ههنا رجلاً من نصارى الحيرة، لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم، أفلا يكتب عنك؟ قال: لا آخذ بطانة من دون المؤمنين، فلا يجوز استكتاب أهل الذمة... قلت: وقد انقلبت الأحوال في هذا الزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء، وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء...»[4].

---

(١) سورة هود/١١٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠٨/٠).

(٣) سورة آل عمران/١١٨، ١١٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٧٨/٤ - ١٧٩).

قلت: هذا في زمان الإمان القرطبي، رحمه الله في القرن السابع الهجري أما الآن، وقد بدأ القرن الخامس عشر الهجري[1] فإن أحوال المسلمين قد تردت إلى الحضيض، فالكفار من أعداء الله ليسوا كتبة فقط، وإنما هم مستشارون وبطانة وخاصة لأغلب ولاة أمور المسلمين في أخطر الأمور، من التعليم إلى النظم العسكرية وخططها، بل إنهم هم الذين يوجهون سياسات أغلب حكام الشعوب الإسلامية، وعندهم من أسرار تلك الشعوب ما لا يطمع في معرفته عباقرة الشعوب الإسلامية ومفكروها.

ولهذا أصبحت تلك الشعوب وحكامها لا يذوقون طعم الأمن في بلدانهم - إلّا من شاء الله ـ لأن عوراتهم مكشوفة لأعدائهم، ولأنهم لا يجرؤون على اتخاذ قرارات تعود إلى شعوبهم بمصالح سالمة من المفاسد التي هي مصالح لأعدائهم.

ولقد أصيبت البلدان الإسلامية بأحزاب من أبنائها تخلّوا عن الدين، بل حاربوه وقدموا مصالح أعداء الله في بلدانهم على مصالح مجتمعهم وسفكوا من أجل ذلك الدماء بالثورات والانقلابات والاغتيالات وأصبح أمناء المسلمين ودهاتهم ومفكروهم في المعتقلات والسجون والتشرد إن سَلِم أحد منهم من القتل، فدمرت مصالح الشعوب الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وما بقي شعب يتمتع بشيء من الأمن إلّا بمقدار ما يطبق فيه من الإسلام، ومن أهم أسباب هذه المحن عدم ولاء المؤمنين الصادق من بعضهم لبعض، وموالاتهم لأعداء الله الكفار.

هذا بالإضافة إلى أمور أخرى ملك بها أعداء الإسلام زمام أكثر حكام المسلمين، يصعب انفكاكهم منها، لضعف إيمانهم أو فقده، وقلة عزائمهم، وانغماس أغلبهم في الشهوات والملذات التي أنستهم مصالح أمتهم، وفساد أهوائهم وميولهم فلا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

---

(١) ١٤٠٤ هـ.

الفرع الخامس:
كتم أسرار المسلمين عنهم

لا يجوز للمسلمين أن يفضوا إلى أعدائهم بما يفيدهم من ضعف المسلمين أو قوتهم، لما في ذلك من الفائدة التي تعود إليهم من معرفة أحوال المسلمين، وما يلحق المسلمين من الضرر، وقد نهى الله تعالى عن الإسرار اليهم، فقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل﴾**[1].

وقد نزلت هذه الآية وما يتعلق بها في السورة في قصة حاطب بن أبي بلتعة، رضي الله عنه، المهاجري، البدري، الذي كتب لقريش يخبرهم بعزم الرسول ﷺ على غزو مكة، متقرباً بذلك إليهم، ليحموا قرابته عندهم لأنه لم يكن في الأصل من قريش، وقد اعتذر إلى الرسول ﷺ بذلك، ونفى أن يكون فعل ذلك للإضرار بالمسلمين أو لدخل في دينه، واتهمه عمر رضي الله عنه بالنفاق، واستأذن رسول الله ﷺ في قتله، فقال له الرسول ﷺ: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. . .»[2].

وليس المراد هنا الكلام عن حكم الجاسوس الذي يفضي بأسرار المسلمين إلى أعدائهم ـ فهذا يحتاج إلى بحث مستقل ـ وإنما المقصود أن من مظاهر العداء للكافرين عدم التجسس لهم على المؤمنين، وأنه لا أمن للمجتمع الإسلامي إذا وجد من أفراده من يفعل ذلك.

الفرع السادس:
إعلان البراءة من أعداء الله

ويجب على المسلمين ـ حتى يحققوا البراءة من أعدائهم ـ أن يعلنوا تلك البراءة منهم ومن عبادتهم وعاداتهم التي تخالف دين الله، حتى يعودوا إلى

---

(١) سورة الممتحنة/١. (٢) البخاري (٦/٦٠) ومسلم (٤/١٩٤١).

الله تعالى بالإيمان به، لأن في إعلان البراءة منهم قطعاً لطمعهم في مودة المسلمين لهم ومداهنتهم، كما أن في ذلك تربية وتوجيهاً لعامة المسلمين، ليسلكوا ذلك المسلك، ولا يغتروا بأعدائهم ويركنوا إليهم ولو كانوا أقرباءهم، كما قال تعالى: **﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه، إذ قالوا لقومهم إنّا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾**[1].

وقال تعالى: **﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضي الله عنهم ورضوا عنه، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾**[2].

فالمؤمنون حقاً أهل الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين هم حزب الله الذي لا يسعه إلّا البراءة والعداوة لأعداء الله الذين هم حزب الشيطان، ولو كانوا من أقرب المقربين أو الأقرباء إليهم، وإلّا فليسوا بمؤمنين بالله واليوم الآخر: **﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾** ولا يكفي ذلك في القلوب، بل لا بدّ من إعلان تلك العداوة بالقول وتصديقها بالعمل.

الفرع السابع:
عدم التشبه بهم فيما هو من خصائص دينهم

ويجب على المسلمين أن يخالفوا أعداء الله الكافرين وعدم التشبه بهم في كل ما هو من خصائص دينهم وأعيادهم التي يعظمونها، وعاداتهم التي يجعلونها من شعائرهم، ونحو ذلك مما علم أنه صدر منهم من الأمور التي لا تدخل تحت الإباحة في الدين الإسلامي.

وقد ورد النهي عن التشبه بهم مطلقاً، كما ورد عن التشبه بهم في بعض أمور العبادات.

---

(١) سورة الممتحنة/٤. (٢) المجادلة/٢٢.

وإن الصراط المستقيم الذي أمرنا الله تعالى أن ندعوه ليهدينا سلوكه وأن يجنّبنا سبل من حاد عنه من أعدائه ليقتضي وجوب مخالفة أهل الكفر والبعد عن مشابهتهم، قال تعالى: ﴿**إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضّالين**﴾[1].

والمغضوب عليهم هم الذين علموا الحق فتركوه واتبعوا الباطل، كاليهود، وكل من شابههم، والضالون هم الذين عبدوا الله على جهلٍ وضلالٍ ولم يبحثوا عن الهدى الذي جاء به الرسول ﷺ، كالنصارى ومن شابههم.

ولقد عنى شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله ببيان ما تجب فيه مخالفة أعداء الله من اليهود والنصارى والمشركين والمجوس وغيرهم، ووضح ما تكون به مشابهتهم فيه كفراً، وما تكون داخلة في الكبائر أو الذنوب التي دون ذلك، وما يكون مكروهاً، وما لاتكون فيه مشابهة مذمومة من الأمور العادية، كالبيع والشراء، ونحو ذلك، بيّن ذلك في كتاب كبير عظيم الفائدة، ينبغي الاهتمام به لمن أراد اجتناب الوقوع في مشابهة أعداء الله فيما يسخط الله، وما لا يدخل في ذلك، حتى لا يحكم على شيء أن فيه مشابهة مذمومة على غير بصيرة من شرع الله.

ومما قاله في ذلك: «مشابهتهم فيما ليس من شرعنا قسمان: أحدهما: مع العلم بأن هذا العمل هو من خصائص دينهم، فهذا العمل الذي هو من خصائص دينهم، إما أن يفعل لمجرد موافقتهم، وهو قليل، وإمّا لشهوة تتعلق بذلك العمل، وإمّا لشبهة فيه تخيَّل أنه نافع في الدنيا وفي الآخرة، وكل هذا لا شك في تحريمه، لكن يبلغ التحريم في بعضه إلى أن يكون من الكبائر، وقد يصير كفراً بحسب الأدلّة الشرعية، وإمّا عمل لم يعلم الفاعل أنه من عملهم، فهو نوعان: أحدهما: ما كان في الأصل مأخوذاً عنهم، إمّا على الوجه الذي يفعلونه وإمّا مع نوع تغيير، في الزمان أو المكان أو الفعل، ونحو ذلك، فهو غالباً ما يبتلى به العامة في الخمس الحقير والميلاد، ونحو ذلك، فإنهم قد نشأوا على اعتياد ذلك، وتلقّاه الأبناء عن الآباء، وأكثرهم لا يعلمون

---

(١) سورة الفاتحة/٦، ٧.

مبدأ ذلك، فهذا يُعَرّف صاحبه حكمه، فإن لم ينته وإلّا صار من القسم الأول.

النوع الثاني: ما ليس في الأصل مأخوذاً عنهم، لكنهم يفعلونه أيضاً، فهذا ليس فيه محذور المشابهة، ولكن قد تفوت فيه منفعة المخالفة، فتوقف كراهة ذلك وتحريمه على دليل شرعي وراء كونه من مشابهتهم، إذ ليس كوننا تشبّهنا بهم بأولى من كونهم تشبهوا بنا، فأما استحباب تركه لمصلحة المُخالفة، إذا لم يكن في تركه ضرر، فظاهر لما تقدم من المخالفة، وهذا قد توجب الشريعة مخالفتهم فيه، وقد توجب عليهم مخالفتنا، كما في الزي ونحوه، وقد يقتصر على الاستحباب، كما في صبغ اللحية والصلاة في النعلين، والسجود، وقد تبلغ إلى الكراهة، كما في تأخير المغرب والفطور، بخلاف مشابهتهم فيما كان مأخوذاً عنهم فإن الأصل فيه التحريم، كما قدمناه...»[1].

قلت: إن الشيء المباح في الأصل، كاللباس الذي يلبسه الكفار بصفة عامة، مما هو عادة عندهم، ولم يقصد به التعبد، إذا لبسه المسلم حباً لمظهرهم ورغبة في محاكاتهم يدخل في المشابهة المذمومة، لأن حب محاكاتهم في المظهر قد يكون ذريعة لحب القوم وبعض أعمالهم الأخرى الخاصة بهم، فلا يليق بالمسلم أن يتعاطى ذلك على هذه الحال، أما إذا لبس ذلك ونحوه لا حباً في مشابهتهم وحب مظاهرهم وعاداتهم فلا شيء فيه إن شاء الله، ما لم يكن بصفة منهى عنها كاللباس الذي يصف العورة أو لا يسترها.

وإنما كانت مخالفتهم والبعد عن مشابهتهم من مظاهر البراء منهم، لما في المخالفة وعدم التشبه من البعد عنهم والميل اليهم، إذ قد يكون ذلك سبباً في معاونتهم على تنفيذ مآربهم من الكيد للمسلمين والإضرار بهم، والمخالفة وعدم التشبه من أسباب كرههم وعدم الاستجابة لخططهم ومكرهم بالمسلمين وفي ذلك تأكيد لأمن المسلمين من غدر بعضهم ببعض بالتعاون مع عدوهم.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم (ص ٢٢٢ - ٢٢٣).

فالمقصود من ذلك كله المبالغة في عداوتهم ومقاطعتهم وعدم الركون إليهم، ولما كانت المشابهة في المظهر قد تكون ذريعة إلى المشابهة في المخبر، والمشابهة في المخبر تؤدي ولا بد إلى التعاون معهم على الكيد للإسلام والمسلمين، وهذا ما يعانيه المسلمون اليوم من كثير من أبنائهم الذين فسقوا عن أمر الله. لما كان الأمر كذلك وحب الحذر الشديد من المشابهة.

الفرع الثامن:
جهاد أعداء الله في سبيل الله

ويجب على المسلمين ـ حتى يحققوا البراءة من أعداء الله أن يجاهدوا الكفار حتى يدخلوا في دين الله أو يعطوا الجزية وهم صاغرون.

وينقسم الجهاد إلى قسمين:

القسم الأول: جهادهم بالدعوة إلى الله تعالى، للدخول في دينه واتباع رسوله ﷺ، وهذا يكون بتبليغهم دين الله ببيان محاسنه وما يترتب على الدخول فيه من خير عاجل وآجل، وأنه لا سبيل إلى السعادة في الدنيا والآخرة إلّا به وأنه لا دين في الأرض يرضاه الله إلّا هذا الدين، ويتلى عليهم كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ حتى تقوم عليهم الحجة، وهذا القسم هو الأصل الذي يجب البدء به، وهو وظيفة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام من لدن نوح إلى محمد عليهما الصلاة والسلام.

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالدعوة إليه، فقال تعالى: **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾**[1].

وأمره تعالى أن يعلن للناس أن دعوته إليه على علم وبصيرة هي سبيله وسبيل من اتبعه إلى يوم الدين، فقال تعالى: **﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾**[2].

وأخبر سبحانه وتعالى أن هذا الدين الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، هو

---

(١) سورة النحل/١٢٥.   (٢) يوسف/١٠٨.

الدين الذي شرعه لجميع الرسل الذين سبقوه بالدعوة إليه وجمع الناس حوله، وأمره تعالى أن يدعو إليه ويستقيم عليه ولا يتبع أهواء الناس المخالفة له، فقال عز وجل: **﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب. وما تفرقوا إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربّك إلى أجل مسمّى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب، فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتّبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأُمرت لأعدل بينكم الله ربّنا وربّكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾**[1].

وقال تعالى: **﴿ياأيها المدثر ثم فأنذر وربك فكبر﴾**[2].

وقال تعالى: **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾**[3] وقال تعالى: **﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾**[4].

وقام ﷺ بالدعوة إلى الله وصبر على الأذى في سبيل الله، وربىّ أصحابه على ذلك، فدعوا معه إلى الله وصبروا على الأذى في سبيل الله، حتى أذن الله لهم بالهجرة إلى المدينة التي هيأ الله لهم فيها من ينصرهم، وهو الأوس والخزرج الذين سماهم الله الأنصار، واستمر رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله هو وأصحابه، حتى قويت شوكتهم، واكتمل إعدادهم للجهاد في سبيل الله، واستغرقت فترة هذه الدعوة وما تبعها من الإعداد لحمل السيف ومقارعة الأعداء الفترة المكية، وهي ثلاثة عشر عاماً وما يقارب السنتين في المدينة وهذا يدل على أنه لا بدّ من التحمل والصبر الطويل في الدعوة إلى الله، حتى يتمكن الإيمان من النفوس تمكّناً يجعل أهله لا يبالون غير رضا الله سبحانه وتعالى[5].

القسم الثاني: جهاد أعداء الله بالقتال إذا عاندوا واستكبروا ولم يستجيبوا

---

(١) سورة الشورى ١٣ ـ ١٥. (٢) سورة المدثر/١، ٢.

(٣) سورة الشعراء ٢١٤. (٤) سورة الحجر/٩٤.

(٥) راجع في دعوته ﷺ السيرة النبوية فقد فصلت فيها تفصيلاً دقيقاً شاملاً.

للدخول في هذا الدين، فإن الرسول ﷺ لم يبدأ الناس بالقتال، وإنما بدأهم بالدعوة، إما بنفسه مباشرة، وإما ببعث رسله وكتبه، وإما ببعث الدعاة الذين أمّرهم على بعض الأقطار، كاليمن والبحرين وحضرموت، ثم أقام على المعاندين علم الجهاد في سبيل الله.

وكان إذا جهّز جيشاً أو سريّة أمّر عليهم أميراً وأمره بالدعوة إلى الله إلى الدخول في الإسلام، فإن أبى أعداء الله ذلك، دعاهم إلى الخضوع العام لنظام الإسلام وحكمه وأداء الجزية، فإن أبوْا، قوتلوا، وقد تضمن ذلك حديث بريدة، رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سريّة أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغز باسم الله، وفي سبيل الله؛ قاتلوا من كفر بالله، واغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال، (أو خلال) فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام[1] فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، وادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونوا كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم..» الحديث[2].

والجهاد في سبيل الله يمحص المؤمنين ويكون دليلاً على براءتهم من أعداء الله وأعداء رسوله وأعدائهم، فقد يبارز الرجل ابنه أو أباه وأخاه، وغيرهم من أقاربه فتميل عنده كفة رضا الله وولايته على رضا أقاربه وولايتهم، وإذا وصل ولاء المؤمن لله ولرسوله وللمؤمنين، وبراءته من عدوه الكافر إلى

---

(١) قال النووي، رحمه الله: «قوله: ثم ادعهم إلى الاسلام، هكذا هو في جميع نسخ صحيح مسلم: ثم ادعهم، قال القاضي عياض، رضي الله عنه: صواب الرواية: ادعهم باسقاط ثم، وقد جاء باسقاطها على الصواب في كتاب أبي عبيد وفي سنن أبي داود وغيرهما، لأنه تفسير للخصال الثلاث؛ وليست غيرها، وقال المازري: ليست ثم هنا زائدة، بل دخلت لاستفتاح الكلام». شرح النووي على مسلم (١٢/٣٧ - ٣٨).

(٢) مسلم (٣/١٣٥٧).

هـذه الـدرجـة أصبـح المؤمنـون يثق بعضهم في ولاء بعض آمنين من خيـانـة بعضهم بعضاً. إن الذي يعـادي أقرب المقـربين إليـه في سبيـل الله لا بـدّ أن ينصح لإخوانه المؤمنين ويجتهد في مناصرتهم، والـذي لا يصل من المؤمنين إلى هـذه الدرجـة لا يؤتمن على شئون المسلمين، لأنـه فاسق عن صـراطهم راجحـة عنده كفـة أهله وأقاربـه ومصالحـه الخاصـة على ولائه لله ولـرسـولـه وللمؤمنين. ولهـذا قـال تعـالى: ﴿**قـل إن كـان آبـاؤكم وأبنـاؤكم وإخـوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقتـرفتموهـا وتجارة تخشـون كسادهـا ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتـربصوا حتى يـأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾[1].

قال القرطبي رحمه الله: وفي قوله: ﴿**وجهـاد في سبيله**﴾ دليل على فضـل الجهاد وإيثاره على راحة النفس وعلائقها بالأهل والمال...»[2].

وقد تجلى البراء الصادق في أصحاب رسول الله ﷺ عندما قاتـل الابن أباه والأخ أخاه والقريب قريبه في سبيـل الله، وقال تعـالى عنهم: ﴿**لا تجد قـوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يـوادّون من حاد الله ورسـوله، ولـو كانـوا آباءهم أو أبنـاءهم أو إخوانهم أو عشيـرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمـان وأيّـدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجـري من تحتها الأنهـار خالـدين فيها، رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألَا إن حزب الله هم المفلحون**﴾[3].

قال الفخر الرازي، رحمه الله: «والمـراد أن الميل إلى هؤلاء أعـظم أنواع الميل، ومع هذا فيجب أن يكون هذا الميل مغلوباً مطروحاً بسبب الدين، قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في أبي عبيـدة بن الجراح، قتـل أباه عبـد الله بن الجراح يوم أحد، وعمر بن الخطاب، قتل خاله العـاص بن هشام بن المغيـرة يـوم بدر، وأبي بكـر دعا ابنـه يـوم بـدر إلى البـراز، فقـال النبي ﷺ: «متعنـا بنفسـك» ومصعب بن عمير قتـل أخاه عبيـد بن عمير، وعلي بن أبي طـالـب، وعبيده، (وحمزة)[4] قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبـة يوم بدر، أخبر أن هؤلاء

---

(١) سورة التوبة/٢٤. (٢) الجامع لأحكام القرآن (٨/٩٤). (٣) سورة المجادلة/٢٢.

(٤) ما بين القوسين غير موجود في النص ـ هنا ـ وهو موجود في كتب السيرة، راجـع زاد المعاد لابن القيم (٣/١٧٩).

لم يوادوا أقاربهم وعشائرهم غضباً لله ولدينه»[1].

هذه هي قمة البراءة من أعداء الله، وهذا هو الإيمان الصادق الذي لا يلتفت صاحبه يمنة ولا يسرة عن أمر الله ورسوله، وهذا هو حقيقة الأمن الذي ينشده المسلمون الآن، فلم يجدوه لعدم وجود الإيمان الصادق أو قلّته في أغلبهم ولذلك شتتوا ولاءاتهم لغير الله ورسوله والمؤمنين، فأصبح بعضهم يخشى من بعض، بل أصبحوا يخشون أن يتهموا بجبهم للجهاد في سبيل الله ويدافعون عن أنفسهم بأنهم ليسوا أعداءً للنصارى ولا لليهود ولا لغيرهم من دول الكفر، وإنما يعادون فقط بعض المذاهب السياسية، كالصهيونية، ويحاولون أن يثبتوا ذلك فعلاً بتعاملهم مع أولئك الأعداء فتراهم يتقربون إليهم بالتنازل لهم عن كثير من مصالح شعوبهم سواء كانت سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية، بل إنهم ليرضون أعداء الله بضرب الدعاة إلى الله وتعذيبهم وسجنهم وقتلهم للقضاء على كل دعوة إسلامية صادقة تهدد مصالح أعداء الله وتحقق مصالح الشعوب الإسلامية.

وهذا هو الخروج السافر على منهج الله وما تضمنه كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وسيرته المطهرة وسيرة أصحابه الكرام رضي الله عنهم وسلف الأمة وخلفها، من أنه يجب على المسلمين أن يعلنوها صريحة بأنهم أعداء لأعداء الله من اليهود والنصارى والمجوس وجميع المشركين والملحدين كالشيوعيين وغيرهم، فأين هو الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين وأين هو البراء من أعداء الله ورسوله والمؤمنين؟!

لقد أراد الذين خرجوا عن دين الله من أبناء المسلمين، أو من ضعف إيمان منهم أن يأمنوا جانب أعداء الله من اليهود والنصارى وغيرهم من أمم الكفر، فداهنوهم وأعلنوا لهم أنهم ليسوا أعداء لهم ولا لغيرهم فجازاهم الله الذي كان الواجب عليهم أن يتوكلوا عليه ويظهروا ولاءهم له وعداءهم لأعدائه، جازاهم الله بخلاف قصدهم ونقيضه، فأخافهم إذ طلبوا الأمن من غيره، وأذلّهم إذ ظنوا أن تأتيهم العزة من سواه ـ أذلّهم لأعدائه من اليهود والنصارى والشيوعيين، وسيبقى المسلمون كذلك خائفين أذلّاء لأذلّ خلق الله

---

(١) التفسير الكبير (٢٩/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧).

حتى يحققوا ولاءهم لله ولرسوله وللمؤمنين، فيقولوا كما قال الله: **﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذا قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾**[1].

(١) سورة المجادلة ٤، وراجع كتاب الولاء والبراء في الاسلام لمحمد بن سعيد القحطاني، وراجع في موضوع الجهاد في سبيل الله كتابنا: الجهاد في سبيل الله، حقيقته وغايته.

المبحث الثالث:
بث العزة في نفوس المسلمين

وفيه مطلبان:

المطلب الأول	:	بيان معنى العزة المذمومة
المطلب الثاني	:	بيان العزة الممدوحة

تمهيد

العزّة تطلق على القوة والغلبة، ومن أسماء الله تعالى: «العزيز» أي القوي الغالب، والعزة حالة مانعة من أن يغلب[1].

والمقصود هنا الإهابة بالمسلمين أن يسعوا للحصول على عزتهم وكرامتهم، بأن يكونوا أقوياء غالبين من سواهم من أمم الكفر، ولا يكونوا متصفين بالذلة والمهانة، يؤمرون ولا يأمرون، ويُنهَون ولا ينهون، فإن الذي لا يكون عزيزاً، يعش ذليلاً تابعاً لغيره، والواجب على المسلمين أن يكونوا هم قادة العالم، والناس تبع لهم، لأن المسلمين أهل حق، يجب أن يأمروا الناس به ويحملوهم عليه، والناس أهل باطل يجب أن يُنهَوا عنه ويردعوا.

المطلب الأول:
بيان العزة المشروعة، وأهلها، وعاقبتهم

العزة الممدوحة هي العزة المشروعة التي منحها الله عباده المؤمنين لأنها عزة بحق يتصف بها أهل الحق، لنصر الحق وخذلان الباطل، وهي عزة دائمة، لأن مانحها الله تعالى، وهي الشعور بالرفعة والغلبة والقوة على أعداء

---

(١) انظر المفردات للراغب الاصفهاني، ص ٣٣٦، وراجع مادة: «عز» في كتاب اللغة، كلسان العرب وغيره.

الله وآلهتهم وكفرهم، وعدم الخضوع لهم أو الذل أو الاتباع، الشعور بعلوّ الإيمان على الكفر، وبعلوّ منهج الله الذي تضمنه كتابه وسنّة رسوله ﷺ على مناهج الكفر كلها. والشعور بأن أهل هذا الدين هم الأعلون على أهل سائر الأديان شعور المسلم أنه يحب الله وأن الله يحبه، شعوره بالتوكل عليه وعدم الخوف من سواه، وشعوره بأنه قائد للبشر إلى رضا الله تعالى وطاعته، قال تعالى: **﴿ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلّة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم﴾**[1].

يعلمون أن واهب العزة ومانحها إياهم هو الله، وأنه لا يهبها إلّا لأهل طاعته كما قال تعالى: **﴿من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعاً إليه يصعد الكَلِمُ الطيب والعمل الصالح يرفعه، والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور﴾**[2]. **﴿أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً﴾**[3] **﴿قل اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعزّ من تشاء، وتذّل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾**[4] **﴿ولا يحزنك قولهم، إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم﴾**[5] **﴿سبحان ربك رب العزّة عما يصفون﴾**[6].

وبهذا يعلم أن الذي يطلب العزة من غير الله، إنما يطلب شر عاقبة وهي الذلة والمهانة في الدنيا والآخرة، وأن الذي يطلبها من الله العزيز، فهو الذي ينال العزة حقّاً في الدنيا والآخرة.

وقد كان عبد الله بن أبيّ بن سلول يعتز بالمال والرجال والمكانة في قومه وبالموطن الذي ولد فيه بين قومه وعشيرته، وكان رسول الله ﷺ يعتز بالله العزيز، فأذلّ الله ابن أبيّ وأعزّ رسوله ﷺ بالمؤمنين وأموالهم، كما قال الله تعالى: **﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ، ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾**[7].

---

(١) سورة المائدة/٥٤. (٢) سورة فاطر/١٠. (٣) سورة النساء/١٣٩.
(٤) سورة آل عمران/٢٦ (٥) سورة يونس/٦٥. (٦) سورة الصافات/١٨٠.
(٧) سورة المنافقون/٨.

إن المجتمع الذي تغرس في نفسه العزة بالله مجتمع يستحق الخلافة في الأرض وقيادة البشر، ونشر العدل بين الناس، وتثبيت الأمن على الدين والنسل والعرض والمال والعقل بين أفراده من المسلمين وأفراد البشر الذين يستظلون برايته ولو كانوا من غير المسلمين.

ولا يوجد في الأرض مجتمع يعتز بالله ويسعى لرضاه إلّا المجتمع الإسلامي الذي فقدت البشرية كلها بفقده السعادة والأمان. فالمجتمع الإسلامي هو أهل العزة، والله هو مانحه، وعاقبته قيادة البشرية إلى الله في الدنيا والفوز برضاه وثوابه في الآخرة.

المطلب الثاني:
بيان العزة المذمومة، وأهلها، وعاقبتهم

العزة المذمومة هي عزة الكفار والفسقة والظالمين، وهي في الحقيقة كِبر يتقمصه أهل الكفر والظلم ليتسلّطوا على الناس، والتسلط لا يحصل إلّا بنفخ العزة ـ ولو كانا كبرا ـ في أفراد المجتمع المتسلط، الذي يريد العلو في الأرض بغير الحق، ويعارض بها الحق وأهله، ويستعبد بها الناس. قال تعالى: ﴿**بل الذين كفروا في عزة وشقاق**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**وإذا قيل له اتّق الله أخذته العزة بالإثم**﴾[2]. وقال تعالى عن سحرة فرعون: ﴿**فألقوا حبالهم وعصيّهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون**﴾[3]. كان السحرة يطلبون الغلب على موسى بعزة فرعون ولكن الله أعزّ موسى الذي طلب العزة من الله وأذلّ فرعون المتكبر الذي طلب السحرة الغلب بعزته.

وهكذا كان الكفار يطلبون العزة والغلبة من آلهتهم بعبادتهم لها من دون الله، كما قال تعالى عنهم: ﴿**واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزّاً**﴾[4] فلم ينالوا منهم إلاّ الخذلان: ﴿**كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدّاً**﴾[4].

---

(١) سورة ص ٢٠.
(٢) سورة البقرة/٢٠٦.
(٣) سورة الشعراء/٤٤.
(٤) سورة مريم/٨١، ٨٢.

وظن المنافقون في الماضي، ولا زالوا يظنون، أنهم إذا أحبوا الكفار ووادّوهم وتعاونوا معهم ووالوهم من دون المؤمنين أن الكافرين سيمنحونهم العزة والغلبة، وإذا لم يفعلوا ذلك فسيقعون في الذلّة والمهانة، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك وبيّن أنه لا عزة إلّا لمن أعزه الله، وأن غيره لا قدرة له على منح العزة، لأن العزة كلها له. قال تعالى: ﴿**الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة، فإن العزة لله جميعاً**﴾[1].

وظن قوم شعيب عليه السلام أن عزته ومنعته إنما هي بعصبته وقومه، لا بربّه، فأنكر عليهم ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿**قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لَنَراكَ فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز قال يا قوم أَرَهْطِي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً**﴾[2].

فأهل العزة المذمومة هم أعداء الله وهي كبر يستمدونه من آلهتهم سواء كانت أصناماً صمّاء أم طغاة من البشر، وهي عزة وهمية مضمحلّة، لأن الذي يعتز بغير الله ويتقمص الكبر والعلوّ في الأرض، ينشر بهما الظلم والرذيلة ويغرس الرعب في نفوس الناس، عاقبته أن يكون خانعاً ذليلاً، يعيش مستعبداً للمخلوق، فاقداً للعزة والكرامة في الدنيا نائلاً عذاب الله وسخطه في الآخرة. قال تعالى: ﴿**ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب**﴾[3].

وقال تعالى: ﴿**مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون**﴾[4].

---

(١) سورة النساء ١٣٩.
(٢) سورة هود ٩١، ٩٢.
(٣) سورة الحج ٧٣.
(٤) سورة العنكبوت ٤١.

خاتمة: تشتمل على نتائج فصول هذا الكتاب

١ ـ إن تربية الفرد على العلم النافع، وهو الهدى الذي أنزله الله تعالى على رسوله محمد ﷺ، لتسعد به البشرية في الدنيا والآخرة، العلم الذي أنزله خالق الإنسان لهداية الإنسان، وجعله نهجاً له شاملاً لحياته كلها، وبعث به رسولاً هو أفضل الرسل وخاتم الأنبياء، وجعله قدوة حسنة يعلّم الناس وحي ربه، ويهديهم برسالته، ويزكيهم بدينه، إن التربية بهذا العلم كفيلة بجعل الإنسان ذي الفطرة السليمة يستقيم على صراط الله، ينفع الناس ولا يضرّهم.

إن الفرد الذي ينشأ على معرفة الله تعالى الذي خلقه وخلق الكون كله بأنه الاله الحقّ الذي يستحق العبادة والطاعة المطلقة، فيلتزم تلك الطاعة، ويجتنب معصية الله، إن المجتمع الذي ينشيء أفراده هذه التنشئة جدير أن يحقق في أرض الله الخلافة التي أرادها الله منه، فيسعد بها نفسه، ويسعد غيره، وينجو بها من الشقاء وينجو غيره.

إن الذي يعلم أن علم الله محيط بكل شيء محاسب على كل شيء لا تخفى عليه خافية، ولا يعجزه شيء، لكمال علمه وقدرته، الذي يعلم ذلك حق العلم يجتهد أن لا يراه ربّه مرتكباً ما يسخطه من المعاصي والإضرار بالناس، ولا تاركاً أمراً يرضيه من الخير ونفع العباد، وأنه يستطيع أن يحتال على كل المخلوقين ويفلت من أن يطلعوا عليه أو يعاقبوه، ولكنه لا يقدر على الاحتيال على الله والإفلات من علمه وعقابه لأن البشر لا يعلمون ما غاب عنهم ولا يقدرون على كل شيء، لأن علمهم وقدرتهم محدودان، أما الله تعالى فإنه علمه محيط بكل شيء، وهو على كل شيء قدير.

والذي يعلم أنه إذا لم يفضح ويجاز على عمله الشائن في هذه الدنيا سيفضح ويجازى عليه في الآخرة أمام الأشهاد، وأنه لا يفوت من عمله شيء ولو كان مثقال ذرة، لأن كل عمله مكتوب مسجّل عليه وسيأخذ كتابه ـ إن

عمل صالحاً ـ بيمينه، ويأخذه ـ إن عمل سيئاً ـ بشماله، إن الذي يعلم ذلك، ويعلم أن جزاء المحسن الجنة، وجزاء المسيء النار، لا يتأخر عن العمل الصالح ولا يقدم على عمل الشر.

والذي يعلم ما أراد الله منه من الخير الذي يفعله، والشرّ الذي يتركه مفصلاً من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، جدير بالإقدام على كل خير مستطاع وترك كل شر.

الذي يعلم أن هذا الرسول ﷺ، إنما بُعث رحمة للناس، يهديهم ويزكيهم بما جاءه من عند ربه، وأن محبته مقدمة على محبة النفس والأهل والمال والولد، وأن تحقيق محبته إنما تتم بطاعته وطاعة ربه، إن الذي يعلم ذلك لخليق بأن يكون محبّاً للعلم النافع والعمل الصالح، مهتدياً بكتاب الله وسنّة رسوله مبتعداً عمّا خالف ذلك.

والذي يعلم أن الله تعالى قد أرصد له مراقبين لا يغيبان عنه، مكّنهما الله تعالى من معرفة كل ما يفعله أو يقوله، ويكتبانه وهو لا يدري عنهما ولا يراهما، وكل شيء يكتبانه محسوب عليه أو له، إن الذي يعلم ذلك ليستحي أن يفعل منكراً أو يترك معروفاً، فإذا علم أن آخرين من الملائكة يتولون قبض روحه عند موته، إما ملائكة الرحمة إن كان محسناً، وإما ملائكة العذاب إن كان مسيئاً، وأن ملكين يسألانه في قبره عمّا عمل في الدنيا، فإن كان محسناً رأى منهما ما يسرّه، وإن كان مسيئاً رأى ما يسوءه وأن طائفة أخرى منهم يستقبلونه بالبشرى والسرور ليدخل الجنة إن كان محسناً، وطائفة تستقبله بالتأنيب والتقريع إن كان مسيئاً، ليدخل النار، إن الذي يعلم ذلك لقمين أن يكثر من طاعة الله ويبتعد عن معاصيه ويسعى في نفع الناس وترك ما يضرهم.

وإن الذي يعلم أن الله تعالى هو واهب الحياة والرزق اللّذين لا يقدر أحد على نقص شيء منهما أو زيادة شيء فيهما، ليعيش مطمئناً في حياته راضي النفس، سعيداً بما قسم الله له، بعيداً عن منافسة الناس في أرزاقهم وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، أو الاعتداء على شيء من مصالحهم.

وتظهر ثمرة العلم النافع والعمل الصالح في سرعة الاستجابة لأمر الله ورسوله ﷺ في كل نشاط يقوم به الإنسان، بخلاف من لم ينل هذا العلم الربّاني والعمل به، فإن الناس كلهم لو اجتمعوا على إنسان لم يقدروا على جعل الإنسان يستجيب لقوانين البشر إلاّ إذا علم أن منفذ القانون مطلع عليه قادر على عقابه، ومن الذي يقدر أن يكشف كل معصية يعاقب عليها القانون، إن كانت معصية؟ وإذا اطلع أحد فمن الذي عنده القدرة التامة على إمساكه ومجازاته في كل لحظة من لحظات حياته، من يقدر على الكشف الكامل والعقاب غير الخالق؟

وتظهر ثمرة العلم النافع والعمل الصالح في سرعة رجوع العاصي إلى ربه وتوبته من ذنبه عندما تغلبه بشريته، وهو غير معصوم.

وتظهر ثمرة ذلك في اعتراف المذنب بذنبه طمعاً في المغفرة وخوفاً من العقاب، وهو ما يعانيه العالم الآن من صعوبة إثبات الجريمة على المجرم وهو بين ظهرانيهم.

وثمرات العلم النافع يصعب إحصاؤها، ولكنها تحقق في الفرد العالم العامل سعيه الحثيث إلى عمل كل ما يرضي الله ويجتنب كل ما يسخطه، وهذا هو الأمن الذي ينشده العالم.

٢ ـ إن تكوين الأسرة الصالحة، وهي تبدأ باختيار الزوج الصالح المرأة الصالحة، وعلم كل فرد من أفراد الأسرة بما له من حقوق، فلا يطلب أكثر منها، وما عليه من واجبات لغيره فيؤديها: الزوج يؤدي. حقوق المرأة، والمرأة تؤدي حقوق الزوج، والابن يؤدي حقوق الوالدين، والوالدان يقومان بحقوق الأولاد، وكل فرد يقوم بحق الآخر، وكل منهم يعتبر أداء حقوق الآخرين عبادة لله وطاعة له، فإذا قصر أحد منهم في حقوق غيره قوّمه الآخرون من أفراد الأسرة وحملوه على أداء ما لزمه، فإذا لم يقدروا تولى ذلك الحاكم بمقتضى شرع الله، إن الأسرة التي هذا شأنها لجديرة أن تخرج للمجتمع أفراداً صالحين آمنين مؤتمنين، يسهمون في بناء مجتمع فاضل متعاون متراحم، يسوده العدل والحق والخير.

٣ ـ وإن تربية المجتمع على أن يحب بعض أفراده بعضاً في الله سبحانه وتعالى، لا لغرض مادي، من مال أو جاه أو منصب، ويصل بعضهم بعضاً من

أجل الله تعالى، ويقوم كل واحد بحقوق إخوانه التي تحقق الأخوة الإسلامية، من صنع طعام ودعوة إليه، وإجابة دعوة، وإعانة محتاج وضعيف، وإفشاء سلام، وطلاقة وجه، وطيب كلمة، وتواضع، وقبول حق، وعفو وصفح، وسماحة ودفع سيئة بحسنة، وإيثار وبعد عن شح وحسن ظن، ونصر مظلوم، وستر سيئة، وتعليم جاهل ورفق في معاملته وإحسان إلى جار، وحبّ للطاعات وبغض للفواحش، وأداء كل فرد ما يجب عليه أداؤه بدون مماطلة، ونصح كل مسلم لكل مسلم. إن تربية المجتمع على هذه المعاني لخليقة بتحقيق الأخوة الإسلامية التي تجعله مترابطاً متراصًّا متعاوناً آمناً سعيداً.

فإذا أضيف إلى ذلك تربية هذا المجتمع على البعد عن كل ما يوهي أواصر الأخوة الإسلامية ويكدر صفوها، من ظلم وحسد، واحتقار، وسخرية، وغيبة، ونميمة، وهجر وقطيعة، وترك ما يثير الشك والظنون السيئة، أو يؤدي إلى ضرر إلى الآخرين، كالإشارة بالسلاح وإظهاره في مجتمعات الناس غير محفوظ، وكتناجي اثنين دون الثالث، وترك منافسة المسلم أخاه المسلم على حُطام الدنيا، وبخاصة ما شرع فيه من المباحات، كالبيع والشراء والخطبة، وترك الغش والكذب والخيانة ونحو ذلك، إن تربية المجتمع على الابتعاد عن هذه الأمور وغيرها مما يضعف الأخوة الاسلامية لحقيق بنشر الأمن والسلام والسعادة والاطمئنان في المجتمع الذي تحققت فيه كل أسباب المحبة وانتفت عنه كل أسباب البغضاء.

٤ ـ وإن مجتمعاً يتحقق فيه الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، الولاء الذي من أهم مظاهره: حب الله ورسوله والمؤمنين، وتقديم ما يحبه الله ورسوله على ما يحبه غير الله ورسوله، ومن مظاهره تحقيق كل معاني الأخوة الإسلامية ومنع ما يناقضها كما مضى، ومن مظاهره القيام بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليستقيم المجتمع على الجادة ويسلك الصراط المستقيم، إن تحقق هذا الولاء ليجعل المجتمع في غاية من التماسك والترابط والاستقامة والنظام والتعاون على كل ما فيه مصالح ومنافع، فاذا أضيف إليه البراءة من أعداء الله الكافرين، وعلى رأسهم إبليس لعنه الله، فلا يطاع هو وأتباعه، ولا يساكنون، بل يهجرون ويعادون، ولا يعانون على المسلمين بأي وسيلة من الوسائل، بل

يحذر منهم غاية الحذر، ويعلن المجتمع كله براءته منهم وعداوتهم، ولا يتشبه بهم المسلمون في شيء مما هو من خصائص دينهم، أو عاداتهم حبًّا لهما ولهم، ويقوم المسلمون بجهادهم في سبيل الله بالدعوة إلى الله ثم بالقتال إن هم أبوا الدخول في الاسلام أو دفع الجزية وهم صاغرون. إن المجتمع الذي يربّى على الولاء والبراء في الاسلام لجدير بالسعادة والأمن من أن يخدع بعض أفراده أعداؤهم لارتكاب ما يضرّ مجتمعهم، ومن باب أوْلى أمنه من أن يعتدي عليه أعداؤه لتحصنه منهم وتماسك أفراده ضده.

فاذا ما رُبّي هذا المجتمع على الاعتزاز بالله والشهامة والتطلع إلى قيادة البشر إلى الله وإقامة دينه فيهم فقد اكتملت سعادته واستتبّ أمنه.

٥ ـ وبعد: فإن البشرية اليوم تعاني من ويلات الفتن والحروب والغش والخيانة، والظلم والجبروت والطغيان، والجرائم المختلفة، وانتشار الفواحش والمعاصي، وتخلخل الأسر وتفككها واضطراب الحياة البشرية في أنحاء الأرض كلها، وارتفعت أصوات المصلحين والمفكرين من جميع الفئات: الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعسكرية تنادي بوجوب تدارك الحياة البشرية، وتغيير النظرة إلى الإنسان والحياة عما هي عليه، وإيجاد أسس جديدة تنقذ البشرية مما نزل بها من كوارث ومحن، جعلها تعضّ على أصابعها ندماً، وهي تتوقع المزيد من البلاء الذي جعلها في غاية الرعب والخوف والقلق.

وأدلى كل مفكر وكل متصد للأصلاح بدلوه في هذا السبيل في حدود علمه واختصاصه وخبرته، فكتب الكتّاب، وقنّن المقننون، وائتمر السياسيون، وخطط العسكريون، ووضع النظريات الاجتماعيون والاقتصاديون، ولكنهم كلهم باءوا بالفشل الذريع ولم يقتربوا من شاطىء الأمان ليرفعوا عليه الراية تهتف لمن كادوا في أمواج بحار الفتن يغرقون.

ولازالت الويلات تزداد، والكوارث تتفاقم على الأفراد والأسر والمجتمع والدول، وزادت الجرائم وتفاقم أمرها، وأصبح الناس ـ كلهم إلّا من شاء الله ـ لا يأمنون على ضرورات حياتهم.

ولا سبيل والله إلى سعادتهم وأمنهم وعزهم إلّا أن يعودوا إلى هذا الدين

فيتعرفوا على قواعده وأسسه، ومصدريه الأساسيين: كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وما يخدمهما من العلوم الإسلامية والكونية، ويطبقوا شريعة الله التي استنبطها من نصوص الكتاب والسنّة علماء الإسلام، وهي منهج كامل شامل لحياة الفرد والأسرة والمجتمع، لا تدع شاردة ولا واردة يحتاج إليها البشر لتنظيم حياتهم الدينية والدنيوية إلاّ وجدوا فيها ما ينظمها ويبيّن حكمها وفائدتها أو مضرّتها.

وإذا كانت البشرية من غير المسلمين تتخبط في تيه الضلال، ولم تتجه بجملتها - وإن اتجه بعض مفكريها - إلى هذا الدين، لتجعله منهاجاً لحياتها، لينقذها من خسارتها ووبال أمرها الذي ذاقته، لبعدها عنه، وعدم اقتناعها به وأنه المنقذ الوحيد من الهلاك، إذا كانت هذه البشرية لم تتّجه لهذا الدين لإنقاذ نفسها به، فإن المسلمين يتحملون قسطاً كبيراً من الإثم الذي تستحقه، لأن المسلمين أقدر على فهم هذا الدين وقواعده وتشريعاته، وعلى إبراز محاسنه نظرياً وعملياً، حتى يكونوا قدوة حسنة، يرى الناس الإسلام متمثلاً في سلوكهم عندما يطبقونه في حياتهم كلها، وعندئذ يبصر الأعمى، ويعقل المجنون وينطق الأبكم وينجو الغريق، ويتجه الناس كلهم إلى هذا الدين، ليهتدوا بهديه مقتدين بأهله مؤتمّين بهم، كما حصل ذلك في سابق العهد، عندما انتشر عدد قليل من أصحاب رسول الله ﷺ في الأرض، يدعون الناس إلى هذا الدين، فتشرح أعمالهم أقوالهم، فلم يملك الناس أنفسهم من الإسراع إلى الاستجابة له والسير في ركاب أهله.

أما اليوم، فإن علماء المسلمين ومفكريهم، يكتبون للناس عن محاسن الإسلام وجماله وثمار تطبيقه، فيقرأ الناس ما يكتبون وينظرون إلى حياة المسلمين فيجدون العمل غير القول، والتطبيق غير الدعوى، فيظنون أن ذلك من نسج الخيال، ومن المثل العليا التي يحلم بوجودها الفلاسفة الذين يفكرون في مصالح الناس وهم بين جدران بيوتهم الأربعة، لا يعلمون أحوال الناس ولا إمكاناتهم واستعدادهم، وإنما يتخيلون مثلاً عليا فينشرونها بين الناس.

وليس في مقدور كثير من الناس - وإن كان في مقدور بعضهم - أن يتصوروا إمكان تطبيق هذا الدين، لعدم وجود الدليل العملي على ذلك، لأن المسلمين

يدعون أن هذا الدين يجمع الكلمة وهم متفرقون، وأن في هذا الدين عدلاً وهم يظلم بعضهم بعضاً، وأن في هذا الدين أمناً، وهم يقتل بعضهم بعضاً ويثور بعضهم على بعض، وأن في هذا الدين المحبة والأخوة الصادقة، وهم قد امتلأت قلوب بعضهم ببغض بعض، وأن في هذا الدين إيثاراً وهم قد تمكنت من نفوسهم الأثرة والشحّ، وأن في هذا الدين مواساة للفقراء وهم يمنع اغنياؤهم زكاة أموالهم، وأنه لا حكم إلا لله وهم يحكمون قوانين الكفر، وأن في هذا الدين صدقاً ووفاءً وأمانة وهم يكذبون ويغدرون ويخونون، فكيف يصدق الناس بأن هذا الدين هو المنقذ للبشرية من الهلاك وأهله على شفا جرفٍ هار؟!.

وإذا احتج محتج بأن هذا الدين قد طبق في فترة من الفترات أكمل تطبيق في عهد رسول الله ﷺ، والذين طبقوه هم أصحابه رضي الله عنهم وهم بشر، وليسوا ملائكة، وتبعهم على ذلك أهل القرون المفضلة، أجاب أعداء هذا الدين أن تلك فترة نادرة في حياة البشر، ولماذا لا يطبقه المسلمون الآن إن كان ممكن التطبيق؟

ولقد حمل المسلمون إثم عدم الجواب على هذا السؤال، وهو جواب ليس باللسان فقد نطق اللسان، وليس بالقلم، فقد كتب القلم، وليس بالأماني فقد ملّ الناس الأماني، ولكن بالعمل والتطبيق، فليس الإيمان بالتحلّي ولا بالتمنّي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل.

لقد حمل المسلمون إثم عدم هذا الجواب، كل منهم بحسب ما فوّت من هذا الدين وهو قادر على عدم تفويته، ويتحمل أهل الحل والعقد في بلدان المسلمين أكبر قسط من هذا الإثم، بسبب عدم إقامتهم هذا الدين وتطبيقه في واقع الحياة، لأنهم هم الذين يقدرون على إقامة هذا الدين وقد أقصوه عن حياة الناس وحالوا بين رعاياهم وبين التمتع بأحكام هذا الدين وشريعته.

هذا، وإن الإنصاف ليقتضي أن نقول: إن المسلمين على الرغم من بعدهم كثيراً عن دين الله، فإنهم مع ذلك أسعد الناس نسبياً بسبب ما بقي عندهم من إيمان، ومن تطبيق بعض الشعائر التعبدية وتنفيذ بعض الأحكام الشرعية التي يتاح لهم تنفيذها، ومن وجود بعض الآداب والأخلاق التي مازالت متوارثة في

أجيال المسلمين، وان كان كثير منها أصبح عادة لا يربطها أهلها بطاعة الله ورسوله وكلما كان فرد أو أسرة أو شعب أو دولة أكثر تطبيقاً لشيء من شريعة الله، كان أكثر سعادة وأمناً من غيره[1].

﴿وحاجّه قومه، قال: أتحاجّوني في الله وقد هدان، ولا أخاف ما تشركون به إلّا أن يشاء ربي شيئاً، وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[2].

﴿الذين إن مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾[3].

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

فرغ مؤلفه وفقه الله من تبييض هذا الكتاب في ليلة السادس عشر من شهر ربيع الأول من سنة ست وأربعمائة وألف بالتاريخ الهجري في مدينة رسول الله ﷺ.

---

(١) الذي يقارن بين بعض الشعوب الاسلامية يرى ذلك واضحاً، ولما كانت المملكة العربية السعودية في هذا العصر قائمة ـ في الأصل ـ على دعوة الاسلام وتنفيذ أحكامه على أيدي القضاة الشرعيين، كان شعبها أكثر أمناً واستقراراً، زادها الله توفيقاً.

(٢) سورة الأنعام/ ٨٠ ـ ٨٢. (٣) سورة الحج/ ٤١.

مراجع كتاب أثر التربية الاسلامية في أمن المجتمع الاسلامي

١ - **إحياء علوم الدين**، محمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.

٢ - **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، محمد ناصر الدين الألباني، ، المكتب الإسلامي، بيروت.

٣ - **أسس الاقتصاد الإسلامي**، أبو الأعلى المودودي، الطبعة الثانية.

٤ - **الإسلام**، سعيد حوا، الطبعة الأولى.

٥ - **الإسلام وضرورات الحياة**، عبد الله بن أحمد قادري.

٦ - **أضواء البيان في إيضاح القرآن**، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، مطبعة المدني.

٧ - **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، مكتبة الكليات الأزهرية.

٨ - **اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم**، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مطبعة الحكومة، مكة.

٩ - **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع** - علاء الدين أبو بكر بن مسعود الكاساني مطبعة الإمام بالقاهرة.

١٠ - **البحر المحيط** - أبو عبد الله محمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الغرناطي، مكتبة مطابع النصر الحديثة، الرياض.

١١ - **تحفة الأحوذي**، على جامع الترمذي - المبارك فوري - المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

١٢ - **تحفة المودود في أحكام المولود**، محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية.

١٣ - **ترتيب لسان العرب**، يوسف خيّاط ونديم مرعشلي، دار لسان العرب، بيروت.

١٤ - **تفسير القرآن العظيم**، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.

١٥ - **التفسير الكبير** - الفخر الرازي - دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، طهران.

١٦ - **تفسير المنار**، السيد محمد رشيد رضا، مكتبة القاهرة.

١٧ ـ **تكملة المجموع**، محمد حسين العقبي ـ زكريا يوسف علي.

١٨ ـ **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، ابن عبد البر، المطبعة الملكية، الرباط.

١٩ ـ **تنظيم المجتمع للإسلام**، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

٢٠ ـ **جامع أحكام القرآن**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القرطبي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

٢١ ـ **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، المبارك بن حمد بن الأثير الجزري، مطبعة الملاح، بيروت.

٢٢ ـ **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

٢٣ ـ **الجريمة والعقوبة** ـ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

٢٤ ـ **الجهاد في سبيل الله، حقيقته وغايته** ـ، عبد الله قادري ـ دار المنارة، جدة.

٢٥ ـ **الجنين والأحكام المتعلقة به في الفقه**، محمد سلام مدكور، دار النهضة العربية، القاهرة.

٢٦ ـ **حاشية الدسوقي على الشرح الكبير**، محمد بن عرفة الدسوقي، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٢٧ ـ **خصائص التصور الإسلامي**، سيد قطب، الطبعة الثانية.

٢٨ ـ **رياض الصالحين**، الإمام النووي.

٢٩ ـ **زاد المعاد**، ابن قيم الجوزية، تحقيق الأرناؤوط.

٣٠ ـ **سنن أبي داود**، الإمام سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الحديث، حمص، سوريا.

٣١ ـ **سنن ابن ماجة**، الإمام محمد بن يريد القزويني، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي.

٣٢ ـ **سنن الترمذي**، الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر.

٣٣ ـ **سنن الدارمي**، الإمام أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، السيد عبد الله هاشم اليماني المدني.

٣٤ ـ **سنن النسائي**، الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

٣٥ ـ **السياسة الشرعية**، شيخ الإسلام ابن تيمية، المكتب الإسلامي، بيروت.

٣٦ ـ **السيرة النبوية**، الإمام أبو محمد عبد الملك بن هشام، تحقيق مصطفى الشعار وزميليه، طبع الحلبي.
٣٧ ـ **شرح السنّة**، أبو محمد الحسين بن مسعود، المكتب الإسلامي.
٣٨ ـ **شرح النووي على صحيح مسلم**، الإمام يحيى بن شرف النووي، المطبعة العربية بالأزهر.
٣٩ ـ **صحيح البخاري**، الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، طبع استانبول.
٤٠ ـ **صحيح مسلم**، الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي.
٤١ ـ **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، ابن قيم الجوزية، طبع قطر.
٤٢ ـ **عون المعبود ، شرح سنن أبي داود**، أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم ابادي، المكتبة السلفية، المدينة.
٤٣ ـ **العبودية**، شيخ الإسلام ابن تيمية، المكتب الإسلامي، بيروت.
٤٤ ـ **العدالة الاجتماعية**، سيد قطب إبراهيم.
٤٥ ـ **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية، القاهرة.
٤٦ ـ **في ظلال القرآن**، سيد قطب إبراهيم، دار الشروق.
٤٧ ـ **القاموس المحيط**، مجد الدين يعقوب الفيروزآبادي، مطبعة السعادة بمصر.
٤٨ ـ **الكفاءة الإدارية في السياسة الشرعية**، عبد الله قادري، مكتبة دار المجتمع، جدة.
٤٩ ـ **الكافي**، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، المكتب الإسلامي.
٥٠ ـ **مبادىء الإسلام**، أبو الأعلى المودودي، طبع الاتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية.
٥١ ـ **المحلّى**، أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري.
٥٢ ـ **مجموع الفتاوى**، شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع ابن قاسم، الطبعة الأولى.
٥٣ ـ **المجموع**، للنووي، زكريا علي يوسف.
٥٤ ـ **المسئولية في الإسلام**، عبد الله قادري، مكتبة طيبة، المدينة المنورة.
٥٥ ـ **المسند**، الإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، بيروت.
٥٦ ـ **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي**، أحمد محمد بن علي المقري الفيّومي.
٥٧ ـ **المغني**، محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة، تحقيق طه الزيني، مكتبة القاهرة.

٥٨ ـ **المفردات**، أبو القاسم الحسين بن محمد المشهور بالراغب الأصفهاني، الطبعة الباكستانية.
٥٩ ـ **الموطأ**، الإمام مالك بن أنس،
٦٠ ـ **الموافقات**، الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق عبد الله دراز، ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي.
٦١ ـ **منهج التربية الإسلامية**، محمد قطب، دار الشروق.
٦٢ ـ **نظام الحياة في الإسلام**، المودودي.
٦٣ ـ **النهاية في غريب الحديث**، الإمام ابن الأثير ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه.
٦٤ ـ **نيل الأوطار**، محمد بن علي الشوكاني ـ مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
٦٥ ـ **الولاية على النفس**، محمد أبو زهرة، دار الرائد العربي، بيروت.
٦٦ ـ **الولاء والبراء في الإسلام**، محمد بن سعيد القحطاني، دار طيبة، الرياض.

الفهرست

الباب الثالث: